رواية

سأهبك مدينة أخرى



أحمد ابراهيم الفقيه

رواية

سأجدك مدينة أخرى

أحمد إبراهيم الفقيه

سأهبك مدينة أخرى

زمن مضى وزمن آخر لا يأتى.

وبين الزمن الهارب والزمن الذى يـرفض المجـىء، زمن ثالث، مفازة من الرمال الحمراء، تحرقها شمس تقـف دون حراك، وسط سماء لها لون الرصاص. أتمدد نائماً فـى سريرى، وأنا أسير عبر الأرض المحروقة تائهاً عن الظـل والماء. ينبثق فوق رأسى طائر يخفق بجناحيـه الأسـودين. أركض لاهثاً كى أحتمى بظله، ولكن الطائر يبسط جناحيـه دون حراك ويحوم دائراً فى ذات المكان. أدور مع دورتـه، ألاحق ظله الهارب. يواصل الطائر حركته الدائريـة حـول عين الشمس. أتقلب فى سريرى، وأدور مـع دورة الظـل، راكضاً، لاهثاً، ظامئاً، مسفوعاً بهواء ساخن كأنفاس الجحيم. أحس الإنهاك والدوار. ينضب من جسمى الهـواء. أتـرنح، أتهالك، يأكل الطائر قرص الشمس ويطـوى الأرض تحـت جناحيه. وأسقط أنا فوق رمال الصحراء ميتاً.

توقظنى من موتى طرقات على باب البيت. أجلس فى سريرى وأنا أرشح عرقاً، ورأسى مازال مليئاً بالدوار. أمـد يدى فى الظلام أبحث عن كوب ماء وضـعته قبـل النـوم،

بجوار رأسى. أبلل جفاف حلقى، وأمشى دائخاً أفتح البـاب، فلا أجد خلف الباب أحداً.

زمن مضى وزمن آخر لا يأتى.

وبينهما متاهة لن تنتهى ألا عندما أهتدى إلى نبع الماء المدفون تحت الرمال. يأتى الصباح فأنسى النوم والكوابيس، والأرض المفروشة بالجمر، والمسقوفة بالرصاص. أمضـى فى شوارع المدينة، أخترق تعليمات المرور وأجتاز الطريق أثناء الإشارة الحمراء. أسير بين الناس كمن يسبح فى حوض من الماء.

- كأنك لا تعيش معنا.

عبارة يقولونها، فتنزلق على سـطح الـذاكرة دون أن تترك أثراً. لم أعد أهتم بما يقولونه أو يفعلونه. أراهـم فـلا أرى إلا جزءاً من الفراغ الذى يغلف الكون، وأسمع كلامهم فلا أسمع إلا ضجيجاً لا أفهمه ولا اتواصل معه. اننى فعلا لا اعيش معهم. بل اصبحت اكره أن أعيش معهـم، وأرى أن حياتى مجرد انتظار لزمن يرفض المجـىء، فـأهرب إلـى الزمن الذى مضى أبحث فيه عن فسحة شهيق وزفيـر. لـم أهجر عملى بالجامعة ولكننى صرت أغيب كثيراً ولا أعتنى

بتحضير الدروس، موقناً بأنه عمل زائد عن الحاجة، لا نفـع منه ولا ضرورة له. وما هذه اللغة الأجنبيـة التـى أتـولى تدريسها إلا لغة إضافية، لا جدوى منها ولا حاجة لأحد بها.

- كأنك لا تعيش معنا.

تم كل شىء بحسب ما كنت أبتغى. فـزت بالشـهادة العالية التى تنتهى عندها أحلام الدارسين، لأبدأ العمل مدرساً بالجامعة. قررت أن أنسى ومنذ اللحظات الأولى كل شـىء عن السنين التى عشتها موفداً للدراسة بأقصى مدن الشـمال. أبدلت ريشى كما تفعل الطيور بعد انتهاء الربيع. نزعت عن نفسى وفور وصولى ذلك الجلد القديم الذى لم يكن جلداً وإنما معطفاً يلائم طقس تلك البلاد وانتفت الحاجة إليـه بعـد أن اختلف المناخ وتبدلت مشـاهد الطبيعـة وسـطعت شـمس الصحراء بعنفها وقسوتها. أردت أن أكون وفياً للتقاليد التـى تحكم الكون وتمنعه من التصدع والانهيار، فسعيت منذ البداية إلى الدخول راضياً فى القوالب الجاهزة التى أعدها المجتمع لأبنائه الصالحين. متماشياً مع شروط البيئة ومجدداً انتسـابى إلى الفرقة الناجية. أكملت نصف دينى بـالزواج، وسـعيت

لإتمام نصفه الآخر بالمداومة على الصلاة، وعدت فرداً مـن أفراد القبيلة، يسلم نفسه دون تحفظ لطقوسها وشرائعها.

- كأنك لا تعيش معنا.

وجدتهم يحتفظون لى بقطعة أرض هى حصـتى مـن إرث الأب الميت. قايضت الأرض بشقة بالطـابق الرابـع، قريبة من الجامعة ولها مطبخ واسع به شـرفة تطـل علـى البحر. جئت للشقة بالزوجة التى أسـعدها اتسـاع المطـبخ وشرفته التى لا نرى البحر إلا منها، وتأكدت فـى الوسـط الجامعى مكانة الدكتور خليل الامام، الذى يعرف أسرار اللغة الإنجليزية بمثل ما يعرف كيف يحقق انسجاما وتوازناً مـع البيئة التى ينتمى إليها. ثم بدأ كل شىء يتقوض وينهار عندما صرت أسمع طرقاً على باب البيت أثناء الليل، وأقوم مفزوعاً من نومى، أسأل من وراء الباب؟ فلا أسمع رداً، وأفتحه فلا أجد أحداً.

- كأنك..

إننى لا أعيش معهم، ولا أعيش مع أى أحد آخر. حتى زوجتى صار وجودها بجوارى على السرير كل ليلة، عبئاً لا أقوى على احتماله. إنها لا تسمع طرقاً على الباب ولا تعتقد

بجود الطارقين. يهرب منى النوم، وأكره أن أعود إلى متاهة الحلم، فأترك السرير وأذهب إلى المطبخ، حيث أقـف فـى شرفته المطلة من بعيد على البحر، ألتقط أنفاسى وأسـمعت هدير الموج. يشرد ذهنى لحظة ويعـود، فأجـد أن لحظـة الذكرى اتسعت لتستوعب جزءاً من العمر بكل ما حفل بـه من أحداث وصور ووجوه.

- إنه يكتب رسالته عن الليالى العربية.

تسطع فى قلب الظلام أضواء مدينة بعيدة. وأستعيد مع تراتيل الموج ذكرى تلك الأيام التى حاولت أن أمحوها مـن تاريخى. فإذا بها تطفو على سطح الذاكرة، حلقة من حلقـات زمن بهيج تقوض وانتهى. أملأ صدرى من هواء البحر وأنا أحس بشىء من الارتياح لأننى منحت ذاكرتى مدينة أخـرى تهرب إليها، من قسوة المدن التى تطاردها رياح الصحراء.

- إنه يكتب رسالته عن الليالى العربية.

يدخلنى هذا التقديم دائرة الاهتمام والفضول، ويحيطنى بشىء من وهج الأسطورة العربية وسحرها. وأسمع سـؤالاً عن الجانب الذى اخترت دراسته، فأجيب بصوت يلونه الأداء المسرحي:

- عن العنف والجنس.

لم يكن العنف والجنس إلا موضوع دراسـة مقارنـة أكتبها عن أثر الأسطورة العربية فى أدب اللغة الإنجليزيـة، ولكننى أرى الاندهاش يغمر وجهاً أنثويـاً مضـيئاً، فـأترك النقاش الثقيل عن الأدب المقارن، وأمضى وراء الإثارة التى يصنعها حديث العنف والجنس. إنه موضوع يليق بعصـرنا كما يليق بكتاب الليالى، أقول لها، فالليالى ليست فقط سـفائن سندباد، وكنوز على بابا، وفضول حلاق بغـداد، ومصـباح علاء الدين الذى يسكنه ملوك الجان. ليسـت فقـط بسـاطاً سحرياً نسافر فوقه إلى جزائر الحلم. إنها العنف والجـنس، والعشق والموت، والتعامل مع تلك المناطق البعيدة، العميقة، الغامضة، فى النفس البشرية. ويأتى السؤال بريئـاً ممـن لا تعرف من الليالى العربية إلا ما تنقلـه الرسـوم المتحركـة وكتب الأطفال:

- يبدو غريباً هذا الحديث عن العنف والجنس فى ألف ليلة وليلة.

فأقدم لها الجانب المسكوت عنه، الذى لا تقوله حصـة الأطفال فى التلفاز ولا تعترف به مقررات المنهج المدرسى.

الملك الذى يعبث كل ليلة بصبية من صبايا مدينته، يقطـف بكارتها ثم يقطع رأسها. وأنقل لها تفاصيل المشهد الافتتاحى للكتاب، عندما نلتقى بأولى ولائم الجنس والدم. أجساد عارية تتعانق وسط أحواض الماء، والملك الذى يدخل إلى المشـهد شاهراً سيفه، معلناً نهاية الحب وبداية الموت. عنف وجنس، وجنس وعنف، وحديث يتكسر به جليد اللقـاءات الأولـى، ليسهل بعد ذلك العبور إلى مخادع النساء المنبهرات بشـرق الخرافات.

- وما الذى توصلت إليه حتى الآن ؟.

- ما زلت فى بداية البحث، ولكننى أقول لكم إن مـا تسمونه تحرر العلاقات الجنسية، وتظنونه اكتشافاً حديثاً مـن اكتشافات بلادكم، كانت مجتمعاتنا الشرقية قد اهتدت إليه منذ مطلع القرون الوسطى.

كنت أعرف أن القرون الوسطى ما تزال تمارس قمعها الجنسى فى تلك المجتمعات الشرقية التى جئت هارباً منهـا، ولكن الحديث عن الكبت والانغلاق لا يخدم قضية التواصـل والحوار مع النساء اللاتى يطرحن هذا السؤال.

ومستعيناً بشهر زاد وذاكرتها السـحرية، بلصـوص بغداد وشطارها، بدراويشها وعشاقها وتجارها وقهرماناتهـا، بالأميرات الباحثات عن الحب، والمغامرين الحالمين بالمجد، بالجوارى القابعات خلف الخـدور، يمـلأن الأرض شـجناً ودموعاً، أو رقصاً وغناء، بالأمراء الذين يرتدون ملابسـهم التنكرية، والصعاليك الذين يتنكرون فى ملابـس الأمـراء، مستعيناً بالطلاسم والتمائم والأدعيـة والخـواتم السـحرية، بالجنيات القادرات على طمس الطبيعة البشـرية، والمـردة الطالعين من قماقم الملك سليمان، ذهبت أبحث عن زمن أكثر بهجة من زمنى القديم، مرتدياً ملابسى التنكرية، متخذاً مظهر رجل شرقى، خرج لتوه من كتاب الأسطورة.

- ما هذا الذى تفعله أيها البدوى؟

لم يزعجنى السؤال، بقدر ما أزعجنى أن ليندا تقولـه وهى تتحاشى النظر إلى. ظلت تقود السيارة وتضع عينيهـا على الطريق. أدركت بشكل غامض ما ترمى إليه. ولعلها ما عرضت أن توصلنى فى طريقها إلا لتقول لى هذا الكـلام. فلقد رأتنى منذ ليلتين أعود متأخراً إلى البيت، ومعى امـرأة تضع أصباغاً كثيرة على وجهها، ولا بد أنها حسبتها إحـدى

النساء المحترفات. أعرف أن ليندا لا تحب أن يحدث ذلك فى بيتها ولا أظنها ترتاح كثيراً لهؤلاء الطالبات اللاتى يزرننى. كان السؤال ناقصاً فبقيت صامتاً انتظر بقيته.

- ألم تستطع الاهتداء إلى صديقة ثابتة؟

لعلها تريدنى أن أترك بيتها وأبحث عن سكن جديـد. ولكن لهجتها كانت هادئة، لينة، تحمل معانى الاشفاق بـأكثر مما تحمل معانى الغضب والاستنكار. كان الطريـق يمـر بمحاذاة البحيرة التى تلثم تلة خضراء، وكانت شمس الصباح تسقط على الماء وتنعكس على اسـفلت الطريـق وزجـاج السيارات المارقة فترسل شرارات لامعة تلسع القلب وتـوقظ أحلامه النائمة. لم أستطع أن أعترف بفشلى فى تحقيق هـذا الشرط الأساسى من شروط الاستقرار والأمان النفسى، ولـم أقل لها إن هذه العلاقات السـريعة لا ترضـينى ولا تحقـق شوقى للالتقاء بالمرأة التى تروى عطش القلب وتمنح ملامح واضحة لامرأة الحلم التى لا ملامح لها. تظاهرت بـأننى لا أسعى للحصول على هذه الصديقة. وقلت ساخراً إن صـديقة واحدة لا تستطيع أن تملأ فراغ هذه الصحراء التى تمتد بـلا حدود تحت أضلعى.

- ولكنك تحاول التعويض بشكل مرضى.

أراحنى قليلا أن الاستنكار الذى ظهر فى كلماتها لـم يكن مصحوباً بتعبير مماثل على ملامحها، فقد ظـل يغمـر وجهها فيض ابتسامة غامضة. جمال هادئ دون إثارة، ووجه خلا من التزويق ومستحضرات التجميل، وعينان عسـليتان، يوحى اتساعهما وغزارة أهدابهما بالالفة والأمان، ويمنحـان وجهها طابعاً شرقياً لولا شقرة الشعر وتورد البشرة وشـدة نقائها. كانت قلعة أدنبرة التى تتربع فوق هضبة عالية، تملأ الأفق وتهيمن على فضاء المدينة، وقد بدت فى هذا النهـار الربيعى أكثر جمالاً وأقل تجهماً وكآبة مما هى عليـه أيـام العتمة والسحب السوداء.

- لا تكن مكتئباً هكذا.

لم يكن لاكتئابى علاقة بكلمات العتاب التى قالتها. إنها الكآبة التى يثيرها فى نفسى جمال امرأة بعيدة المنال.

- هل سيجعلونك تنطق فى المـرة القادمـة، أم أنـك ستظل دائماً تحمل الرمح؟

كان سؤالها تعليقاً على دور شاهدتنى أقوم به مع فرقة المسرح الجامعى، فى مسرحية عن اجاممنون. حارس يحمل

رمحاً ولا ينطق بكلمة واحدة. مما أورثنـى لقـب »حامـل الرمح« بين أصدقاء حانة العناقيد. اوضحت لها بـأننى لـم أشترك فى هذه الفرقة بحثاً عن الأدوار الناطقة وإنما سـعياً لإغناء حصيلتى اللغوية.

- سوف لن تضيف شيئاً إلى حصيلتك اللغويـة بهـذه الأدوار الصامتة.

تركتنى قريباً من المسرح وواصلت طريقها إلى مركز المدينة.

- لن أبقى صامتاً على الدوام. وسأتكلم. لا بد أن أتكلم يا ليندا.

شئ فى هذه المرأة يفتننى، ولكن متى أجد القدرة على الكلام؟ كنت قد انتقلت قبل أربعة أسابيع للإقامـة فـى هـذا البيت الذى تقيم به ليندا وزوجها. أعيانى التنقل بين الفنـادق الرخيصة ذات الرطوبة العالية التى تحيط بالجامعة وتعـيش على ايواء الطلاب، فأسعدنى أن أجد زوجهـا يبحـث عـن مؤجر يستعين به على تسديد أقساط البيت الذى اشتراه حديثاً ولم يكمل تأثيثه بعد. أعجبتنى الغرفة التى تسـتقل بحمامهـا ومطبخها فى الطابق العلوى فاشتريت لها الضـرورى مـن

الأثاث، ووضعت وسائد فوق البساط، مستغنياً بها عن الصالون.

رجعت مع المساء إلى البيت لأجد ليندا ترتدى قفطاناً منزلياً تشاهد بمفردها حلقات. »هنرى الثامن« التى يعرضها التلفاز.

- ها هى إحدى شخصياتك المفضلة. ستجد هنا عنفاً وجنساً أكثر مما تحتويه لياليك العربية.

أعددت شاياً عربياً وأحضرت لها كأساً معى. جلست أشاهد شهريار الإنجليز فى نوباته العصبية وهو يرسل بزوجته الفرنسية إلى المقصلة. لم يكن هذا الرجل شخصية خيالية كما شهريار الليالى. إن ما يفعله حقائق تاريخية تثير فى النفس خوفاً لا تثيره الشخصيات الأسطورية مهما تجاوزت الحد فى مجونها ومباذلها. انتهت التمثيلية فصعدت إلى غرفتى، أرتدى منامتى، وأتكئ فوق الوسائد أطالع ألف ليلة وليلة، وأضع خطوطاً تحت المشاهد التى تهم دراستى. أنسى التاريخ وأدخل فى الأسطورة. جاءت ليندا تطرق باب الغرفة. انتبهت وأنا أتأمل مسحة الكدر التى غطت ملامحها أن هناك شبهاً بينها وبين الممثلة التى قامت بدور آن بولين

فى التمثيلية. لا بد أن المصير الفاجع الذى لاقته تلك الفتـاة الفرنسية هو الذى أفزع ليندا وزرع فى عينيها هذا القلق.

- إننى قلقة من أجل دونالد. تأخر كثيراً هذه الليلة.

ها هو غيابه يأتى متوافقاً مع مشـاهد الرعـب التـى أذاعها التلفاز، فكيف ستواجه ليندا وحشة هذا الليل بمفردها؟ دعوتها إلى الجلوس فوق وسائدى وأسـرعت أقفـل كتـاب الأسطورة وأطفئ مصباح القراءة، وأنزع الغطاء عن زجاجة النبيذ.

- ما زال الليل فى شبابه الأول، فلماذا كل هذا القلق؟

- إنه لا يتأخر أثناء الليل، إلا إذا أخبرنـى. وعنـدما فعل شيئاً كهذا منذ عام مضى، كان السبب أنه لم يكن لـدينا هاتف بعد.

أحضرت من المطبخ أطباق الجبن والزيتون واللـوز والفستق، وضربت كأسى بكأسها قائلاً:

- لنشرب نخب الأزواج الـذين لا يتـأخرون عـن زوجاتهم إلا مرة كل عام.

ليندا ودونالد، مثال لصفاء العلاقات الزوجية وثباتهـا، وسط بيئة تزهو بتناقضاتها، وحرية العلاقات فيها، وتمـرد

أهلها على سلطة المؤسسات بما فى ذلك مؤسسـة الـزواج. وفى حين كان دونالد، بطبيعته المنطوية نوعاً مـا، يضـيق بالتعامل مع واجبات الحياة اليومية، ويقضى وقته فى اقتنـاء الكتب ومطالعة الأفكار البوذية والاسـتغراق فـى الأحـلام وتفسيرها، كانت ليندا تتحمل وحدها عبء تصريف حياتهما اليومية. تركت عملها بالمكتبة وتفرغـت لقضـاء حوائجـه وحوائج البيت. تتولى قيادة السيارة والاعتنـاء باصـلاحها، التعامل مع المصرف وجمعية الإسكان. تشترى له ملابسـه، تعتنى بهندامه، تتولى بنفسها قص شعره عندما يحتاج إلـى قص. وتتركه ليمارس هواية اقتناء الكتب التى يعشق طبعاتها القديمة، ويشترك فى جمعيات تهتم بها ويسـعى للحصـول عليها حتى عندما تكون بلغة لا يعرفها. صار وجـوده فـى البيت امتداداً لعمله بمكتبة الجامعة. ملأ ردهة البيت وأركانه بالرفوف، وما أن يعود حتى يأخذ سلماً صغيراً يتنقل به بين هذه الرفوف وقد تهدل شعره الأشقر فوق عينيه، يعيد تنسيق الكتب وتبويبها، وأحياناً يستغرق فى قراءتها وهـو مـازال واقفاً فوق السلم.

قالت وهى تنظر إلى ساعتها:

- سوف لا أتسامح معه هذه المرة.

أردت أن أستخف بهذا الغياب الـذى أقلقهـا، فقالـت مازحاً :

- يكفيه عقاباً أنه لم يكن موجوداً ليرى المقصلة وهى تأكل عنق آن بولين، لقد كان مشهداً مليئاً بالرعب والإثارة.

كنت قد سمعت منها كيف تعرفت على دونالـد أثنـاء عملها بالمكتبة. كان أكثر العاملين صمتاً، وأقلهم سعياً لإنشاء علاقة معها. وإذا تحدث فهو لا يتحدث إلا عن كتبه أو عـن أحلامه فى الليلة السابقة، فهو رجل كثير الأحلام، ويؤمن بأن الأحلام التى نراها ما هى إلا تجارب أولية لأشياء سـنراها تتحقق فى المستقبل بشكل ما، أو مشاهد مـن حيـاة سـابقة عشناها قبل هذه الحياة. والمرة الوحيدة التى أظهر فيها مودة نحوها، كانت لحظة أن أخبرها، بأنه اكتشف أربعة حـروف تتشابه فى اسميهما، وبدا سعيداً بقدرته على أن يصـنع مـن هذه الحروف كلمة ذات معنى. وعندما توثقت العلاقة بينهما، حتى صارا يعيشان معاً، أخبرها بأنه سبق أن رأى كل ذلـك فى أحلامه، وأنه كان يعرف منذ بداية لقائه بها، بأنها ستكون زوجته.

- ما يجعلنى أحبه أكثر، هو أنه بعكس كل الناس الذين يستعجلون اليوم الذى يهجرون فيه طفـولتهم، بقـى دونالـد محتفظاً بطفولته صافية لا تجرؤ السنون على لمسها.

كانت آثار النبيذ الأحمر تمنح شـفتيها لـون الكـرز الناضج. قلت لها وأنا أعالج غطاء الفلين وأفتح زجاجة نبيـذ ثانية:

- أنت هبة منحتها له السماء. لأن الرجل لا يسـتطيع أن يبقى طفلاً إلا إذا وجد امرأة لا تكتفى بأن تكون زوجـة وحبيبة وإنما أماً أيضاً

- اعتبر نفسى امرأة محظوظة لأننى اهتديت إلى رجل مثل دونالد.

كانت قد عاودت النظر إلى ساعتها تتساءل مرة أخرى عن سر هذا الغياب، عندما سمعناه يفتح الباب. تركت كأسها مترعة، وخرجت لاستقباله. عادت بعد ربع ساعة لتقول إنها أبدت له استياءها، لأنه نسى أن يخبرها أو يهاتفها، وأبلغتـه بلهجة حاسمة أن خصامها معه سوف يستمر إلى الصباح. بدأ النبيذ يؤثر فى توازنها. ويضيف لوناً جديداً إلى كلماتها التى صارت تأتى أكثر بطئاً بينما تزداد سرعة ارتشافها للشراب.

لم أكن أتوقع عودتها، وعندما عادت كنت أظنهـا سـتكمل كأسها، وتذهب إلى زوجها. ولكنها اتكـأت بمرفقهـا فـوق الوسادة حتى لامس شعرها زندى. رفعت نحـوى وجههـا لتقول شيئاً. لم أنتبه إلى ما كانت تقوله، فقد توهج الفم مضيئاً وكأنه استقطب كل ما فى الغرفة من أضواء. وجدت نفسى، دون وعى أو تفكير، أنحنى على وردة الفم، المخضلة بنـدى الخمر، أقبلها. رفعت رأسى نادماً عندما لم أجد استجابة منها، أو هذا ما تهيأ لى، وهى تنتزع فمها من فمى. لأن ذلك لـم يكن صحيحاً. فقد أدارت جسمها بحيث استلقت فى حضـنى، ووضعت رأسها فوق حجرى، وشبكت ذراعيها خلف عنقى، ومدت جمرتين تطبق بهما على فمى، لأجد نفسى أركـض، دونما حرج، فوق حقول الرغبة ذات الأعشـاب المشـتعلة، وأغتسل عارياً فى الينابيع التى تتفجر فرحاً ونشوة. تمـددنا فوق البساط وقد تحول الجسد الذى يعانقنى إلى عاصفة تكنس النجوم من سمائها. كرة من نار تملأ الغرفة وهجاً واحتراقاً، وتجرفنى معها فى لحظة الاشتعال والموجـدة. أدهشـنى أن تتحول ليندا، ذات المظهر الوديع الذى يقطر صفاء ورقـة، إلى كتلة من الشبق والهيجان والشهوة. جسـم يـتقن فنـون

العشق الليلى، ويختزن فى خلاياه صاعقة وبرقاً. حاولت أن أجد فرصة لامتاع النظر برؤية هذا الجسد الأنثوى، الشهى، العارى، الذى تنطلق منه شرارات الرغبـة، ولكنـه كـان ملتصقاً بى، مشتبكاً فى عراك محموم مع جسـدى. يتقلبـان فوق أرض الغرفة، غير عابئين بالصهيل والأنين والشهقات التى تحدث صخباً، يخترق كثافة الجدران ويثير شبهة الزوج الذى ينتظر زوجته فى الغرفة السفلى. لا شىء يستحق العناء فى هذه اللحظة المتمردة على كل اللحظات، الهاربة من كـل الخرائط، والتصميمات الهندسية، وخطوط العرض والطول. الدماء تغزو الدماء، والأنفـاس تـركض، لافحـة، لاهثـة، لاختراق دوائر المألوف والمقبول، والوصـول إلـى تخـوم جديدة، ومدارات جديدة، ومدينة لا تشبه المـدن الأخـرى. انتهى العراك الشهى، وارتمى الجسدان اللذان أثخنتهما جراح الليل وهدهما الاقتتال الجميل، الواحد بجوار الآخر، يسربلهما الخدر، ويحيط بهما جو مفعم بالصمت ورائحة الخطيئة.

قامت ليندا من مضجعها. ظلت جالسة تضع رأسها بين ركبتيها، عارية يتهدل الشعر الكستنائى أمام وجههـا حتـى يلامس الأرض. بقيت مستلقياً فى مكانى، أتأمل شامة صغيرة

فوق زندها. سمعتها تقول بصوت، واهن، ضـعيف، تخنقـه العبرات :

- لم يكن هذا عدلاً فى حقه.

عندما ذهبت وبقيت وحدى، ظل الصدى يتـردد فـى رأسى:

- لم يكن هذا عدلاً فى حقه.

ولم يكن لما حدث تبرير إلا تبرير العفوية التى جـاء بها. كنت مساقاً بقوة اللحظة وغوايتها. لحظة تواطأت فيهـا أضواء الغرفة التى أوت إلى فمها، مع لون النبيذ الذى يصنع من الفم وردة أو جمرة، مع تأثير النجوم التى تسـطع بعـد منتصف الليل بأضواء أقل براءة من أضوائها فى أول الليل، والتى تمارس من خلف الأسقف والجدران تأثيراً على قلوب البشر الفانين وتسوقهم إلى الخطيئة بقوة لا يملكون لها رداً. سأكذب على نفسى إذا قلت إننى لم أرغبها وأتمنى الفوز بها، كنت دائماً أبعث لها بنداء صامت، لكنه ملح ومثابر، يدعوها مثل ناقوس معبد وثنى، إلى الإثم والغواية. ثمة شىء أثارنى فى هذه المرأة منذ أن التقيت بها لأول مـرة، وهـى تـأتى بصحبة زوجها إلى حانة العناقيد، أياماً قبـل انتقـالى إلـى

بيتهما. كانت ليندا فى ذلك اليـوم ترتـدى قميصـاً مفتـوح الصدر، يكشف عن منبت نهديها، حيث يرقد صـليب مـن الذهب الأحمر. انعكست على الصليب أضواء موقد النـار، فأرسل وهجاً يضىء تناسقاً بهيجاً، غامضـاً، فـى تكوينهـا وملامحها. لم أستطع إدراكه إلا عندما صرت محرجاً أعاود النظر إليها، كان الطرف الأسفل من الصليب يرسـم خطـاً مستقيماً، متصلاً بالخط اللذيذ الذى ظهر بين نهـديها، وبـدا طرفه الأعلى، كأنه جزء من خط يتصل وينقطع. أطلت إليها النظر لأكتشف أن نقرة بطرف ذقنهـا تصـنع خطـاً بـالغ الرهافة والعذوبة، يحيل على الفور إلى خط آخـر، صـنعته فلقة صغيرة بشفتها السفلى، وأن هـذا الخـط لا ينقطـع إلا ليتصل بخط يشبه وشماً زال لونه وبقى أثره فى أرنبة أنفها، ليصنع هذا كله تكوينياً مدهشاً، ويمنح وجهها طابعـاً نبـيلاً ينتمى إلى عصر أكثر جلالا ومهابة، وما تمنيت شيئاً تلـك اللحظة سوى أن ألثم هذا الخط، هابطاً من منطقة الجبين وما بين الحاجبين، إلى منطقة الصدر ومنبت النهـدين. وبـرغم أننى حاربت هذه الرغبة بعد أن صار زوجها صاحباً وجاراً له حرمته، إلا أن هذا الافتتان بليندا ترجم نفسه فى سـلوكى

وتعاملى معها. بل لعله كان دافعـاً أساسـياً وراء انتقـالى للمعيشة تحت سقف واحد معها، وظـل بطريقـة لا واعيـة ينتظر فرصة أو ذريعة تتيح له القفز فـوق أسـوار المثـل والأخلاقيات، وصولاً إليها. إننـى أفهـم الآن لمـاذا كنـت أحرضها على الشراب، حتى أثملها النبيذ وأضعف قـدرتها على الرفض والمقاومة. إن هذا الـذى حـدث دون كـلام، ووسط جو من الصمت والتواطؤ، كان شيئاً مدبراً. كان تنفيذاً لخطة أتقنتها تلك الإرادة التى تعمل بصـمت ودأب خلـف الإرادة الواعية. ولذلك فأن القول بأن ما فعلناه لم يكن عدلا، لا يكفى للتعبير عن جسامة الإثم الذى ارتكبته فى حق هـذا الصديق. ولكن من أين جاءت ليندا بهذه الرغبة، اللاذعـة، الحارقة، وكأنها تختزن فى جسمها نهماً إلى الجـنس ظـل محبوساً فى قمقم منذ عهد الملك سليمان؟ تذكرت حديثها هذا الصباح عن العاطفة التى لا أحسـن تصـريفها، والصـديقة الثابتة التى يجب أن أكتفى بها، فهل كان ذلك تلميحاً لشوق لم تبح به؟ وهل ترانا التقينا فى منتصف الطريق؟

عندما أفقت فى اليوم التالى كان النهار قـد انقضـى، وكان الطقس ممطراً كثير الرياح، فآثرت الاحتماء بالبيـت.

صنعت لنفسى شاياً، وحمصت بعض شرائح الخبز، وجلست أذاكر كتاباً عن أثـر الليـالى العربيـة فـى أدب العصـر الفيكتورى، وأتناول هذا الافطار الذى جاء فى موعد العشاء. لم أشأ أن أهبط إلى ردهة البيت لألتقى بليندا، ورأيـت أن أنتظر أخبار الساعة التاسعة فى التلفـاز لأجعلهـا ذريعـة للخروج من غرفتى. جاء موعد الأخبار ووجدت الـزوجين يجلسان قبالة الجهاز وأمامهما زجاجة من نبيذ أبـيض كانـا يتناولانه مع عشاء السمك. أخذت كأساً قـدمتها لـى ليندا ووضعت بصرى فى التلفاز. كنت أخشى أن تكون غاضـبة منى، نادمة لأنها أسلمت لى نفسها فى لحظة ضعف وإفراط فى الشراب. أدهشنى أننى لم أجد أثراً فى سـلوكها معـى، للغضب والاستياء. تجرأت ونظرت فى عينيها وهى تجمـع الصحون، فلم أجد أثراً للخطيئة فيهمـا. عـاملتنى بلطـف ومودة، ورأت كأسى فارغة فملأتها مرة أخرى وأبدى دونالد استغرابه لأنه لم يرنى عندما عدت إلى البيت، فأخبرته بأننى لم أغادره طوال اليوم، بارك بإشارة من رأسه هذا السـلوك وقال يخاطب زوجته :

- ها قد بدأت الدراسة تشد قبضتها على هذا البدوى.

لعله يقول ذلك ساخراً. أتراه حقاً لم ينتبه لمـا حـدث البارحة، ولم يسمع الأجساد التى ملأت الليل صهيلاً وركضاً ؟. لابد أنه صادق فيما قال. إن دونالد لا يستطيع أن يكـون شيئاً آخر غير دونالد. قطعة ثمينـة ونـادرة مـن البـراءة والطفولة. كيف تواتينى الشجاعة على أن أنظر فى عينيـه، وأدعى بعد الآن صداقته ؟. بقيت صامتاً، متـوتراً، أعلـق بصرى بشاشة التلفاز مدارياً خجلى، وأشبك ذراعـى علـى صدرى، وكأننى أريد أن أصنع بهما حاجزاً يخفينى عنـه أو يخفيه عنى. لم أستطع أن أكمل التمثيلية البوليسـية المليئـة بالمطاردات التى بدأت عقب النشرة، فاستأذنت منهما عائـداً إلى غرفتى. لم أنتبه إلى مرور الوقـت إلا عنـدما أطفـأوا التلفاز.

- حفظ ا الملكة.

سكت نشيد الختام، وبدا صوت المطر موحشاً كئيبـاً، إلى حد أن أشعرنى بالبرد، فأوقدت مدفأة الكهرباء. قضـيت النهار كله نائماً، وستكون مهمة مستحيلة أن أستحضر نومـاً هذه الليلة. سمعت خطى تصعد الدرج. فتحت باب لأجد ليندا تحمل فى يدها زجاجة نبيذ.

- اشتريت اليوم نبيذاً، وجئتك بهذه الزجاجة تسـتعين بها على النوم. فلا بد أنك استنفدت ما لديك.

رأتنى متردداً فى أخذها فوضعت الزجاجة فـى يـدى قائلة :

- لا تكن معانداً. إنها بوردو.

بادرت قائلاً وأنا أراها تستدير عائدة :

- ألا تشربين معى كأساً؟

أدركت وأنا أرى طيف ابتسامتها أنها لم تفاجـأ بهـذه الدعوة. وبشىء من المرح والدعابة أمسكت يدها أسحبها إلى غرفتى قائلاً :

- إنها بوردو.

شملت ابتسامتها الوجه كله حتى ضاع الخط الجميـل فى فيض البهاء والابتسام. قلت وأنا أدفع المسمار اللولبى فى فلين الزجاجة :

- من كان يشكك فى الكرم الاسكتلندى فليأت ليـرى بنفسه.

ومشمولا بهذا الكرم جلست فـوق الأرض بجوارهـا، أقاسمها الأقداح والقبلات. لم نتفوه بكلمة واحدة عن الحب أو

الخطيئة أو دونالد. لم نتحدث عما فعلناه البارحة أو نبحث له عن تفسير. أسلم كل واحد منا نفسه إلى الآخر، وكأن ما نشأ بيننا لم يكن إلا استجابة لقوة لا قدرة لأحد منا على دفعها أو الهروب منها. لا أدرى بأى عذر تركت زوجها، ولا أجدنى بحاجة إلى أن أهدر وقتاً ثميناً بسؤالها عن ذلك، فلا بد أنـه ذهب إلى النوم منذ وقت مضى. كان مـيلاد هـذه العلاقـة بالأمس مغامرة واكتشافاً. كان اقتحاماً لأرض مجهولة. أمـا الآن فإن الأرض المجهولة لم تعد كذلك. صارت تفضى إلى آفاق أكثر رحابة واتساعاً وألفة. وما إن رأيتها بجوارى حتى بدأت عبور مناطق الوجه والصدر التى فتنتـى لأول مـرة، لاثماً جبينها وأنفها وشفتيها وذقنها وعنقها وصدرها، صاعداً، هابطاً، مع هذا الخط المستقيم الذى له امتـدادات، وتجـاوره دوائر وقباب وانحناءات، ترسل هى أيضاً أشـهى النـداءات وأعذبها. أطوف بهـا مبهـور الأنفـاس، مسـلوب الإرادة كالدراويش، أتزود ببركاتها، وأغترف من نعيمها، وأقبل فى تبتل وخشوع عتباتها المباركة. كان المطر يضرب النافـذة، وكانت أسياخ الحديد فى المدفأة تنفث وهجـاً أحمـر يطـرد البرد. ولأمر ما بدا فعل الحب شيئاً لا يحقق كامل نشوته إلا

بالنار والمطر. لم تبك ليندا هذه الليلة كما فعلت ليلة البارحة. كانت أكثر مرحاً وانطلاقاً بعد ممارسة الحب. وعندما أبدت اقتراحاً بأن نرتدى ملابس الخروج، ونأخذ السيارة، ونقـوم بنزهة ليلية عبر شوارع المدينة التى يغسـلها المطـر، لـم أندهش أو أعترض، وجدته اقتراحـاً يليـق بهـذه اللحظـة المشتعلة نزقاً وجنوناً.

اندفعت بنا السيارة عبر حقول المطر والظـلام، تفـر الأشجار هاربة إلى الخلف فتبدو كأنها أشباح تطـل علينـا وتختفى، تقول كلاماً سريعاً غامضـاً وتمضـى. تجاوزنـا بسرعة وسط المدينة وانتقلنا إلى الجانب الأخر منها، حيـث أخذنا طريقاً ريفياً خالياً من السيارات والأضواء. كنـت قـد جئت معى بزجاجات النبيذ لنشرب ما تبقى منها فـى أثنـاء النزهة. شربت من الزجاجة مباشرة، وناولتها إياهـا. أرادت أن تفعل مثلى فسال النبيذ على ملابسها. انزعجت قليلاً ثـم انفجرت ضاحكة وهى تنتبه إلى أنها لم تشرب فـى حياتهـا نبيذاً من فم الزجاجة مباشرة، إلا هذه المرة.

- أنت الذى جعلتنى أفعل ذلك. تريدنى أن أكون بدوية مثلك ولكننى سأقاوم التصحر.

لم أسألها وهى تقود السيارة إلى أين ستمضى بنا. فقد كنت منتشياً باندفاعنا العشوائى وسط هذه الطبيعة التى تعزف نشيدها العنيف وتقيم أعراسها الوحشية بين الأدغال. تلألأت على البعد أضواء منتجع سياحى فوق تلة يغمرهـا الظـلام. انعرجت السيارة صاعدة مع الطريق الضيق الذى يقود إليه. كانت حانة الفندق قاعة كبيرة يلمع رخامها الأسـود تحـت ضوء شاحب الاصفرار، فيما توزعت الموائد فى الأركـان تاركة مكاناً فسيحاً للرقص، وكان العامل يقف خلـف البـار يغسل صحونه وأكوابه. صنع لنا كأسين من مزيج عصـير الفاكهة المخلوط بالكحول، واتجهـت لينـدا إلـى صـندوق الاسطوانات، تنتقى أغنية »مارى هوبكنز« »تلك كانت هـى الأيام يا صديقى«، ثم عادت تمسح عن وجهها وشعرها آثار المطر الذى أمسك بنا أمام الفنـدق. دارت الأغنيـة تطـرد الصمت والسكون، وتملأ المكان بالشجن الجميـل. انسـحب آخر رجل وامرأة من زبائن الحانة، ورأينا العامل ينظر فـى ساعته فدعوناه إلى احتساء كأس معنا. تدفق صوت المغنيـة يوقظ الذكريات العتيقة ويصنع لنا ذكريات جديدة.

فى سالف الأيام

كانت هناك حانة

وكنا نقصدها لاحتساء قدح أو اثنين.

أسبلت ليندا رموش عينيها، ورفعت رأسها، ونشـرت ذراعيها، ودارت ببطء مع الغنـاء الـدائر فـى صـندوق الاسطوانات، تنساب مع انسياب الموسيقى، وتتحول إلى كائن لا يعيش إلا فى حدائق الغناء. انتهت الأغنية ولكن ليندا التى تفتحت شهيتها للرقص واشتبك جسمها مع خيوط الموسيقى، لم تكن تريد أن تنتهى. أدارت أغنية أخرى ذات ايقاع سريع، وواصلت الرقص بتدفق وحماسة. جسد ينـتفض ويـرتعش ويخفق مثل خفق الأجنحة، يعلن تمرده على جاذبية الأرض، ويبوح بانتمائه إلى هذا الفضاء، الذى لا يحده حد. ومسحوراً بانسياب جسمها فوق الرخام الذى يشـع بأضـواء سـوداء، وحضورها الخافق كفراشة من نار، وهذه الإيقاعـات التـى تصدر نداء عاجلاً يدعو إلى الانطلاق والمغـامرة، تقـدمت أشاركها الرقص. أحيط خصرها، وأمـد ذراعـى بمـوازاة ذراعها. أشبك أصابعى بأصابعها وأدخـل فـى طقوسـها، ومغمض العينين أسافر معها، نطوى البرارى، ونجتاز المدن والغابات، والأنهار والبحار، وننطلق باتجاه جزيرة مسحورة

معلقة بين السماء والأرض، تمتلئ بأشجار من ضوء، ثمارها الفرح والعشق. انتهت الموسيقى وتوقف ايقاع الطبول، فبقينا للحظة متعانقين فوق جزيرة الضوء وكأننا نخشى الارتطـام بأرض البشر، والعودة إلى طبيعتنا الأولى، بعد أن كنا كائنـاً واحداً لا يقبل القسمة على اثنين.

في طريق الخروج لاح لنا حوض السباحة المسقوف، وقد تلألأت مياهه تحت انعكاس الأضواء التى تسـللت مـن أروقة الفندق عبر جدران الزجـاج. وقفنـا لحظـة نتبـادل النظرات، ودون كلام وجدنا أنفسنا نتسلل إلى صالة الحوض التى كانت دافئة معتمة. وكان الماء كلوح الزجـاج، سـاكناً وشفافاً ومضيئاً. لم نشأ أن نضىء النور أو نحـدث صـخباً يلفت الانتباه إلينا. بصمت خلعنا ملابسنا، وقذفنا بأجسادنا فى حوض السباحة.

من أين لحوض بارد، فى ليل اسكتلندى عاصـف أن يبعث فى النفس كل هذه النشوة؟ لعله ليس الماء، وإنما هـذه الأنثى الذهبية التى تقفز عارية فى الماء كعروس من عرائس الأساطير، والتى تملك روحاً مفتوحة على فضاء المغـامرة والجنون الليلى، هى التى تجعل البدوى فـى نفسـى يبـدو

مبهوراً ببهاء هذه اللحظة، منتشياً بها، لأنه يعرف أنها لحظة نادرة فى حياته المجبولة من رمل وقيظ الصحراء. أين قرأت عن ديانة تقول إن أحد طقوسها أن يسبح الإنسان عارياً فـى مياه الأحواض والبحيرات؟ لعلها مجرد فكرة طـرأت علـى ذهنى الآن، وكأننا بدخولنا إلى الماء نكمل طقساً فـى ديانـة جديدة، اخترعناها هذه الليلة. صلاة لإله نحن اللذين صنعناه على مقاس رغباتنا. أردت أن أحتفظ بصدرها فوق صـدرى وأنا أعانقها وأقبلها مستمتعاً بهذه العبادة الجديـدة، ولكنهـا صارت تنزلق وتنسل من بين أصابعى وكأنها مـاء وسـط الماء. أعدو خلفها وأحاول الامساك بها فتهرب منى، وتبتعد مسافة عنى، وترش وجهى بالماء وهى تضحك وتقفز وتخفق بذراعيها ونهديها وتغوص إلى قاع الحوض وتطفو فى مكان غير المكان الذى أوهمتنى أنها ذهبت إليه. أردت مجاراتها، فغامرت بالغوص وراءها، أطبقت فمى وأمسـكت بأنفاسـى واندفعت تحت الماء لألحق بها، وعندما وصلت قريباً منهـا، كانت المساحة قد أنهكت قواى. لم أستطع أن أحبس أنفاسـى أكثر من ذلك، ولم أستطع أن أحتفظ بجسمى طافياً. شـربت الماء وشرقت. رأتنى أسعل وأقاوم الغرق، فمدت يدها تعيننى

على الاحتفاظ بجسمى فوق الماء، وسارت بى حتى أوصلتنى إلى حافة الحوض. جلست ألتقط أنفاسى وليندا تنظر باندهاش نحوى.

- ما الذى فعلته بنفسك أيها البدوى؟

- كنت أريد أن أغرق، لأننى لن أجد لحظة أجمل من هذه اللحظة أختم بها حياتى.

- لعلك فعلاً أردت ذلك، فهو يتفق مع هوس العنـف والجنس الذى يملأ ذهنك.

خطر لى أن أسألها ونحن فى طريق العودة عن العذر الذى ستقوله لدونالد وهى تؤوب إليه بعد انقضاء الليل. ولكن من أى ثقب أسود فى السماء، تأتى هذه الأفكار التى تفتح باباً للكدر، وتبدد بهجة تترع القلب؟ إنها أدرى بما تفعل، وواجبى بدلاً من ذلك أن أقول كلاما يسعدها، وينقل ما أحس به مـن امتنان نحوها. لم أقل شيئاً ولم أفعل شيئاً أكثر من أن أخذت يدها ألثمها فى صمت ودون حاجة إلى أى كلام.

اختفت من سمائى كل النجوم، عدا نجمة واحدة هـى ليندا. تركت كل علاقاتى الأخرى وتفرغت لها. معاً صـرنا نعيد اكتشاف الأمكنة، ونبحث لعلاقة عشقنا عن فضاء جديد

تتنفس فيه، من خلال النزهة والتجوال والمعاشرة المستمرة، خارج الدائرة المكرورة، والعلاقات الشـرعية، وصـناديق الحديد، وأبراج الاسمنت، وعلامات السير الإجبـارى فـى شوارع المدينة. لأول مرة فى حياتى أحس بهـذا الانفعـال الطازج، الساخن، الذى يحس به الواحد منا تجاه إنسان آخر، يصبح هو وحده من تملأ صورته، حاضراً وغائباً، فضاءات الذاكرة. تتمحى كل الوجوه الأخرى ولا يبقـى إلا وجهـه، وتتمحى كل الأماكن إلا المكان الذى يحتويه، وينمحـى مـا مضى من تاريخنا، فتصبح حياتنا السابقة عـن لقائنـا بـه، وكأنها لم تكن حياة، وإنما شيئاً سديمياً أشبه بالهيولى الـذى يسبق نشوء الكون وبداية الحياة. ولأول مرة يصـبح فعـل الحب بالنسبة إلى، تلبية لنداء عميق يصدر عن كيانى كلـه، وليس مجرد اسكات للغريزة أو اداء لوظيفـة بيولوجيـة، أو ارضاء لنزوة من نزوات الجسد. لم يعد يقلقنى كثيراً، حقيقة أنها زوجة رجل آخر، يعيش معنا تحت سقف واحـد. فقـد رأيته راضياً بما يراه، لا يبدى كـدراً ولا ضـيقاً. مضـت علاقتنا تصنع شرعيتها الخاصة التى بدت لى أكثر عمقاً من أية شرعية تصنعها وثيقة الزواج، أو سجلات المكتب البلدى،

أو الاحتفالات الكنائسية. أوجدت لنفسى تبريراً يخلصنى من أى احساس بالإثم، ويطرد هذا الخاطر الذى يقول بأن سـر الإثارة فى علاقتنا هو أننى أستولى على امرأة رجل آخـر، وأعتدى على حصته فى النساء التى حـددتها لـه الشـرائع والأعراف والقوانين. لم نتحرج من أن يرانا الآخرون نذهب إلى الحانات معاً ونسهر الليل معاً. وكان دونالد كثيـراً مـا يرافقنا فى سهراتنا وجولات النزهة التى نقوم بهـا خـارج المدينة. لم تبدر منه أية اشارة تدل على ضيقه بهـذه الالفـة التى رآها تنشأ بينى وبين زوجته، بل صار أكثر سعادة لأننا أخرجناه من عالمه المحدود والمحكوم بذلك المثلث الذى يبدأ من مكتبة الجامعة إلى مكتبة البيت مروراً بحانـة العناقيـد. مكان واحد احتفظنا به لأنفسنا، ونذهب إليه مرة كل أسـبوع بمفردنا، هو ذلك المنتجع السياحى الذى سـبحنا ذات ليلـة عاصفة فى حوضه البارد.

قالت ليندا ونحن نجلس فى قطار الصباح المتجه إلـى لندن :

- برغم أننى لم أرها فأنا أعرفها بأكثر ممـا تعرفهـا أنت، وقد جئت لأثبت لك ذلك.

كنت تلقيت دعوة لحضور مؤتمر طلابى يعقد هنـاك، فاقترحت على ليندا، التى لم تشاهد لندن من قبل، أن نترافق فى هذه الرحلة من أجل الانتقال إلى مشهد جديـد وتجربـة جديدة، تغنى حياتنا بالذكريات المشتركة.

وما أن خرج القطار من عتمة الانفاق التـى تختـرق هضاب أدنبره، حتى انشق الأفق عن تلك السهوب المنبسطة، والتى تمتد رحابة واتساعاً، تعانق زرقة السماء، وتوقظ شوق القلب إلى الانطلاق، والرحيل عبر مداها الأخضر الذى يبلله ندى الصبح.

جاءت السيدة التى تدفع أمامها عربة الشـاى، فأخـذنا قدحين وجلسنا ندردش ونقرأ الصحف. قالت ليندا تعليقاً على غزارة الأخبار التى تتعلق بالوطن العربي:

- - يبدو أن العالم شديد الاهتمام بأخباركم.

- طالمـا أن الأخبـار لا تتغـذى إلا علـى المحـن والكوارث، فسأدعو ا أن ينتهى قريباً اهتمام هذه الصـحف بالوطن العربى.

امتنعت عن قراءة أى شىء يتصل بالسياسة، لكـى لا أمنح محررى هذه الصحف فرصـة اثـارتى، أو مبـاغتتى

بعبارة تفسد مزاجى هذا الصباح، واتجهت مباشرة إلى قراءة الأبواب التى تتحدث عن المطاعم، والحانات، وأنواع النبيذ، ومحلات السهر فى لندن. وجاء بعد ثلاث ساعات نداء عبر ناقل الصوت، يدعو الراغبين فى تناول وجبة الغـداء إلـى الانتقال إلى المطعم، فأخذنا حوائجنا وانتقلنا إليـه. لمحـت عدنان يجلس فى المطعم بمفرده فقلت لها ونحن نتجه لتحيته:

- إذا أردت حديثاً فى السياسة، فهذه هى فرصتك.

قضى أكثر من تسع سنوات مقيماً بهذه البلاد، ويعـد منذ أربع سنوات أطروحة دكتوراه عن فلسفة هيجل. وفـى ذات الوقت فهو نجم سهرات العزف والغنـاء فـى الأنديـة الطلابية، وعضو المكتب التنفيذى لاتحاد الطـلاب العـرب، وسكرتير جمعية اليسار الراديكالى فى الجامعة. تزوج امرأة من هذه المدينة، وأنجب، وطلق. هكذا قدمته إلى ليندا التى لم تكن قد رأته سوى مرة واحدة عندما شارك فى حفل صـغير أقمته بمناسبة انتقالى إلى بيتها.

قالت تعليقاً على نشاطه فى جمعيات اليسار المتطرف:

- تفزعنى كثيراً دعاوى العنف التى تمتلئ بها نشرات هذه الجمعيات.

أوضحت لها كيف أن عدنان شىء آخر. فهو يحمل فى المظاهرات صور تروتسكى وجيفـارا ومانـديلا ويرتـدى الكوفية الفلسطينية ويكتب رسالته عن الـديالكتيك وصـراع الأضداد، ولكنه فى المساء يقضى وقته متنقلاً بين جمعيـات تحضير الأرواح وجلسات التمرين على العلاج الروحى.

- وكيف يمكن الجمع بين هذه الأشياء؟

- إنها لا تجتمع إلا فى قلب عربى مثل عدنان. يكتب عن صراع الأضداد علناً، ويتصالح معها سرّاً.

أبدت ليندا اعجابها بعزفه عندما جاءنـا تلـك الليلـة، واشتياقها لسماع عوده مرة أخرى، فقال إنه سيشـارك فـى حفل يقيمه اتحاد الطلاب يوم الغد. وعدناه بالحضور، ووصل القطار محطته الأخيرة فأخذت ليندا إلى فندق صـغير يطـل على حديقة الهايد بارك. غرفة ضيقة، إلاّ أن شباكاً بعـرض الحائط، يطل على بهاء الحديقة، كان يمنحها جمالاً واتساعاً. عارية جدرانها إلا من صورة لعجوز يضع أمامه قدح البيرة. تتقد عيناه بفرحة طفولية، وتطفو فوق القدح رغوة مضـيئة. قلت لها:

- ها نحن نلتقى الآن فوق أرض محايدة.

لم تكن الأرض حقاً محايـدة. أدركـت وأنـا أمشـى بمحاذاتها عبر المناطق التى تحيط بحديقة الهايد بـارك، أن هذه الأرض أرضها، وأن كل هذه الأماكن التى لا تعنى لـى إلا ما تعنيه لأى سائح عابر، ترتبط لديها بركام من الأحداث التاريخية التى صارت جزءاً من تكوينها وثقافتهـا. ومـا أن ترى نصباً تذاكرياً أو تمثالاً لرجل يركب حصاناً أو تعـرف اسم الشارع الذى نجتازه، حتى تتدفق بحديث الذكريات التى يحملها المكان. فهنا أقيم الاحتفال بعودة ويلنجتون منتصـراً من معركة واترلو، وكانت الفتاة التى وضعت فى عنقه طوق الأزهار تبكى لأن والدها مات فى تلك المعركة دفاعاً عـن الملك والوطن. وكنت أغيظها قائلاً:

- هذه تفاصيل لا يعرفها إلا من حضر الحفل. وأنـت فيما يبدو لى أصغر عمراً من ذلك.

- لا تسخر منى، فقد شاهدت ذلك فى تمثيلية تاريخية عن لورد ويلنجتون. وهذا الشارع كان طريقـاً يقـود إلـى مزرعة سير توماس مور، التى شهدت اللقاء العاصف بينـه وبين الملك هنرى الثامن. كان الملـك غاضـباً لأن قدمـه

غاصت فى الوحل وتلاطخت ملابسه بالطين وهو يأتى لزيارة مستشاره.

- أنت تصدقين كل ما يقوله كتـاب التمثيليـات مـن أكاذيب. لعله أعدمه لهذه السبب.

- مهما كانت الأسباب الأخرى فإن الطين الذى لطـخ ملابس الملك دفع بالأحداث فى هذا الاتجاه.

- ألا تعلمين أنك تخترعين الآن نظرية جديدة لتفسير التاريخ، وتجعلين الطين عاملاً أساسياً فى تحريك أحداثه؟

- لا تقاطعنى أرجوك. فمن أين لبدوى مثلك أن يعرف طبائع الملوك؟

وأخيراً »سوهو«، الحى الذى عرفته أكثـر مـن أى منطقة أخرى، عندما أقمت فى لندن للدراسة التحضيرية، فلم أر فيه إلا المسارح والمطاعم وعلب الليل ودكاكين الجـنس، كان هو أيضاً يرتبط لديها بأسماء كتاب وموسيقيين ورسامين صنعوا أمجادهم الفنية فى هذا المكان. بحثنـا عـن مطعـم نتناول فيه العشاء، فسألت ليندا حارساً ليلياً عن اسـم أحـد المطاعم وقادتنى إليه، قائلة إنه مطعم نجوم التمثيل والغنـاء. كان مطعماً صغيراً، بسيطاً، لا يوحى بأية نجوميـة. وقفنـا

ننتظر أن يجد لنا العامل مكاناً لشدة الزحام، وما أن جلسـنا حتى صارت تهمس لى بأسماء الزبائن الذين يجلسون علـى الموائد المجاورة من أبطال التمثيليـات وأعضـاء الفـرق الغنائية. كانت سعيدة لأنها تتصل الآن بهذه الأوساط الفنيـة، وترى عن قرب هؤلاء الناس الذين كانت تشـاهدهم أطيافـاً على الشاشة. قلت معتذراً عن جهلى بكل هؤلاء النجوم:

- أعذرينى إن كنت لا أعرفهم، فليس فى سـمائى إلا نجمة واحدة هى أنت.

كان مسرح »السهم الذهبى« الذى يتخصص فى تقديم الاستعراضات العارية، هو أول ما جذب انتباهنا ونحن نغادر المطعم. وأمامه وقفت حافلة تفرغ مجموعة من السياح. قادنا الفضول إلى واجهاته المضيئة، نشاهد الصور المعروضة فى اللوحات. سألتنى ليندا ضاحكة:

- مارأيك؟

أدركت أن ما تقصده هو مشاهدة العرض. لم نكن قـد شربنا فى أثناء العشاء سوى قدحين من النبيذ، ولذلك فقد بدت الفكرة غريبة وأنا أتأملها بعقل لم تكسـر حدتـه ضـربات

الكأس. إذ ما الذى يدعو امرأة مثلها إلى قضاء أكثـر مـن ساعتين تشاهد نساء يتعرين. نقلت إليها رأيى فقالت:

- هناك أكثر من ذلك. إنهم يعتبرونه احتفالاً بالجسـد الإنسانى، ويسمون عرضهم هذه الليلة »مهرجـان الفاكهـة المحرمة«، ومعنى ذلك أنهم يقدمون فناً مع الإثارة.

كنت قد لاحظت وجود صور مستوحاة مـن أجـواء مشرقية، فاتجهت إلى شباك التذاكر، أبحث عن مكـان بـين المشاركين فى وليمة الفاكهة المحرمة.

تناهت إلينا ونحن نشترى شراباً من بـار المسـرح، موسيقى العرض وقد اختلطت بالشهقات الجنسـية. اجتزنـا ستارة حمراء ودخلنا إلى ظلام الصالة، فى حين وقفت تحت أضواء المسرح امرأة سامقة، انسيابية الجسم، تخلـع آخـر ملابسها. وتنتهى هذه المقدمات التى شاركت فيها امرأة ثانية وثالثة ممن يشبهن السهام الذهبية، لتبدأ المشـاهد الدراميـة، حيث يقدم العرى والجنس من خلال مشهد قصصـى. اتخـذ الديكور الذى هبط فى مقدمة المسرح شكل ثقب المفتاح، لكى يمنح المتفرجين احساساً بأنهم يدخلون عالماً سرياً، وظهرت شبكة عنكبوت وامرأة تتلوى عارية بـين الخيـوط، تتـأوه

وتصرخ. يدخل المسرح رجل عـار يرسـم فـوق جسـمه خطوطاً عنكبوتية، يركض إلى المرأة يحتضنها ويضاجعها، فتتحول صرخات الألم إلى صرخات استمتاع ولـذة. كنـت أضع يدى فى يد ليندا، ضاغطاً عليها، محـاولاً أن أحتـوى التوتر الذى تثيره المشاهد العارية. ثم جاءت أكثر الفقـرات إثارة وعنفاً. قاعة فى قصر أحد السلاطين، وخمس نساء من حريمه تغطيهن البراقع والملاحف والأبخرة التى تتصاعد من المجامر. تبدأ الموسيقى وتبدأ كل واحدة منهن ترقص وتطل من الشرفة، ثم ترمى حبلاً لعشيق ينتظرها أسـفل القصـر. يقفز العشاق إلى القاعة، وبحركات إيقاعية يبدءون فى خلـع ملابس النساء وخلع ملابسهم، ليضاجع كل واحـد عشـيقته متخذاً وضعاً يختلف عن الآخر. ثم جاء السياف، زنجى قوى البنية، حليق الرأس، حاسر الصدر والذراعين، يلمع جسـمه المدهون بالزيوت تحت الأضواء. صـرخ صـرخة تجمـد لهولها المتعانقون. أسند العشاق إلى الجدار وجز رؤوسـهم بالسيف. وبمعونة الخدع المسرحية، والأضواء التـى تطفـأ وتضاء، تدحرجت فوق المسرح خمسة رؤوس يتدفق منهـا الدم. أراد قتل النساء ولكنهن ركعن أمامه، يتعلقن بسـاقيه،

حتى استجاب لهن وصار يمارس معهن الحب وسط الأجساد والرؤوس المقطوعة. أشاحت ليندا بوجهها عن متابعة المشهد.

- دعنا ننصرف أرجوك.

قالت عندما خرجنا إلى أضواء وهواء الشارع:

- و كنت مكانك لما استطعت أن أكتب حرفاً واحداً عن الجنس والعنف بعد أن رأيت هذا المشهد.

فى ضحى اليوم التالى، ونحن نجلس على مقعد مشترك بحديقة الهايد بارك، قريباً من البحيرة، سألتها عن دونالد. كانت امرأة عجوز تقف على حرف البحيرة تحمل سلة بها بقايا خبز تطعم منه قطيعاً من البجع، وكانت تنادى كل بجعة باسم تطلقه عليها. كان نهاراً عامراً ببهاء الربيع، مفعماً بشذا جنائن الورد، وفى البعيد كان الأطفال يركضون وراء بالون طار فى الهواء، وقارب يطفو فوق البحيرة يحمل فتى وفتاة يتعانقان، وفوق رؤوسنا سحب خفيفة منحت زرقة السماء لوناً فضياً. ولذلك فقد بدا غريباً أن يداهمنى طيف دونالد فى هذا الجو الذى يعبق سلاماً، وأجد نفسى دون تفكير فى النتائج أفتح هذه الصفحة فى دفتر علاقتنا، والتى ظلت

صفحة مهملة لا أحد يقترب منها. تعكر قليلاً صفاء العسـل في عينيها، وظلت تنظر في الفراغ ولا تقول شيئاً. واصـلت إثارة الموضوع قائلاً:

- ألم يذكر لك شيئاً عن رأيه في علاقتنا؟

- إنه يعرف كل شيء.

نظرت إليها مندهشاً، أسألها وكأنني لم أفهم ما قالته:

- هل تقصدين أنه يعرف كل أسرار هذه العلاقة؟

كنت أعرف أنه يعرف شيئاً عن هذه الالفة والحميمية اللتين نشأتا بيني وبين زوجته. أما أن يعرف حتى ما يحدث بيننا في الفراش فهذا ما لم أكن واثقاً منه.

- هل صارحته أنت بذلك؟

- لم أقل له شيئاً.

- وكيف تراه عرف؟

- رأى في الحلم شيئاً جعله يوقن أن علاقة سوف تنشأ بيني وبينك، وكان كل ما طلبه مني بعد ذلك هو أن تسـتمر حياتي معه مثلما كانت قبل أن أعرفك، فهو لا يريد لعلاقـة عابرة أن تكون سبب انفصالنا.

بقدر ما أفزعتنى العبارة التى تصف هذا الفيض من الحب بأنه علاقة عابرة، فقد أذهلنى أيضاً موقف زوجها اللامبالى. ليكن قد خامر قلبه الشك. وليكن قد أدرك ما يحدث بيننا وأدار وجهه إلى الناحية الأخرى مدعياً أنه لا يرى شيئاً، فكله ممكن وجائز. أما أن يصارح زوجته بأنه لا يجد مانعاً فى أن تواصل علاقتها معى، شرط أن تبقى زوجة له، فهذا ما بدا لى سلوكاً يستحق الاندهاش والفزع. كنت أتصوره ما أن يعرف على وجه اليقين حقيقة ما يحدث بيننا، حتى يطردنى ويطردها من بيته. وكنت أفكر فى خطة أواجه بها موقفاً كهذا عندما يأتى وقته. اختلف المشهد الآن. ها هو يرضى بأن تصبح ليندا امرأة مشتركة بيننا. ليكن. إننى أحب هذا الوضوح، وأرى أن ترتيباً كهذا الترتيب يلائمنى تماماً. ولكنك سوف ترى وتعرف أيها العزيز دونالد بأنها ليست علاقة عابرة كما كنت تقول وتتمنى.

- إنها ليست علاقة عابرة يا ليندا. أنت لا توافقين على هذا الكلام؟

- لا أدرى. عرضت أن أرحل عنه إذا أراد، فلم..

أحسست بشىء من الاثم وأنا أرى سحائب الكدر تغطى ملامحها. لم أقل شيئاً بعد أن توقفت هى عن إكمال جملتها.

كانت المرأة العجوز التى تطعم البجع تتعـارك هـذه المرة مع جوليا لأنها اغتصبت حق مارثا من فتات الخبز.

- هيا تأدبى يا جوليا. لا تكونى فتـاة سـيئة الطبـع. اقتربى قليلاً يا مارثا.

ولكن جوليا منعت مارثا من الاقتراب. تضاحكنا ونحن نرى السيدة العجوز تغضب وتتوعد جوليا بالعقاب وتهـددها بأنها ستحرمها من إقامة حفلة بمناسبة عيد ميلادهـا القـادم. تركنا البجع والمرأة العجوز والبحيرة، وذهبنا نتفـرج علـى خطباء الحديقة، حيث اتخذ كل خطيب سمت زعيم سياسـى يريد تغيير العالم ويملك وصفة سحرية لتحريره من مشاكله. وتعقيباً على خطيب أسود، يسخر من العائلة المالكة، ويـتهم الملكة بأن لديها عشيقاً تزوره فى أفريقيا، وستلد قريبـاً أول أمير انجليزى أسود، قالت ليندا:

- لا أحد فى اسكتلندا يمكن أن يقول هذا الكلام عـن الملكة.

- لأنه ليس فى اسكتلندا هايد بـارك، تبيـع الأوهـام والفكاهات.

نسينا دونالد، ومنحنا أنفسنا للنهار الجميل. وقفنا أمـام المصورين المتجولين يلتقطون لنا الصور التذكارية، واشترينا بطاقات بريدية، وجلسنا بمطعم الحديقة ننتظر الطعام ونكتب البطاقات. كنا قد جمعنا بعض الصحف والنشرات الدعائيـة واخترنا من بريد القراء وأبواب التعارف أسـماء وعنـاوين أناس من القارات الخمس، وقررنا مخالفة لما هو مألوف أن نرسل إليهم بهذه البطاقات بدل أن نرسل بها إلى أصـحابنا. كتبنا للسيد بهارتا صانع القوارب بمدينة بومبـاى قـائلين:» شكراً لكل ما تحيطنا به من كريم رعايتـك أيهـا الصـديق الحميم«، ولمربية أطفال بقرية استرالية، كتبنا:» إن دعـاءك الدائم لنا بالتوفيق هو الذى فتح أمام علاقتنا آفاقاً جديدة للفرح والانطلاق، فلك الشكر والتحية أيتها المرأة المباركة«، وهكذا مع بقية الأسماء. ولا أدرى لماذا أعطتنى هذه الرسائل التـى كتبناها من باب العبث واللعب شعوراً بالأمـان، وجعلتنـى أحس بأن علاقتى ببلدى ازدادت عمقاً ورسوخاً بفضل هؤلاء الأصدقاء الذين لا نعرفهم ولا يعرفوننا.

حضرنا فى المساء الحفل الطلابى، وشـاهدنا عـدنان يغنى ويعزف العود. جاء أعضاء الجالية العربية يصطحبون صديقاتهم الأجنبيات أو نساءهم العربيات الحوامل، يـرددون الغناء مع مطربى الحفل ويصنعون ضجيجاً مشرقياً محببـاً. سألتنى ليندا ونحن نعود إلى الفندق عن سر كثـرة النسـاء الحوامل، فقلت لها:

- إنه دليل إعجاب بـبلادكم، فكـل هـؤلاء العـرب يتبارون فى تقديم شهادة ميلاد انجليزية لأبنائهم، علها تكون حرزاً ضد عوادى الأزمنة العربية.

امتدت إقامتنا فى لندن يوماً ثالثاً قضيناه بين الأسواق. اشتريت لها فى أثناء ذلك قارورة عطر شرقى، بالغ التـاجر الهندى فى الثناء عليها لأنها تحتوى عطراً نادراً" مصـنوعاً من خلطة أعشاب صحراوية، فأضفت إلى القارورة الأولـى قارورة ثانية. وبقدر ما كانت هذه الرحلة فرصـة لتعميـق معرفتى بالمرأة التى رافقتها، والاقتراب مـن جوانـب فـى شخصيتها لا يمكن الوصول إليها إلا من خلال مـا يتيحـه السفر من رفقة تتواصل كل ساعات الليل والنهار. فقد كانت مناسبة أيضاً، لأن أتعرف على هذا البدوى، الـذى يحمـل

ميراث مجتمع، ظل لعصور طويلة، يخبئ النساء داخل عباءة ثقيلة من التقاليد، والقيم المستعارة من عصور الحريم والسلاطين، باعتبارهن مخلوقات هشة، ضعيفة، يؤذيها ضوء الشمس. وأفتش عما تبقى من هذا الميراث في وعى ولا وعى الرجل الذى خلع أرديته البدوية، وتخلى عن خيمته، وشياهه، ونياقه، واكترى مقعداً فى طائرة تحط به فى أكثر مناطق العالم تحرراً، وانعتاقاً، من سطوة القرون الوسطى. أعرف أننى سعيت إلى المرأة، تلبية لاحتياج انسانى، متجاوز أى موقف فكرى أو فلسفى أو أخلاقى منها. احتياج انسانى، تصبح معه المرأة، شرطاً أساسياً لتحقيق العافية النفسية والجسدية، وتميمة لطرد أمراض الوحدة والكآبة، التى تأتى نتيجة الانتقال من بيئة إلى أخرى، ومن مناخ إلى مناخ، ومن أوطان نعرفها وتعرفنا، إلى أوطان نعرفها ولا تعرفنا. ولكننى سعيت بنفسية تحمل ندوب الجراح القديمة التى تصيبنا بها مجتمعات القبائل الصحراوية التى جاءت تسكن المدن، وتصنع شكلاً مشوهاً للعلاقات التى تحكمها قوانين الفضاء الصحراوى، بينما هى تحيا داخل مكعبات الاسمنت. كانت هذه اللعبة التعويضية هى التى تسيطر على سلوكى

وأنا أسعى لتحقيق علاقة سريعة تكلفنى الكثير من الاستجداء وإذلال الذات، وما أن أجد استجابة من إحدى النساء، حتـى أكون قد استنفدت قدرتى على التسول، وجئت أنتقم للحظـات الضعف التى بدرت منى. أتحول من شحاّذٍ للحب إلى رجـل لا هم له إلا المكابرة والعناد، سعياً لترميم الانهيار، وتعويضاً لمواقف الإذلال، مما يصل بالعلاقة إلـى طريـق مسـدود. وبرغم أن الخيبات الكثيرة أورثتنى شيئاً مـن الحـذر فـى التعامل مع النساء، وجعلتنى أدرك أن لمثل هـذه العلاقـات قواعد وتقنيات يجب حفظها واتباعها، فأننى مع ليندا لم أكن أحتاج إلى شىء كهذا. اكتشـفت أن باسـتطاعتى أن أكـون عفوياً وصادقاً، وأجد مع ذلك من يحبنى ويتواصـل معـى. كنت فى علاقاتى السابقة كمن يتعلم السباحة، ويبـذل جهـداً مضنياً وهو يتشنج ويعض الماء ويضـربه بيديـه وقدميـه ورأسه وصدره، دون أن يفلح فى البقاء طافياً، وما أن نسـى خوفه وتشنجه، وأسلم نفسه للماء دون عناء، حتى صار قادراً على السباحة. وكنت فى أعقاب هـذه العلاقـات السـريعة الفاشلة، أنقم على نفسى لأننى لم أستطع أن أتجاوز التربيـة التى أورثتنى تكويناً نفسياً لا يقوى علـى انشـاء العلاقـات

السوية. وما أن جاءت ليندا، حتى أذابـت هـذا الاحسـاس. كشطت كل الأتربة التى تراكمت فوق الأنسـجة والخلايـا، وطردت الأشباح التى تنوح فى خرائـب الـروح. عاطفـة ساخنة، تبخرت معها الهواجس والتحفظات، وتهـاوت تلـك الأسوار التى نقيمها حول أنفسنا لكى لا ينتهك الآخرون شيئاً ثميناً نطوى عليه صدورنا، ونحتفظ به لأنفسنا، ونقيم حولـه المتاريس والتحصينات خوفاً عليه من الأذى. تحررت مـن ميراث الخوف الغريزى وخرجت من أصدافى إليها. نبع من الماء والضوء تغتسل فيه الروح عارية بمثـل مـا يغتسـل الجسد. معها رأيت لندن فى ضوء جديد، مدينة أخرى غيـر تلك المدينة التى جئتها غريباً وبقيت خلال إقامتى بها غريباً. أرى وجودى يتلاشى فى حضورها الشامخ فـأحس نحوهـا بمشاعر غامضة من الخوف والرهبة والكراهية والاعجاب. مع ليندا صارت لندن أكثر إنسانية ودفئاً، ومعها تعلمت حكمة صرت أرددها لنفسى وللآخرين «حاذر أن تدخل مدينة كبيرة دون أن تكون مسلحاً بامرأة تحبها».

عندما وصلنا إلى البيت، وهرعت ليندا تعانق دونالـد، فتشت عن مشاعر الغيرة فى قلبى، فلم أجد فـى تعانقهمـا،

وتبادل القبلات بينهما، شيئاً يثير غيرتى أو كدرى، ولم أجـد أيضاً أى احساس بتبكيت الضمير لأننى أقتحم حياة زوجيـة هانئة. بدا واضحاً الآن، أن كل طرف فى هـذه اللعبـة قـد عرف دوره ومكانه فيها. صنعنا مثلثاً تتسـاوى أضـلاعه، ووقفنا فى زواياه نراعى المسافة التى تحفـظ لـه اسـتقامته واتساقه. تقدمت لتحية دونالد، أبحث فى نظراته عن تفسـير لموقفه من هذه العلاقة. إنه بلا شك يحب ليندا، ولـم يكـن ترحيبه بها الآن زائفاً، فهو مرتاح لفكرة أن ما بينى وبينهـا ليس إلا علاقة مؤقتة، وما أنا إلا رجل عابر فـى حياتهـا، وستعود ليندا بكاملها إليه بعد أن تكـون علاقتـى بهـا قـد استنفدت زمانها وأغراضها. من حقه أن يصنع وهماً ويسكن فيه هانئاً. إننى لا ألومه ولا أفتعل خصاماً معه. وسأسعى منذ اليوم لتعميق صداقتى به. قررت أن أكون عادلاً فى تعـاملى معه هذا المساء، وطالما ارتضى أن تكـون لينـدا امرأتنـا المشتركة ومصدر سعادة نتقاسمها معاً، فمن حقه أن يستفرد بها اليوم بعد أن أخذتها منه طوال الأيام الثلاثـة الماضـية. تركتهما وذهبت أُلبى موعداً مع عدنان فى حانـة العناقيـد. وجدت فى الحانة أحد المنتسبين لفرقة التمثيل يبلغنـى بـأن

مخرج الفرقة يبحث عنى. لعله أعد لى دوراً أكثر أهمية فى مسرحيته الجديدة، ولكننى سأبقى وفياً لرمحى ولن أتخلى عنه حتى لو كانت المسرحية عن حرب النجوم. دخـل عـدنان ليسمع طرفاً من الحديث الذى ورد فيه ذكر الرماح، فمضى يدندن ببيت عنترة:

ولقد ذكرتك والرماح نواهل منى

وبيض الهند تقطر من دمى

قطعت حديثى مع الممثل وخاطبت عدنان بالعربية:

- لعلك تنبهت إلى ما ينضح به البيت من عنف وجنس لكى تدرك أن الموضوع الذى اخترته لرسالتى لم يكن عبثاً. إنه يدخل فى نسيج الأعمال الإبداعية قديمها وحديثها، وجئت أثبت به أسبقيتنا فى هذا المضمار.

- يا له من مجد تضيفه لأمتنا!.

- وبيت عنترة خير دليل على ذلك.

- اختلطت لديك المفاهيم فما عدت تفرق بين الجـنس والحب.

- إنك لو تأملت البيت بعينى ناقـد يعتمـد مـدارس التحليل النفسى لوجدت أن للرماح التى تنهـل مـن الجسـد

والسيوف البيضاء التى تقطر دماً والتى يذكرها الشاعر بتلذذ وهو يتذكر فم معشوقته، معانى جنسية لا سبيل إلى إنكارها. ولو تأملته بعينى ناقد يعتمد المدارس البنيويـة لوجـدت أن لكلمات »ذكرتك« و »تقطـر« و »دمـى« و »نواهـل« و »منى« و »بيض« و »رماح« فيضاً من التداعيات الجنسـية التى تجعل من رعشة الحرب ورعشة الجنس شيئاً واحداً.

سأل الممثل الذى يقف بجوارنا أن نترجم له ما نقول، فتطوع عدنان بتقديم ترجمة سريعة لبيت عنترة قضت علـى جماله وما فيه من حرب وجنس. تطيرت من سوء الترجمـة واقترحت أن ننتقل إلى مكان لا نجد فيه من يعاتبنـا عنـدما نتحدث بالعربية. قال عدنان ونحن نحتسى قدحين من البيـرة فى حانة أخري:

- أذن فقد صرت تعرف أن هناك فرقاً بـين الحـب والجنس.

- ما أن اهتديت إلى الحب حتى صارت نفسى تعـاف الاقتراب من جنس لا يرافقه الحب.

- كأنك لم تعرف حباً قبل اليوم؟

- ولماذا يجب أن أعرفه؟ أليس الحب هو هذه التجربة الفريدة النادرة التى لا تتكرر كثيراً فى حياتنا؟

- ولكن هل وجدتما طريقة آمنة وأكيدة تتخلصان بهـا من الزوج. إنه عقبة فى سبيل هذا الحب. وأنا لا أنصح بالسم فهو وسيلة قديمة ما أسهل أن يكتشفها المحققون.

- ألا تتخلى عن طبيعتك الهازلة؟

- ولماذا تظن أننى أتكلم هازلا؟

أعرف الجرح الذى عانى منه عدنان لمدة طويلة. أحب امرأة من أهل هذه المدينة وتزوجها وأنجب منها طفلا. وبعد اكثر من أربع سنوات من الزواج ظهر فى حياتهـا رجـل آخر، ذهبت لتعيش معه بعد أن حصلت على طلاقهـا مـن عدنان. وبرغم أن ذلك حدث منذ عـامين إلا أنـه لا يـزال يخوض أعتى المعارك أمام المحاكم لاستعادة الطفـل الـذى أخذته معها. إنه لا يستطيع أن يرى فى ليندا إلا نسخة أخرى من زوجته التى هربت مع رجل يسميه رفيقها فى الخيانة. لم أكن أوافقه على هذه النعوت. امرأة أحبته، وارتضت بالزواج منه. ثم لأمر ما انتهى حبها له فجـاءت تصـارحه بحقيقـة مشاعرها وتطلب منه الطلاق. أمر مؤسف فى حق الطفـل،

ولعله مؤسف فى حق عدنان أيضاً ولكنها حقائق الحياة التى ترغمنا على أن نتعامل معها دون حاجـة إلـى أن نسـمى الأشياء بغير أسمائها. وإذا أراد أن يعتبر ما بدر من زوجته غشاً وخيانة، فإن علاقتى بليندا مبرأة من هذه الـتهم. إننـى صادق فى عواطفى نحوها وصدقى شهادة لى بأننى لم أكـن شريكاً فى مؤامرة تعتمد الغش أو الخـداع. أوضـحت لـه موقفى قائلاً إن زوجها لم يكن مرغماً علـى القبـول بهـذه العلاقة وطالما ارتضى بها فكيف يسمى ما يحدث غشا.

- هل تصدق أن هناك رجلاً يرضى بشىء كهذا؟
- المشكلة أنه راض وانت الذى لا تريد أن ترضى.
- وهل تثق أنت بامرأة تخون زوجها أمام عينيه؟
- ما أسهل أن يتلون كل شىء أمامك بلون الخيانـة.

إن ما بينى وبينها شىء فوق هذه المعايير التى يقـيس بهـا الناس المشاعر والعواطف والعلاقات كمـا يقيسـون البـدل والفساتين، فوق تعاليم المؤسسات التى تريد أن تمسخ أشواق الإنسان وتطالبه بأن يتنكر لذاته الحقيقية ويرفض الإنصـات لأى هاتف يصدر من داخله، لأن هذه هى الخيانـة. خيانـة لأنفسنا قبل أن تكون خيانة للآخرين. نتظاهر بما ليس فينـا

ونسميه شرفاً وبراءة، ونضع ألحفة سـوداء فـوق قلوبنـا ونمضى فى الحياة بقلوب عمياء يقودهـا التقليـد والأفكـار الميتة. ليندا لا تستطيع إلا أن تكون صادقة وشريفة. ولـذلك فهى لم تخبئ شيئاً عن زوجها. عرضت عليـه أن ترحـل فازداد تمسكاً بها. ألم تقتنع يا أخي؟

تنبهت إلى أننى أتكلم بصوت مرتفع. أتكلم غاضباً دون موجب لكل هذا الغضب. كلانا غريب ها هنا. ولعل غربتـه أكثر فداحة لأنه لا يدرى متى تنتهى. سألته أن يزورنا لنسهر بصحبة ليندا التى أعجبها عزفه الشرقى، وسيعرف على وجه اليقين أننى أحب دونالد ولن أضع له سما فى طعامه.

تعمدت أن أعود متأخراً" تلـك الليلـة إلـى البيـت، وخرجت مبكراً عندما جاء الصباح لكى لا ألتقى بهما. أردت أن أقضى النهار كله فى المكتبة أعد أوراقـاً حـان موعـد تقديمها إلى المشرف على رسالتى. قاومت هذه الرغبة التـى تطالبنى بأن أعود إلى البيت فى أثناء النهـار لأرى لينـدا. يجب أن أكون كريماً مع دونالـد، حريصـاً علـى الوفـاء بالتزامات الشراكة التى بيننا والتى تقتضى أن أتركها له أياماً بعدد الأيام التى قضيتها معها. انتهى دوام المكتبة فذهبت إلى

الحانة وخرجت مع الخارجين عندما دق ناقوس الختام. كان الطقس بارداً، وكنت أرتدى بلوفر زررتـه حتـى العنـق، واتخذت طريقى سيراً على الأقدام، مبالغة فى الحرص على العودة المتأخرة إلى البيت. مشيت أصفر وأغنـى بصـوت مرتفع أغنيات بدوية لا يعرفها هؤلاء الناس الذين تقذف بهم الحانات إلى الطرقات فى منتصف الليل. انتبهـت إلـى أن شعرى صار طويلاً ويجب أن أقصه غداً أو بعد غد. ولكـن ليندا تعرفنى بهذا الشعر الذى لم يزر دكاكين الحلاقين منـذ أكثر من عام، وقد يتغير شعورها نحوى لو أننى أزلته وتبدل مظهرى. فكرة ساذجة، ولكن الحب كما بدا لـى فـى تلـك الساعة المتأخرة من الليل، إنما يتغذى بالأفكـار الصـغيرة الساذجة. كان الطريق يمر بمنطقة خلاء، مجرد فضاء مـن العشب يحاذيه فضاء من الماء، يتكدس فوقهما الظلام. وكنت فيما مضى من أيام أمر بهذه المنطقة ليلاً فتوقظ فى ذهنـى مخزوناً من كلمات التحذير التى سمعتها فى طفولتى عنـدما كان الأهل يمنعوننى من مغادرة البيت بعد الغروب خوفاً من أشباح الليل. ولكننى الآن أمتلئ بفرح غامض تبعثه فى نفسى الأصوات التى تصدرها جنادب هجعت تحت الأعشـاب، أو

ذلك الغناء بكثافته الغريبة، الذى يصدر من ضفادع البحيرة. لم أقف مع الواقفين أنتظر الحافلة الليلية، وعندما جاءت وأنا ما زلت قريباً من المحطة لم أعد راكضاً لألحق بها. تركتها تمضى لأننى كنت سعيداً بالليل والظلام وهذا البرد الذى يلفح وجهى. ولم أكن وحيداً. كان يتهيأ لى أننى أحاور ليندا حواراً يتفق مع حضورها الأثيرى، وأخاطبها بكلام صامت كـ ذلك الكلام الذى نخاطب به طائراً جميلاً، كثير الألـوان، خفـق بأجنحته فوق رؤوسنا ساعة الرحيل، فأشـاع فـى أنفسـنا احساساً بالبهجة والأمان، أو نخاطب به زهرة لها تويج مـن نار، تألقت فجأة فى عتمة نهار ممطر، وأرسلت رعشة الفرح فى صدورنا. أو نستحضره لحظة أن تأتى موسيقى الفجـر، وتتداح فى يوم ربيعى، عبر نافذة مشرعة تغطيها ستارة من قماش أبيض شفاف. أو نناجى به أى شىء مـدهش جميـل تبعث رفقته البعيدة أبخرة دافئة تملأ القلب. دخلـت، عنـدما وصلت البيت، على أطراف أصابعى. أضأت النور ووقفـت أنتظر حدوث المعجزة. أن تتجسد ليندا أمـامى فـى هـذه اللحظة، أن تظهر فجأة من خلف باب مغلق وتأتى لمعانقتى. تأملت ساخراً من نفسى هذه المفارقة. أتعمد العودة متـأخراً

لكى لا أراها، وأدخل على أطراف أصابعى لكى لا أوقظها، ثم أقف وسط ردهة البيت، أمنى الخاطر بلقياها. ضحكت من سذاجتى. أطفأت النور وتلمست طريقى فى الظلام صـاعداً إلى غرفتى. ودون أن أتوقف لأسأل من أين جاء هذا العبير الذى تعبق به الغرفة، أضأت النور أخلع أردية النهار وأدخل فى لباس الليل. وقبل أن أرتمى فوق السرير، انبثقت ليندا من بين الشراشف كأنها تنبثق من مملكة الحلم والأساطير، تفـتح ذراعيها وتعانقنى. ارتدت لباس نوم وردى، ووضعت فـوق جسمها عطر الأعشاب الصحراوية، وجاءت تباغتنى. لم أجد وسيلة لتصريف هذه الشحنة من الدهشة والفرح التى أثقلـت روحى، سوى أن أطلق صرخة بدائية، هاتفاً باسمها :

- ليندا.
- ما رأيك أيها البدوى؟
- إنك تقتليننى بلا شفقة ولا رحمة.

قلتها صادقاً. فقد جاءت هذه المفاجأة تفرغ الهواء مـن صدرى. ولاهثاً صرت أبحث عن هواء أتنفسه فلا أجد سوى عطر أعشاب الصحراء يلفحنى. عانقتها وكأننى أعانق نجمة هربت من سمائها وحطت فـوق صـدرى، تمـلأه وهجـاً

واحتراقاً. احتفظت بها فى حضنى وكأننى أخاف أن تأتى يد من خلف ظلام الدنيا وتسرقها منى. قبلـت جبينهـا النقـى امتناناً، وعرفاناً بهذه النعمة، وتأملت مشدوهاً هـذا الوجـه وهاتين العينين وهذا القميص الوردى الذى احتوى ورداً أكثر بهاء وحسناً، وكأننى لا أصدق هذا المشهد، الذى كـان منـذ لحظات أمنية وحلماً. فاضت من جبينهـا وعينيهـا بـراءة الحقول المغسولة بضوء القمر ولكن الشفاه التى بللها (الروج) الندى لا تتحدث سوى لغة واحدة هى لغة الجمر. مدت يدها تدير جهاز التسجيل، فانسابت الموسـيقى، هادئـة صـافية، تضيف صمتاً إلى صمت الانخطاف والذهول. تصاعدت من الصدر سحابة ثقيلة من الأسى. أحـاطتنى لينـدا بـذراعيها فأسندت رأسى على كتفها، وبكيت دون بكاء. أدركت أننـى أختزن حزناً كثيراً فى نفسى. لماذا وسط مهرجـان الغبطـة يباغتنى هذا الوجع؟

- تؤلمنى كثيراً تلك الأيام التى مضت من عمرى قبل أن ألتقى بك.

أقول لها ذلك مدركاً على وجه اليقـين أننـى لسـت مهموماً بتلك الأيام وإنما بالأيام القادمات، لأننى ولأمـر مـا

أحس بأن هذه الأنثى التى أذاقتنـى مـن ثمـار فردوسـها الأرضى، سوف لن تكون لى غداً، وأننى كما قال زوجهـا، مجرد عابر طريق، مسافر وجد ظلاً لقيلولته قبل أن يأخـذه الطريق مرة أخرى. ولسوف أستيقظ ذات يوم لأجـد نفسـى مرمياً فى الخلاء، مطروداً من بساتين هذه المرأة، وأن هـذه الغرفة العابقة بالعطر والموسيقى، وهذه الجدائل المغسـولة بماء الذهب، وهذا الفيض النابع من صفاء العينين ودسـامة الجسد، أشياء طارئة فى حياتى وأنا طارئ فى حياتها.

وعندما احتوانا الفراش، واهتدى الجسد إلـى الجسـد الذى يناديه، أسلمنا أنفسنا إلى عبقرية الطبيعة تصوغ لحنها، وتكتب حوارها، وتؤسس أبجديتها الجديدة. جمر يتقد ويشعل الحرائق فى أردية الليل. تشابكنا تشابك الضـوء بأغصـان الشجر، وانطلقت الخلايا التى أمضها العشق والضنى، تعزف مثل طيور الفجر نشيد اللوعة والاشتهاء.

شهدت حياتى اندماجاً كاملاً فى حياة العائلة الصغيرة. أصبحت طرفاً ثالثاً يشـارك الـزوجين وجبـات الإفطـار والعشاء. أدفع حصتى فى مصروف البيت، وأتناوب معهمـا على غسل الصحون وشراء الحوائج من السـوق، وأشـارك

أحياناً فى إعداد الطعام عندما أسبقهما إلى البيـت، فأشـوى شرائح اللحم أو أقلى فطائر السمك. كمـا انتظمـت وتيـرة العلاقة الليلية بينى وبينها. صرنا نكتفى بالنوم معاً ليلتين فى الأسبوع. لم نحدد لهما موعداً ثابتاً، ولم يكن هـذا الموعـد يقتضى إلا أن تضع ليندا عطرها الصحراوى منـذ المسـاء ليكون علامة تدل عليه. ننتهى من سهرتنا فنودع دونالـد إذا لم يكن قد ذهب إلى النوم، ونصعد إلى غرفتى. كـان هـذا النظام مفيداً لدراستى. أتاح لى وقتاً أنصرف خلاله إلى كتبى وكراريسى. لم أعـد بحاجـة إلـى أن أطـوف المـراقص والحانات، وأرود إلى الأندية الطلابية وجمعيـات التمثيـل، أتسول علاقة عابرة مع إحدى النساء، بعد أن تحققت لى هذه العلاقة الآمنة المستقرة.

ازددت اقتراباً من دونالد نتيجة حبنا المشترك لامـرأة واحدة. صرت أتردد كثيراً على مكتبه وأنتظره أحياناً حتـى ينتهى من عمله لنعود معاً إلى البيت، ونتوقف قليلاً بإحـدى الحانات نتحدث عن ليندا. فكلانا مغرم بالحديث عنها. ومـا جاء ذكر مكان نختاره لنزهتنا، أو غرض نشتريه لمائـدتنا، إلا وكان الهدف هو اسعاد ليندا. فكل شىء فى حياته وحياتى

يبدأ بليندا وينتهى بها. ولم أعد مسوقاً بذلك الفضول الذى يبحث عن سبب قبوله بهذه العلاقة. صرت أفهم منطقه، وأدرك ما يحتويه من تسامح وتجاوز للذات.

أخبرنى كيف بدأ بتحضير رسالة عن الديانة البوذية، ثم أهملها لأنه كان فى تلك الأيام مشغولاً مع إحدى الجمعيات الهيبية بالانتقال من مدينة إلى أخرى لحضور حفلات الموسيقى الدارجة، وأنه عاش أكثر من صيف بإحدى المنتجعات التى يقيمها أبناء الطبيعة، يعزفون الموسيقى، ويتقاسمون لفائف الأعشاب المخدرة، ويستمتعون بمشاع العلاقات الجنسية. وبرغم إهماله لتلك الرسالة، وانخراطه فى العمل مكتبياً بالجامعة، فإنه لم يتخل عن شوقه لدراسة البوذية. وهو مازال يطالع تعليمات بوذا، ويمارس بين الحين والآخر تمارين اليوجا، ويحاول الارتفاع إلى تلك الحالة من الصفاء والشفافية التى تسميها التعاليم البوذية »النيرفانا«، والتى تتيح للإنسان الاندماج بروح الكون.

- وكيف استطاع الهيبى القديم أن ينتظم فى مؤسسة الزواج؟

جاء السؤال عفو الخاطر، وإن لم يـأت مبـرأً مـن الخبث.

- إننى لا أقيم اعتباراً للمؤسسات، ولكننى أعتبر نفسى محظوظاً لأننى فزت بامرأة مثل ليندا.

لم أقل شيئاً، فأضاف وكأنه أدرك معنى السؤال:

- وإذا اتسعت دائرة السعادة التى تصنعها ليندا لتشمل إنساناً غيرى، فإن ذلك لن ينقص من سعادتى شيئاً.

سألت ليندا فى أثناء لقائنا سؤالاً" مفاجئاً:

- هل تحبين دونالد؟

كان السؤال لا معنى له، سؤالاً زائداً عن الحاجة، يأتى فى وقت ليس وقته، ويفضح احساساً بـالخوف مـن شـىء مجهول. ولعلها اشتمت فيه رائحـة الغيـرة، فقـد ابتسـمت بغموض وهى تعيد إلى السؤال:

- وكيف تراه أنت؟

- إنه مأثرة للإنسانية.

- إذن فنحن الاثنان نحبه.

- سيكون أكثر جمالاً لو اسـتطعنا أن ننسـخ منـك نسختين، واحدة له وواحدة لى.

- ألا تضيع قيمة اللوحة عندما تصبح نسخة؟

- شرطى الوحيد أن أحتفظ بالأصل.

- ها هو الأصل بين يديك، فلماذا تذهب بعيداً؟

نعم، نعم. إنه بين يدى الآن. أشمه وأضمه وأستمتع بتقبيله، أضيع فى عطره وأرحل عبر حقوله الذهبية. هذا الأصل الذى لا نسخة ثانية له فى الكون، فلماذا أذهب بعيداً؟ ولماذا ينصرف ذهنى للبحث عن حلول لمشاكل لم تنشأ بعد، ويشقى بهموم وأوهام يصنعها من الهواء؟ لأمتثل إذن لأوامر سيدتى، ولأمنح نفسى كاملة لدوامة العطر المستحضر من عشب البوادى، وموائد الجسد المصنوع من حدائق الصبح.

لم نكن نتحرك فى دائرة كبيرة من الأصدقاء. وهؤلاء الأصدقاء القليلون لم نعد نلتقى بهم بعد أن جاءت العطلة الصيفية وأفرغت المدينة من أهل الجامعة. صرنا نكتفى بأنفسنا، ونصنع كلما جاءت عطلة الأسبوع احتفالاً صغيراً لا يشاركنا فيه أحد. نذهب للنزهة خارج المدينة، أو نحضر مباراة بالمركز الرياضى، أو نشاهد فيلماً أو مسرحية. ونتناول العشاء أحياناً على صوت الموسيقى فى المطاعم التى تخصص حصة ومكاناً للرقص. لم ينقطع هذا البرنامج

إلا عندما أرادت ليندا أن تعتنى بوالدتها التى كانت تمر بأزمة صحية، والإقامة بجوارها فى البيت الريفى. ذهبت ليندا وتركت ضلعاً مكسوراً فى مثلث هذه العلاقة. وجدت نفسى أقضى اليوم الأول وحيداً فى مواجهة دونالد، فاتخذت غيابها عذراً لأن أغيب أنا أيضاً. ذهبت لقضاء أيام من شهر الصوم واحتفالات عيد الفطر مع أهلى فى طرابلس، وعندما عدت بعد أسبوعين كانت ليندا قد عادت إلى بيتها، فرجعت أتبارى مع دونالد فى خدمتها، واقتراح أماكن للنزهة نذهب كل أسبوع إليها. أتاح لنا الصيف فرصة أن نجوب الأراضى العالية ونبلغ أكثر هضابها ارتفاعاً، نلتقط الزهور البرية ونصنع بها تاجاً لها. أرادت ليندا فى أثناء إحدى الجولات أن نذهب معها لزيارة قصيرة إلى بيت أهلها. كان البيت قريباً من مكان نزهتنا. بيت صغير من طابق واحد، يتوسط مجموعة بيوت مبنية بالقرميد الأحمر، فوق تلة تشرف على سهوب خضراء، وتحيط بها الهضاب العامرة بأشجار السنديان وجداول الماء. لم أكن متحمساً لفكرة الدخول فى طقوس عائلية تفرض قيداً على انطلاقتنا وحريتنا، ولكننى وافقت ارضاء لها. كان الأب رجلاً سبعينياً تفيض عيناه

الصغيرتان بالحيوية، وإن بدتا غير منسـجمتين مـع بنائـه الجسمى العريض. قدمتنى له ليندا وما أن عرف اسم بلادى حتى بدأ بالحديث عن ذكرياته عنها أيام الحرب. كانت كلماته تنتمى إلى الماضى ولكنها لأمر غامض لم أستطع إدراكـه، بدت كأنها نذير بما سوف يحدث فى أزمنة قادمة. انشـغلت ليندا بتحضير الشاى الذى جاءت بـه مـع قطـع الجـاتوه، وغاصت الأم فى كرسيها تنظر فى الفراغ. نحيفة، عليلـة، رغم أنها أصغر سناً من زوجها. وجلس دونالد صامتاً يدخن غليونه. فى حين مضى الأب يقول:

- عشت عامين فى بلادكم، ولم أر منها إلا الرمال. لم أر مدناً أو بشراً، لم أر جبلاً أو نهراً أو شجرة. لم أر حقـلاً أو أبنية أو سوقاً. لم أر من بلادكم إلا الرمال التى كانت تمتد على مدى الأفق، وتحيط بنا من الجهات الأربع، تتوهج تحت شمس شديدة السطوع والقسوة، ساكنة دائماً ولكنك لو أطلـت النظر إليها لرأيت أنها تتحرك تحت كثافـة الأبخـرة التـى يصنعها القيظ. ترتفع وتنخفض كأنها لهاث حيوان هائل يرقد خلف الأفق. وكان يسحرنى سكونها المتحرك وامتدادها الذى يوصل الأزل بالأبد. ويشيع فى قلبى الأمان وسـط أجـواء

الحرب ومواجهة احتمال الموت. ولذلك فقد كنت أكثر الناس اندهاشاً عندما خذلتنا تلك الرمال وتآمرت ضدنا. جاءت تتحالف مع رومل وتمنحه غطاء لدباباته وجنوده، جاء رومل زاحفاً بجيشه علينا. جعل الريح خلف ظهره، وجاء يشن بمعاونة الرمال هجوماً كاد يفسد علينا الحرب العالمية كلها. كنا حلفاء بلادكم فى الحرب، فى حين تحالفت رمالكم مع أعدائنا.

وأضاف وهو يمد بصره عبر النافذة المطلة على السهوب:

- إن رمالكم لا أمان لها. نعم لا أمان لها.

كان يتكلم واقفاً، ويسرد ذكرياته بانفعال وحماسة وكأنه يؤدى مشهداً مسرحياً. رأيت ليندا تنظر نحوى، فأشحت ببصرى بعيداً، ولا أدرى لماذا أحسست برعشة عندما قال جملته الأخيرة، وكأننى أخشى أن تكون الرمال قد اعتبرتنى ابناً عاقاً نسى ولاءه لها، وانتماءه لصحرائها، فادخرت له عقاباً شديداً يوم يعود.

وكنت عندما أذكر كلماته بعد ذلك يتراءى لى كأن برامج النزهة وارتياد المسارح والملاعب، وما كنا نقوم به

من نشاط يومى، لم يكن إلا ذريعة نختلقها لكـى لا نتوقـف لحظة لمواجهة أنفسنا، كأننا نهرب بواسـطتها مـن شـىء، نخشى لو توقفنا لحظة عن الحركة لجاء يهاجمنا ويفسد علينا متعة النسيان. لم يكن ذلك صحيحاً، فهى مجـرد تـداعيات أيقظها فى ذهنى حديث العسكرى العتيق الذى ظـل لاصـقاً بذاكرتى، وظل مشهده وهو ينظر نحوى بعينيه السـنجابيتين المشحوذتين يثير فى نفسى احساساً بالإثم وكـأننى أتحمـل وحدى مسؤولية الرمال التى غدرت به بعد أن منحته الأمان. وبرامج النزهة ذاتها، صارت الآن تتضاءل، بعد أن انتهـى الصيف وعاد لأدنبره وجهها القاتم.

لم أعد أرى أحداً من الجيران الذين تعودت أن أراهـم يزورن أحياناً ليندا ودونالد للدردشة وتناول الشاى. تصورت أن ذلك جاء نتيجة ضيق الوقت الذى لم يعد يتسع لاسـتقبال هذه الزيارات. ثم تدريجياً أدركت أن هناك سبباً آخر، إنهما عن عمد لا يريدان زواراً فى بيتهما خوف أن يشك أحد فى هذه العلاقة التى تربطنى بليندا وتصبح بالتـالى موضـوعاً لحديث جلسات الشاى فى البيوت المجاورة. ولكن هذه العلاقة التى يجهلها الجيران صارت معروفة لدى عدد من أصـدقاء

الحانة وزملاء الجامعة. أو هذا ما أنبأنى به عدنان. التقيتـه بمقصف المكتبة، جالساً بصحبة امرأة هندية قال إن اسـمها »انار« جاءت منذ بداية العام الدراسى للعمل بقسم الدراسات الشرقية، مدرسة للغة السنسكريتية. وما أن عرفـت اسـمى حتى بادرت بالقول:

- إذن فهو أنت؟

ضحكت دون تعليق، فقد ذهب فى ظنى، أنها تشير إلى رسالتى عن ألف ليلة وليلة، التى تعودت أن يستقبلها النـاس ببعض الاندهاش. جلست أنصت لحـديثهما حـول الحيـاة الروحية، دون أن أسألها عن سبب الاستغراب. وجد عـدنان فى لقاء امرأة تأتى من بلاد الأساطير والايمان بالقوى الغيبية الخارقة، مناسبة للحديث عن هذه الجمعيات الروحيـة التـى تنتشر فى كل مكان، لكى تعيد التوازن إلى هذا المجتمع الذى احتفل بانجازات العقل، وتناسى جلال الـروح، كمـا يقـول عدنان. ومضى يدلل للمرأة الهندية على صدق كثيـر مـن النبوءات التى يقولها الوسطاء، وقدرة الطب الروحى علـى معالجة حالات عجز عنها الطب الحديث، وأخرج من جيبـه

نشرة تصدرها هذه الجمعيات، تتحدث عن وسـيط روحـى تستعين به الشرطة فى حل الجرائم الكبرى. قلت ضاحكاً:

- عهدناك تسعى لتجنيد الناس فى جمعيتك السياسـية التى تبشر بما بعد اليسار، فإذا بك اليـوم تسـعى لاقنـاعهم بمزايا الحياة الروحية والجمعيات التى تبشر بما بعد الموت، فما الذى حدث؟

- الآن وقد رأيت النور، ما عدت أقـيم شـأناً لغيـر الروح.

كنت أرقب منذ زمن كيف بدأ عدنان يتخلى شيئاً فشيئاً عن ارتباطه العقائدى بجمعيات اليسار، ويمنح وقتـاً أكثـر لاهتماماته الروحية. كنت أتساءل بينى وبين نفسى عن سـر هذه الانقلابات التى تحدث فى قلوب الرجال. لا شك أنه تأزم كثيراً نتيجة الزوجة التى هجرته إلى رجل آخر، ووجد نفسه يعيش فراغاً كبيراً بعد انهيار حياته الزوجية، ولا بد أن هذا الفراغ هو الذى ذهب به فى هذا الاتجاه، ملتجئاً إلـى عـالم الأرواح التى تهيم فى الفضاء، باحثاً فيه عن تعويض لفشـل العلاقات التى تنشأ بين البشر الذين يعيشون فـوق الأرض. قلت متسائلاً:

- وأين ذهب رجل القضايا الكبيرة؟

- إنه لا يزال موجوداً. ولكن مـا أسـهل أن تصـبح القضايا الكبيرة، قضايا هامشية أمام جلال الروح وعظمتها.

وأضاف متجهاً بالحديث إلى »انار«:

- سألته كثيراً أن يأتى ليرى بنفسه ما يحققه الوسطاء الروحيون من معجزات.

رأيت حماسة المرأة لحديث الأرواح، فلم أشأ أن أقول كلاماً يستفز إيمانها بها. قلت مجاملاً:

- لست ضد الوسـطاء الـروحيين ولكننـى أخشـى الضجر.

- تعال معنا هذا المساء ولسوف تكتشـف أن حـديث الأرواح أكثر إمتاعاً من أحاديث الناس.

- سأذهب شريطة أن تفى بوعدك لاحياء سهرة فـى بيتنا.

رأى الصديقة الهندية تبدى رغبتها فى الاستماع إلـى عزفه، فلم يماطل كثيراً، ووافق على هذا الشرط.

فى طريقنا سيراً على الأقدام إلى الجمعية الروحيـة، عرفت منه أن ما أدهش انار وهى ترانى لأول مرة، لم يكن

موضوع الرسالة الجامعية التى أكتبها، وإنما شيئاً سمعته عن طبيعة العلاقة بينى وبين زوجة صاحب البيت الذى أسـكنه، وعرفت أننى أجاهر بهذه العلاقة التى يحيطها الناس فى كل المجتمعات بالتكتم الشديد.

- أتمنى ألا تكون أنت الذى أخبرها.

- لا أراك تقيم اعتباراً لما يقوله الناس، فمـا الجديـد الذى يفاجئك إذا كان بعض الأصدقاء فـى حانـة العناقيـد يتحدثون أحياناً عنك وعنها؟

- أعرف أنك منذ البداية ضد هذا النوع من العلاقات، فلا تبالغ فى وصف الأشياء.

- علمت أن أحد أصحاب دونالد فتح أمامه الموضوع بقوة، وسأله أن يطردك من بيته.

- هل حدث ذلك فعلاً؟

- هذا ما سمعته من صديق كان شاهداً لما جرى.

عندما وصلنا إلى مقر الجمعية، كنت حانقاً، أردد فـى خاطرى قولاً قديماً يهزأ بكلام الناس، أخفف به وطأة الأسى الذى داهمنى. تمنيت لو أن عدنان لم يخبرنـى عـن هـذه الأحاديث التى يتناقلونها خلف ظهرى. إن أمـوراً كهـذه لا

تستطيع أن تنال شيئاً من بهجتنا، أو تترك أثراً سيئاً فى نفوسنا، طالما ظلت مجهولة لدينا. لعلهم كانوا يتكلمون عن هذه العلاقة من قبل أن تبدأ، ولكن ذلك لم يضايقنى لأننى لم أكن أعرف به. وعندما عرفت اختلف كل شىء حولى. حتى الهواء الذى يدخل رئتى صار الآن أقل نظافة وأكثر ثقلاً. وكأن هذا الحديث يتغذى على الهواء الذى أتنفسه. إننى لا أستطيع أن أكمم أفواه الناس ولا أستطيع فى ذات الوقت أن أنسى ما يقولون. ربما لأننى جئت من بيئة تضع اعتباراً كبيراً لكلام الناس، لأنه يتحول أحياناً إلى خناجر تجز الأعناق، أو أعيرة نارية تخترق الصدور، عندما يتصل بالشرف والنساء. أعرف أن الأمر يختلف هنا، وأن مثل هذه القضايا تصبح شأناً شخصياً لا يهم إلا صاحبه، فلماذا يداهمنى هذا القلق الذى لا معنى له؟

كانت القاعة تمتلئ بنساء عجائز يستمعن إلى الوسيطة الروحية التى وقفت على المنصة تتلقى رسائل الموتى وتنقلها إليهن، وانعكست حالتى النفسية على ما أرى وأسمع، فبدا كل شىء فى هذه الصالة كئيباً يبعث على الضجر. بما فى ذلك هذه الوجوه التى هرب منها ماء الحياة، وغلفها وجوم يشبه

الغيبوبة وهى تتلقى الكلمات التى تأتى من عالم الغيب. كنت قد اكتشفت أن هناك امـرأة صـغيرة السـن، ذات جمـال ونضارة، تندس بين هؤلاء العجائز. انشغلت بـالنظر إليهـا متسائلاً عما جاء بها إلى هذه القاعة المليئة بالأشباح، عندما تنبهت إلى أن الرؤوس تستدير فجأة نحوى، وأن الوسـيطة تحدثنى وترفع يدها باتجاهى، نظرت إليها مذعوراً ونظـرت حولى بأمل أن تكون الإشارة لا تعنينى، ولكن المرأة لا تعنى أحداً غيرى، فهى على اتصال بسيدة من قريباتى، انتقلت إلى الدار الآخرة محنية الظهر، وقد جاءت من تلك البلاد البعيدة تبغى ابلاغ رسالة لى. لم تذكر الوسيطة اسماً بحجة أنه اسم غريب لا تستطيع نطقه، ومضت تقول كلاماً غريبـاً عـن العاصفة التى أطاحت بالأشجار وهدمت الأبنية ولم يحمنـى منها إلا معطف رماه على جسدى ولى صالح من أسـلافى، وأن هناك الآن من ينادينى نـداء ملتاعـاً، يطلـب عـونى ونجدتى، وأن أمامى سفراً قريباً إلى هناك، ولسـوف تشـهد حياتى تغييراً يجب أن أستعد له وأتقبله برضا وايمـان، لأن الحياة تمضى وفق ارادة عليا لا يملك البشر الفـانون قـدرة على ردها. أبلغتنى أننى سأقطع طريقاً يهبط بى من هضاب

خضراء، إلى أرض خلاء لا شجر فيها، وسأجد نفسى أعبر نفقاً طويلاً وأنا أحمل على ظهرى كيساً ثقيلاً. سـيلوح لـى ضوء فى آخر النفق، وسأرى بعد أن أصـل إليـه قنطـرة، تفضى إلى مشهد لم أكن قد عرفته أو رأيته، حيث سـأنزع الحمل عن ظهرى. تنفست بارتياح عندما رأيتهـا تنصـرف عنى وتشير بإصبعها إلى جهة أخرى. لم أستطع أن أهتـدى فى كلامها إلى شىء له معنى إذ ليس فى حياتى أنفـاق ولا جسور ولا عواصف ولا أكياس ولا معاطف تنتمى لأسلافى الموتى، ولا أعرف أن هناك أحداً من أهلى ينـادينى لأنهـم يعرفون رقم هاتفى، فهو أيضاً يتحرك بسرعة الروح. قلـت ذلك لعدنان الذى كان واثقاً من صدق أقوال الوسيطة، محاولاً أن يساعدنى فى اكتشاف المعانى العميقة لكلماتها. لم أبحـث عن هذه المعانى، ولم أعبأ بعلامات الخيبة التـى ارتسـمت على جبينه وهو يفشل فى تحـويلى إلـى مريـد لجمعيتـه الروحية. كما لم يستطع هذا الاتصال الغريب بعالم الأرواح أن ينسينى أشباحاً أخرى تنقل كلاماً جارحاً يتناول سـيرتى وسيرة ليندا. سحابة من القلق أقامت فى صدرى لا تغـادره،

وكأن ما يقوله الناس سوف يصبح نهار الغد فرماناً سـلطانياً يمنعنى من أن أرى ليندا أو أقترب منها.

عدت إلى البيت لأجد ليندا مضمخة بعطر الأعشـاب الصحراوية، علامة على أنها أعدت نفسها لعـرس الليلـة. قررت أن أصرف ذهنى عن التفكير فى أى شىء آخر، عدا هذه المرأة، وانتظار لحظة الالتقاء بها فى غرفة مغلقة. قلت لها بشىء من الاستخفاف إننى ذهبت بصحبة عـدنان إلـى الجمعية الروحية، وتلقيت رسالة من عالم المـوتى. سـألتنى بلهفة لم أتوقعها عن فحوى هذه الرسالة، فأخبرتها بأنه كـان كلاماً غامضاً لم أعرف له معنى. جاء دونالد، وجلسنا لتناول شرائح اللحم التى أعدتها ليندا. كانت تضع الأطباق وتعبـر عن رغبتها فى أن تحضر جلسة ترضى فضولها لمعرفة هذه العوالم الغريبة الغامضة، لكنها لا تستطيع الذهاب بمفردهـا، ودونالد لم يكن يرضى أن يأتى معها. لأنه لا ينشغل بغيـر القوى الكامنة فى الإنسان ولا يعبأ بالقوى الأخرى. بقيت فى أثناء العشاء أرقب دونالد علنى ألمح تغييراً فـى مشـاعره نحوى أو معاملته لى، بعد أن كان هـدفاً لانتقـادات ذلـك الصديق. كان وجهه يطفح بالمودة وهو يحدثنى بحماسة عن

كتاب جديد جاءه بالبريد، يتناول جزءاً مهماً من حياة بـوذا. وبعكس الكتب الأخرى التى تصرف اهتمامها لشرح التعاليم البوذية، فإن هذا الكتاب يتناول تفاصيل حياة بوذا الشخصية، ويسرد مراحل عمره المبكرة قبل أن تأتيه رسـالة التنـوير تحت شجرة التين المقدسة. لم أكن أعرف كثيراً عن بوذا أو عن علاقته بالتين المقدس، ولكن ما عرفته تلك اللحظة هـو أن قلب دونالد لم يتغير نحوى، وأن رسالة التنوير التى حاول أن يبلغها له صديقه تحت سقف حانة العناقيد لم تجـد لديـه سوى الاهمال والنسيان. أكملنا العشاء وانتقلنا للجلوس أمـام التلفاز، حيث دخن دونالد غليونه، ثم أخذ كتابه الجديد، ودخل غرفة نومه. وما أن أوصد الباب خلفه حتى سألتها أن تـأتى لإنقاذى. اكتشفت وأنا أصل بها إلى غرفتـى أن كـل ذلـك الضيق قد تبدد الآن. فى كل مرة تحتوينى معها هذه الغرفة، أشعر كأنها المرة الأولى، بدهشة الاكتشاف التـى ترافقهـا، وعنف الصبوات فى بدء تفجرهـا. إن كـل ظـلام العـالم الخارجى، لا يجرؤ على أن يتسلل إلى خلوتنا، وكل أنـواع الفتور وبرود العواطف، التى تداهم العلاقات عندما تصـبح روتيناً مألوفاً وآمناً، لم تستطع "أن تتسرب إلى علاقتنا. ليقل

هؤلاء الناس ما يقولون، فإن ذلك لن يزيدنى إلا شوقاً إليها، ورغبة فى الالتصاق بها، والانصهار معها روحاً وجسـداً، لكى لا يجد الكلام مسافة بيننا يتسرب منها.

سكت هدير الدماء فى العروق، وعـاد الكـون يـنعم بهدوء عميق، لا تزيده أصوات الأشجار التى يعبث بها الريح إلا سكينة وصمتاً. وأنا أتمدد فوق السرير بجوارها، أمـرر سبابة عاشقة بين نهديها وأهبط بها إلى سـرتها ثـم أعـود صاعداً بها إلى المحطة الأولى، أداعب حلمتيها. اسـتيقظت فى رأسى هواجس النهار، فقلت أخاطبها وأخاطب نفسى:

- هناك من يتحدث عنا.

وضاحكة قالت ليندا:

- تقول ذلك بلهجة بطل فى مسرحية اغريقية يتحـدث عن تعليمات أصدرها زيوس، رب الأرباب. لقد انتهى عصر آلهة الأولمب الذين يقررون مصائر البشر، وأضحى الإنسان حراً.

- إذن فأنت على علم بما يقولون.

- أعرف أن هناك من هو على استعداد لأن يتحـدث منتقداً أى إنسان، سواء فعل شيئاً أم لم يفعل.

أخبرتها بكل ما قاله عدنان، وما أحسست به من كـدر نتيجة لذلك. انكفأت تضع حلمتيها على صـدرى، وتمـرر شفتيها على وجهى. انهمر الشعر الكستنائى يغطينى، ويصنع سقفاً للكون أكثر بهاء واشراقاً. أغمضنا أعيننا. تبادلنا قبلـة أعادت للدماء هديرها. تبدد السكون الـذى شـمل الكـون. تلاشت الهواجس والظنـون. دارت الكـرة الأرضـية دورة سريعة مجنونة. ارتطمت البحار بالبحار، وتطاير البشر فـى الفضاء كذرات الغبار. قالت ليندا ونحن فـى ذروة العنـاق والانتشاء:

- أطردهم جميعاً من ذهنك، فإن كلامهم لن ينال مـن حبى لك ذرة واحدة.

نجحت ليندا فى أن تطرد سحابة الأسى من سـمائى. وجاءت ليلة الفن الشرقى، فتحلقنا حول عدنان الـذى أحنـى رأسه فوق العود يداعب أوتاره. اتكأنا فوق الوسائد نرتشـف النبيذ. ونعلق أعيننا بأوتار العود، ونصـنع بجلوسـنا فـوق الأرض طقساً يكمل شروط هذه الليلة الشرقية. وجاءت انار ترتدى سارياً هندياً، تضيف به لوناً آخر إلـى ألـوان هـذه السهرة.

كان الموشح الأندلسى الذى بدأ بـه وصـلة العـزف والغناء، بطىء الايقاع غير قادر، برغم عذوبته، أن يستولى على انتباه آذان لم تألف هذا اللون التقليدى. أحـس عـدنان بذلك فانتقل إلى تقديم ما يحفظه من أغانى سيد درويش. وما أن بدأ يعزف »طلعت يا محلـى نورهـا« حتـى صـاروا يصفقون مع الايقاع ويتمايلون طرباً. لم يكن صوت عـدنان يشبه أصوات المطربين طلاوة، إلا أن غنـاءه كـان مليئـاً بصدق الانفعال وحرارته، واستطاع بما يتقنه من تلوين فـى الأداء وتنويع فى الطبقات والمقامـات أن ينسـينا خشـونة الصوت ويأخذنا معه فى رحلة البهجة التى يصنعها الحضور الحى لفنان العرض.

انطلق يرسم بفنه صورة أخرى لليل اسكتلندا، يـزرع فى سماء هذا الليل شمساً عربية، ويسـتدعى عالمـاً أكثـر سطوعاً، ويشملنا جميعاً فى لحظة الانعتاق من أسر الواقـع إلى فضاءات الحلم والذكرى. أكمل الأغنية، وارتـاح قلـيلاً يرتشف جرعة من كأسه قائلاً:

- أشعر بأن سيد درويش يحل فى بدنى، إنه هو الذى يغنى الآن.

ورداً على سؤال المرأة الهندية قدم تعريفاً قصيراً بمكانة سيد درويش فى تاريخ الموسيقى العربية. ثم أخذ العود ليعزف »سالمة يا سلامة« بلحنها الايقاعى الراقص، الذى فتح شهية ليندا للرقص. أفسحنا لها مكاناً بيننا، وقمت بالبحث عن قطعة خشب استعملتها آلة ايقاع أنقر عليها، وأردد مع عدنان مقاطع الغناء:

- سالمة يا سلامة رحنا وجينا بالسلامة.

ولا أدرى لماذا، أحسست فجأة بوخز مؤلم فى صدرى. كان قد داهمنى هذا الصباح واعتبرته شيئاً طارئا عندما انتهى سريعاً. لم أشأ أن أتوقف عن ضرب الخشب، أو إظهار أى شعور بالألم، يثير قلق الحاضرين. رأيت عدنان ينظر نحوى مستنجداً، يريدنى أن أضع حداً لهذه الفوضى بعد أن صرت أضرب الخشب بعنف وتشنج. جلست صامتاً، أضع يدى تحت قميصى أدلك بها صدرى وأرقب أنار التى قامت تشارك فى الرقص، نشرت ذراعيها وصارت تسبح سباحة فى الهواء. رقصت برأسها بمثل ما رقصت بأصابع يديها. لم يختف الألم من صدرى وإن تناقص قليلاً. أمرته أن يتحول إلى ركبتى أو ساقى أو ذراعى، فسيكون ذلك أكثر

احتمالاً. لم يفعل فقررت اهماله. واصلت متابعـة الـرقص والغناء دون أن أغفل عن دونالد الذى أبدى اهتماماً بـالمرأة الهندية منذ بداية اللقاء، عندما عرف أنها تتخصص فى اللغة السنسكريتية التى كتبت بها التعاليم البوذية. وكنت أتسـاءل عما إذا كان اهتمامه بها اهتماماً علمياً صرفاً أم أن له غرضاً آخر. انتهت حصة الرقص وعدنا ندس رؤوسنا فـى عـود عدنان. أبقيت يدى موضوعة على صدرى حتى بعد أن زال الألم، خرف أن يعود إذا رفعتها. وكنت أحياناً أهمس للينـدا بترجمة الكلمات التى يغنيها عدنان. ضحكت كثيـراً عنـدما ترجمت لها كلمات الأغنية التى انتقل إليهـا والتـى تقـول »خفيف الروح بيتعاجب، برمش العين والحاجب« وصـارت تغمز بعينيها وتحرك حاجبيها وتبالغ فى اظهار هذا التعبيـر المضحك الذى أثار انتباه دونالـد وانـار فأعـدت عليهمـا الترجمة. ضحكنا ثم عدنا لمتابعة الغناء، بينما ظـل عـدنان مستغرقاً فى عوالمه وكأنه لا يغنى إلا لنفسـه. انتقـل مـن وصلة غنائية إلى أخرى، ومن »على قد الليل مـايطول« و »الحلوة قامت بتعجن« إلى »زورونى كل سنة مـرة« التـى غناها بشجن وأسى، وجعل الجميع يستمعون بخشوع إليهـا،

وكأنهم يحضرون قداساً دينياً. حتى إذا ما انتهى وضع العود جانباً، وأخذ منديلاً يمسح به العرق الذى تفصد غزيراً مـن وجهه وعنقه، قائلاً:

- والآن تصبح على خير يا شيخ سيد.

هتفت أناديه لكى يبقى، ولكن الشيخ سيد غادر الغرفة، كما أراد له عدنان الذى أرجع العود إلى جرابـه، وجلـس للحديث والشراب. وفى حين مضى يشرح لليـندا مقامـات الموسيقى العربية والفرق بينها وبين الموسيقى الغربية، كان دونالد قد انصرف انصرافاً كاملاً إلـى الاهتمـام بـالمرأة الهندية، مستغرقاً معها فى حديث أشبه بالمناجاة، يتهامسـان ويتضاحكان ويكتفيان بنفسيهما عن بقية الحاضرين. لا أدرى إذا كان هذا الحديث الهامس قد أقلق ليندا، فقد رأيتها ترمقهما بنظرة سريعة ثم تعود إلى حديثها مع عدنان. جلست أضـع يدى على قلبى وأراقب الموقف من بعيد. لم أشـأ أن أنتقـل للجلوس بجوارهما وأفسد بالتالى حميمية هذه اللحظـة، ولـم أجد فى نفسى ميلا للاعتقاد بأنه يلعب لعبة ماكرة يقلب بهـا المناضد علينا، أو يفتعل الاعجاب بهذه المرأة افتعالاً من أجل التعبير عن كبرياء جريح، أو وسيلة يثأر بها لنفسه. أن بينه

وبين هذه المرأة القادمة من الهند شيئاً مشتركاً يجعله ينجذب إليها، ويحتفى بها. ولعله بطريقة لا واعية يريـد أن يحقـق توازناً يعوض به اختلال العلاقة مـع زوجتـه. لا أدرى إن كنت مصيباً عندما أحضرتها للسهر معنا، فهى امرأة وحيدة. وجاءت حديثاً إلى هذه المدينة، ولا بد أنهـا سـتغتبط بهـذا الاهتمام الذى يبديه نحوها دونالد بكل ما تعرفه عن أسـرار العلاقة التى بينى وبين زوجته. بقيت أتأملها وهى تستند إلى الحائط وتضع مرفقها فوق الوسادة وتحنى رأسها نحو دونالد. ارتدت سارياً أزرق يكشف عن جزء من خصرها العـارى، ووضعت فى عنقها عقداً من العقيق يضىء بشرتها النحاسية. على مشارف الثلاثين من عمرهـا. فـى وجههـا امـتلاء ونضارة. وفى عينيها جمال هادئ وديع دونما فتنة أو إثارة. لم أجد فيما أرى شيئاً يستفزنى لأنه لو صدق حدسى ونشأت علاقة حب بينهما، فسيكون بإمكانه عندئذ أن يذهب بها إلـى حانة العناقيد ويريها لأصحابه. وإذا كانت زوجته تذهب مـع رجل آخر، فها هو يخرج مع امرأة أخرى تحقيقاً للعدالة التى يريدونها. ولكن ماذا عن ليندا؟ ألن تثير هذه العلاقة غيرتها، فتسعى إلى استرداد زوجها، ولو على حساب الحـب الـذى

بيننا. كنت قلقاً. وكنت أريد أن أرقب باهتمام تطـور هـذه العلاقة بين دونالد وانار. ولكن طارئاً حدث فى اليوم التالى، صرف ذهنى عن هذه القضية، وأغرقنى فى نوع آخر مـن الأسى، جاء يداهمنى دون انذار. استيقظت فى الصباح مفعماً بحيوية لم أعهدها فى نفسى لحظة أن أغادر عالم النوم. وكأن سهرة الليلة الماضية زودتنى بفائض من الفـرح لا يسـتنفد نفسه مع اللحظة الهاربة. وقفت أمام النافذة أرقـب الصـباح وأستنشق عبير الأرض، عندما جاء صوت ليندا ينادينى لأرد على هاتف من طرابلس. ركضت هابطاً الدرج، سعيداً بهـذا الهاتف الذى جاء بعد انقطاع دام أكثر من شهرين. أمسـكت بالسماعة لأجد صوتاً يبلغنى بعد مقدمات غامضة أن والـدى قد مات. انطلق الخنجر من طرابلس، ومـزق السـماء فـى ومضة خاطفة، ووصل إلى صدرى. عاودنى علـى الفـور وجع القلب الذى أحسست به البارحة. بقيت ساهماً، واجمـاً، والخنجر مرشوق فى صدرى. تشنجت أصابعى على مقبض الهاتف وأنا أسمع كلام الرجل دون أن أتبين منه شيئاً. أقفلت السماعة. كنت فى حالة ذهول، غير قادر على الوقـوف أو الجلوس أو الحركة أو البكاء أو الكلام. حاولت أن أستعيد ما

قاله الرجل من كلمات لم أنصت لهـا، فوجـدتها ملتصـقة بذاكرتى التصاق الكلام بشريط التسجيل. إنه يقول إن والدى مات منذ صباح الأمس. حاولوا الاتصال بى فلم يجدوا أحـداً بالبيت. أكملوا دفنه، وأقاموا له جنازة تليق برجل عاش فـى سلام مع نفسه ومع الآخرين. وقد ظل يذكرنى فى لحظاتـه الأخيرة ويدعو لى بالصلاح. لعل القريب الذى هاتفنى كـان مازحاً أو كاذباً، أو لعله كان يتحدث عن رجل آخر غير أبى. صعدت إلى غرفتى وتهالكت بجوار الحائط أبكى وأضـرب الجدار بعنف لعلنى أجد سبيلاً لتصريف هذه الشـحنة مـن الحزن التى ضاق عن احتوائها صدرى. هل حقاً مات؟ كيف أستطيع أن أصدق ذلك؟ وهو الرجل الذى كان يذهب بقدميه إلى الموت، يصارعه وينتصر عليه. قضى جزءاً من عمره ماشياً فوق حقول الألغام، يقابل الموت فى كل لحظـة، دون أن يجرؤ الموت على الاقتراب منه. كانت حقول الألغام التى تركتها الجيوش المتصارعة فـى أثنـاء الحـرب العالميـة الأخيرة، تملأ الصحراء، حيث كان الناس الذين تضيق بهـم مجالات الرزق الأخرى، يشتغلون بتفجير قنابلها وبيع حديدها لوكالات تجارية، تتنافس على شراء الحديد وتصـديره إلـى

الخارج. وما أن ينتهى العمل فى حقل من الحقـول، حتـى ينتقل بنا إلى مناطق أخرى، وحقول لم تتفجر بعد. كان سيد نفسه. لم يرض أن يخدم أجيراً لدى أحد. وفى حين كان يعز العمل، وتضيق فرص الرزق، فإن رزقه ظل جارياً، ينتزعه انتزاعاً من بين مخالب الموت. كان زمن بؤس ومجاعـات. وكنا ننتقل من بارية إلى أخرى. حيث تنتشر المناحات فـى كل مكان نذهب إليه، لأن إنساناً ما، أكلته الألغـام. وكانـت أمى تجلس باكية فى خيمتها تنتظر خبراً فاجعاً كلما سـمعت لغماً يتفجر.. إلى أن جاء الخبر ذات عشية، وعقب انفجـار هز الأرض كالزلزال، بأن حقلاً يعمل به والدى قـد تفجـر بكامله، وأن أشلاء الضحايا تمزقت وتناثرت فى كل مكـان وبات من المتعذر التعرف على هوية الموتى. توافد على بيتنا المعزون، وارتفعت عقائر النساء بالنواح، يمزقن أثـوابهن، وينشبن أظافرهن فى وجوههن حتى تنبجس منهـا الـدماء. كنت صغيراً فى الخامسة أو السادسة من عمـرى، لا أدرك حقيقة ما حدث. ولكن مشهد النسـاء النائحـات، الـداميات الوجوه، ومن بينهن أمى وأختى، كـان يفزعنـى، فـانهمر بالبكاء. يظننى بعض الرجال أبكى موت أبى، فيأخذون بيدى

ويبعدوننى عن النساء النائحات قائلين إن أبى لن يغيـب إلا بضعة أيام، وسيعود حاملاً معه، كما يفعل دائماً بعد أن يبيع الحديد، سلة مليئة بالغلال واللحوم والحلوى، التى يشـتريها من سوق الواحة القريبة. كنت قد ابتعدت عن الخيمة بصحبة أطفال آخرين عندما رأيت أبى قادماً من بعيد. لم يكن يحمل فاكهة ولا غلالاً، ولكننى فرحت بمجيئه وذهبت راكضاً أخبر "أمى. ما أن رأتنى، وسمعت ما أقول، حتى ازداد عويلهـا، وارتمت متشنجة فوق الأرض. أبعدونى عنها، وهم ينهروننى قائلين بألا أعيد مثل هذا الكلام لأن أبى لن يعود الآن. ولكن أبى عاد فعلاً من موته. ظهر عليهم فجأة حاسـر الـرأس، مقطوع القميص، تغطى الأتربة شعره وثيابه، وكأنه خـرج لتوه من القبر. كانت الدماء تسيل من جراح فـوق ذراعيـه وهو يقف غاضباً وسط المعزين. تحول نواح النسـاء إلـى خوف ورعب، فى حين تحلق حوله الرجال ينظـرون إليـه باستغراب ويسألونه عما حدث. صاح يطرد المعزين، ويأخذ عصا يضرب بها النساء النائحات، فليذن بـالفرار، حافيـات الأقدام، حاسرات الوجوه والرؤوس. وكان ذلك آخر عهد له بالعمل فى حقول الألغام. ترك الصحراء، كما ترك الواحـة

التى ضمت قبور أجداده، بعد أن شحت مواردها ولم يعد لديه من أهله القريبين من يشده إلى البقاء فيها. وسافر بنا إلى طرابلس، حيث اكترى لنا غرفتين فى بيت من بيوت المدينة القديمة، يضم خمس عائلات أخرى. اشترى بما لديه من مدخرات قليلة قطعة أرض بور خارج المدينة، وظل يقضى بها نهاره كله، يحرث تلك الأرض، ويحفر لها بئراً إلى أن صارت بستاناً. وظل هذا البستان مصدر الرزق الذى منه نعيش وبفضله واصلت تعليمى. كما ظل والدى يعمل فى تعميره حتى بعد أن حاصرته الأبنية والمنشآت الصناعية، رافضاً أن يتنازل عنه برغم اغراء المال إلى أن اقاموا بجواره مدبغة للجلود، كانت رائحتها مصدر كدر دائم له، وكان يعود كل يوم إلى البيت غاضباً، ساخطاً، ويشتبك كل صباح فى عراك مع من يلقاه من أصحاب المدبغة وعمالها. وهروباً من تلك الرائحة، باع البستان، وظل لمدة طويلة متذمراً من البقاء بلا عمل، مع أنه لم يعد بحاجة إليه، بعد أن توفيت والدتى، وانتقلنا للإقامة مع أخى الأكبر الذى صار مقاولاً. أتراه حقاً طواه ذلك الموج الأسود الذى نسميه الموت؟ هل تقوض ذلك البناء الذى ظل برغم الشيخوخة،

شامخاً، ومتيناً كالقلاع القديمة، وانطفأت تلك الجـذوة التـى تشتعل فى عينين تحيط بهما الظلال والتجاعيد التـى تشـبه كتابة بالطلاسم السحرية، وهمدت الدماء التى تجرى فى تلك العروق النافرة الزرقاء التـى تمتـد كالحبـال فـوق يديـه وذراعية؟ لعله لم يمت. لعله سـيأتى الآن إلـى سـرادقات العزاء، يطرد المعزين ويلاحق بعصـاه النسـاء النادبـات فيخرجن إلى الشارع بلا أحذية ولا ملاحف. كـان يحبنـى كثيراً. تيتم صغيراً، وحرم نعمة التعليم، فأراد أن أكون وريثاً لأبيه الذى كان معلماً للقرآن، وجده الذى كان إماماً وقاضياً. اختارنى لكى أعيد إلى بيت »الإمام« سمعته الجليلـة كبيـت للعلماء والفقهاء. ومن ناحية أخرى فقد كان خائفاً أن ينتصر جدى لوالدتى الذى كان فى بداية حياته قاطع طريق، قبل أن يهتدى على يد جدى الأكبر، ويشتغل بتجارة القوافل، إلى أن مات فى الصحراء. لا شك أنه ذهب إلى مقره الأخير وفـى قلبه حسرة لأننى لم أحقق له حلمه. أراد أن يهبنـى لرسـالة أسلافه، فألهب ظهرى بالسياط يدفعنى إلى طريق المدرسـة القرآنية التى كنت أهرب منها. لم أكن وأنا أودعه منذ أشهر مضت، أدرك أن الموت كان قريباً إلى هذا الحد. كان وهـو

يتجاوز الخامسة والسبعين، قوى البنـاء، يـوازينى صـحة وعافية. كان يكره المرض. نسأله أن يرتاح ويبقى نائماً فـى السرير إذا أحس ببرد أو زكام، فيهزأ بنا قائلاً بأن هـذا مـا يريده المرض. يريد أن يراك خائفاً متخاذلاً، لا تقوى علـى المقاومة، لكى يأتى، ويرتمى فوقك، ويبقيك طريح الفـراش. ومهما أمسى مريضاً، فإنه ما أن يأتى الفجر، حتـى يـذهب لأداء الصلاة بالمسجد، ثم يمضى مـن هنـاك إلـى عملـه بالمخبز. وها قد جاء طائر الموت، يلاحق الرجل الذى قاومه طويلاً، ويطويه أخيراً تحت جناحيه الكبيرين الأسودين.

لم أهبط لتناول وجبة الافطار، فجاءت لينـدا لتعـرف السبب. وما أن رأتنى حتى أدركـت أن المكالمـة الهاتفيـة حملت لى هما كبيراً. جلست بجـوارى تواسـينى. أسـلمت رأسى لأحضانها باكياً، ثم انتشلته وكأننى أخشى أن يرانـى والدى من خلف الحجب، أبكيه بهـذه الطريقـة، فيسـتنكر سلوكى. قالت وهى ترانى أفتش عن تذكرة العودة التى أحتفظ بها:

- هل يقتضى الحال أن تسافر؟
- نعم. سأسافر اليوم إذا استطعت.

لم أسافر إلا فى اليوم التالى. جاء الليـل وانصـرف الزملاء الذين جاءوا مع عدنان لمواسـاتى. وخرجـت مـن مجلدات الكتب الأسطورية أشباح فرسان وسلاطين ينظرون نحوى بعيون مطفأة. انهار الحائط الذى كان يحمينى، ويمنع عنى رعب الكائنات الظلامية. أيقنت أن وجع القلـب الـذى أحسست به بالأمس، لم يكن وجعاً، بقدر ما كـان احساسـاً بالفجيعة جاء يداهمنى لحظة موته. تذكرت تنبؤات الوسيطة، وتساءلت إن كان حديثها عن الإنسان الذى ينادينى، والسـفر القريب إلى وطنى، قد جاء ليتوافق صدفة مع هذه الأحداث. لعل النبوءة لا تنقل الأحداث قبل وقوعها، وإنما هـى التـى تصنع الأحداث وتصوغها حسب مشيئة المنجمين.

ما أن وصلت إلى طرابلس حتى سألتهم أن يأخـذونى مباشرة إلى قبره، ويتركوننى لحظة معه. توسلت إليه بعيون دامعات أن يسامحنى لأننى لم أحضر لتوديعه، ولم أسـتطع تلبية ندائه قبل الرحيل، ولأننى عندما كان ينام ليلته الأولـى فى قبره، كنت مشغولاً عنه بالرقص والنبيذ، والغناء والنساء. أحببته بمثل ما خشيت بأسه وقسوته. كان هوسه أن يرى أحد ولديه عالماً من علماء الدين، يدفعه إلى أن يعاملنا بشراسـة

أحياناً. لجأ مع أخى عثمان الذى يكبرنى بتسعة أعوام إلـى حيلة أخيرة ظنها ستكون علاجاً نهائياً لإهماله ونفـوره مـن الدراسة الدينية. نصب له مشنقة وسط الغرفة، ووضع الحبل حول عنقه، وأراد أن يشنقه عقاباً على هروبه من الدروس. وعندما صار أخى يصرخ رعباً فك الأنشوطة عـن عنقـه وهدده بأنه سينفذ وعده إذا تكرر إهماله وهروبـه. ومـا أن وجد أخى، الذى كان صبياً فى السادسة عشرة من عمره، أنه نجا من الشنق، حتى فر هارباً من البيت ولم يعد إليه، إلى أن عرفنا فيما بعد، أنه انضم للعمل بأحد المعسكرات فى مدينـة أخرى. وبرغم هذا الدرس الذى أتعبه حتى سـقط مريضـاً، فإنه ما أن استرد صحته حتى أعاد محاولاته معى. يقـودنى كل صباح إلى الفقيه، ويوصيه بأن يستخدم كل الوسائل التى فى حوزته لتأديبى، بما فى ذلك فلقته، وعصاه المصنوعة من أخشاب الجنة. اكتشف والدى بعد مرور أكثر من عام أننـى أعيد سيرة أخى، وخشى أن ألقى مصيراً كمصيره، فتخلـى مرغماً عن أحلامه فى استرجاع أمجاد العائلة الدينية، متجهاً باللوم إلى والدتى، قائلاً إن أباها قد انتصر على آبائه، وسرق أولاده منه ومنهم. اكتفى بأن زوج أختى، من فقيه أعادها إلى

الواحة التى ننحدر منها، وتركنى ألتحق بالمدارس الحديثـة. كان يفرح بنجاحى ويقيم وليمة لأصحابه كلما ظهرت النتيجة ويسألنى أن أقرأ لهم من كتب المقرر الدينى، ويجد فى ذلـك تعويضاً عن خيبة أمله فى أن يرانى فقيهاً.

أسندت رأسى إلى رخام القبر متوهماً أننى أتكئ علـى كتف الأب الغائب. أخذتنى شبه اغفاءة، رأيته فـى أثنائهـا يركب جواداً مصنوعاً من السحب البيضاء، يطارد به طيف امرأة تركض فى حقول السماء، تصورتها ليندا. صحت به: »كلا ليست هى المذنبة، وإنما المذنب أنا، فلا تظلـم امـرأة بريئة«. كنت أقف وسط مرج أخضر، مزهـر، لـه شـذاً كالعطر يملأ المكن. رأيته يهبط عن جواده ويسـير نحـوى كأنه يطفو فى الهواء، عقد ملامحه ورفـع يـده متوعـداً. وضعت ذراعى أمام وجهى، أتقى ضرباته. ثم تنبهـت إلـى شهادة دراسية كانت معى. أخرجتها مسرعاً ودفعت بها إليـه كى أشترى رضاه. أخذ الشهادة ينشرها أمام وجهه، ومـا أن رأى اسمه مقروناً باسمى حتى انبسطت ملامحه المعقـودة. طوى الشهادة فى يده وعاد باسماً إلى سحابته. أفقـت مـن اغفاءتى فوجدت أن الشمس توشك على الاختفاء ولون الشفق

يصبغ عالم الأموات بعتمة ملونة. اندهشت عندما وجدت أن الأريج الذى يشبه العطر والذى كان يضوع من حقول الحلم مازال معلقاً فى فضاء المقبرة.

قال أحد المعزين من كبار السن. ممن عرفوا والـدى وعاشروه فى سنواته الأخيرة:

- كان والدك رجلاً حكيماً، ولابد أنه ترك لـك كلمـة تعينك على مواجهة تصاريف الزمان.

ترك والدى كلاماً كثيراً ما زالت أصداؤه تتردد فـى ذاكرتى، ولكن من أين لى ببصيرة الرجال النـابهين، لكـى أهتدى إلى الكلمة الثمينة التى خبأها تحت ركام الكلام؟ علنى أهتدى إليها ذات يوم أما الآن فسأواصل البحث عن العنـف والجنس فى أساطير الليل والنهار، مسافراً بين مدن الماضى والحاضر، وبقلب انسان يطمح أن يصل ذات يوم إلى مدينته الموعودة.

بقيت أسبوعين مع حديث الموت والأحزان وذكريـات الرجل الراحل. وعندما بدأت أسـمع تلميحـاً عـن الإرث وتقسيمه، عافت نفسى هذا الحديث، وأخذت حقيبتى عائداً إلى شطآن بحر الشمال.

أدنبره مرة أخرى.

القلعة التى تشبه خرافة من الحجارة، مثقلـة بتراثهـا المصنوع من نشوة الانتصـارات ومـن أحـزان الملـوك المهزومين، معلقة فوق صخور الجبل البركانية، مهيمنة بقوة على فضاء المدينة، وكأنها ملامح وجه كـائن أسـطورى، يشرب الريح، ويراقب البشر.

السحب الداكنات صنعت سقفاً أسود، يغطى المدينـة، ويلامس أبراج القلعة، ونشيج الأمطار التى تتساقط منها دون انقطاع.

الشوارع المغسولة اللامعة، التى تتحول إلـى أوديـة للريح، والأشجار التى ترقص فى عنـف، ترفـع رؤوسـها ترتشف حبات الماء، وتنشئ حـواراً صـاخباً مـع الـريح والمطر.

لم ينطفئ الشوق إلى المرأة التى صارت وطناً للقلب، ولكن الروح مثقلة بأحزان الموت ورحيل الرجـال الكبـار. وصلت قبل انقضاء موسم العطلات وأعياد الميلاد. فألقيـت بنفسى فى دوامة الحياة التى تمنحها هذه المدينـة لقاطنيهـا. وألقيت بجسمى بين أحضان المرأة التى بادلتنى حباً بحـب،

أدفئ القلب بنار عواطفها، وأجد فى عطرها الشرقى بلسـماً لأوجاع الليل. صرت أتجنب الانفـراد بنفسـى، خـوف أن تهاجمنى فى أثناء بقائى وحيداً ذكرى الرجل الراحل. جددت صلتى بفرقة التمثيل، وعدت لملاقاة زملاء الجامعـة بحانـة العناقيد، حيث نار المدفأة الكبيرة الموقدة بالفحم والحطب. ما أن يأتى المساء، حتى أترك المكتبة وأهبط زقاقاً ضيقاً يفضى إليها، فهى تقع عند سفح الهضبة، فى الجـزء القـديم مـن المدينة، الذى كان سوقاً لأعلاف الماشية يحمل حتى الآن اسم »سوق التبن«. لم تكن هذه الحانة سوى خرابة قديمة، جـاء أحد المدرسين بالجامعة واسـمه »لارى«، فـرمم خرابهـا، ودهن بالطلاء جدرانها، وابتنى لها سقفاً من الخشب، وجمـع عدداً من براميل النبيذ الفارغة، اتخذها مناضد ونثر حولهـا الكراسى، ثم أقام هذه المدفأة التى لا تنطفئ نارهـا طـوال مواسم البرد. وجعل الحانة منتدى لأصـدقائه مـن طـلاب ومدرسى الجامعة حتى أسماها الناس حانة المثقفين. جاء إليها الزبائن من مختلف المهن والفئات الاجتماعية، واكتفى أهـل الجامعة بزاوية قريباً من المدفأة. جرت فى يده النقود، فهجر »لارى« مهنة التدريس بالجامعة، وتفرغ للاستمتاع بمبـاهج

الحياة، يقضى أغلب أشهر السنة متنقلاً مع صديقاته بين أسبانيا وجنوب فرنسا. يعيش عيشة الأثرياء ويفكر فى انشاء حانات أخرى بتلك البلاد.

كان يتخذ مجلسه بجوارنا عندما يكون قد عاد من سياحاته. وكنت أتبادل معه الحديث أحياناً. قال ضاحكاً وهو يرانى أدخل الحانة، ارتعش برداً وأقطر ماء.

- ما الذى جاء بك من بلاد الشمس الساطعة إلى صقيع هذه المدنية التى تلعنها العواصف؟ دع عنك هذه الشهادات التى لا تجلب نقوداً، وارجع إلى بلادك وافتح حانة هناك قبل أن يفوت الأوان.

أرادنى الأب الراحل فقيهاً، وهذا الصديق ينصحنى بأن أكون خماراً، وأنا ممزق بين الاختيارين، أبحث عن طريق للمصالحة بينهما. أرد ساخراً:

- هذا ما كنت سأفعله لولا أنهم فى بلادنا لا يبيحون إنشاء الحانات.

ينظر نحوى مستغرباً كأنه لا يصدق أن هناك بشراً فى الدنيا يحتملون الحياة بلا حانات. يسأل إن كان ما أقوله

صحيحاً. وعندما يعلم أننى جئت من بلاد تمنع قوانينها تناول الخمر، تغمر ملامحه علامات الفزع قائلاً:

- ولكن لماذا سمحت لوالديك بأن ينجباك هناك؟

كان يعلق فوق الجدار الذى نجلس بجواره اعلاناً كتب بخط عريض، يتوجه به إلى مدرسى الجامعة، يرحـب فيـه بأى أستاذ يريد أن يتحرر من عبودية وبؤس هذه الوظيفـة، ليعمل ساقياً فى حانة العناقيد، وسيمنحه راتباً يوازى ضعف ما يتقاضاه من الجامعة، مضافاً إليه الإكراميات التى يتلقاهـا من زبائن الحانة. وكان أهل الجامعة يردون على اسـتفزازه ساخرين من تحوله الفاجع، من أستاذ فى علم اللغة إلى بـائع للخمور، ويتندرون على الأعوام التى قضاها فى التحصـيل العلمى لكى ينتهى إلى مهنة لا تحتاج لأية مؤهلات.

- أن يفيق الإنسان متأخراً ويتدارك العمـر الضـائع، أفضل من أن يبقى سادراً فى غفلته كما تفعلون. لا تتحـدثوا أمامى عن الرسالة التى تؤدونها. انظروا إلى «جاك» عامل المراحيض فى جامعتكم. إنه يأتى إلـى هنـا هاربـاً مـن افرازاتكم، باحثاً مثل هؤلاء الناس عن لحظة سعادة أنا الذى أقدمها له. فأية رسالة فى الدنيا تعادل هذه الرسالة.

ثم يتحسر قائلاً:

- لم ينصفنى أحد سوى عمر الخيام.

ويرى صديقته الإسبانية التى يسـميها »الكاردينـال« قادمة نحوه، وهو يحادث نساء الجامعة، فيقطع حديثه ملتفتـاً إليها:

- ها قد جاءت وريثة محاكم التفتيش الإسبانية.

يحيط خصرها بذراعه، ويقول مداعباً:

- يبدو أننا جميعاً نحب العبودية، وإلا ما الذى يجعلنى أعشق امرأة تحاصرنى مثل جيش الغزو؟

ويلتفت إلى امرأة تجلس فى مكان بعيد:

- ماذا لو استجبت لإغراء تلك المرأة البدينـة التـى تكشف عن نصف صدرها؟

- سأفعل لك هكذا.

وتمرر اصبعها على عنقه.

- وماذا ستفعل أنت لو أننى أحببت الرجل الوسيم الذى بجوارها؟

- سأفعل شيئاً يفوق ما فعله شمشون الجبار.

لن يفعل أى منهما شيئاً من ذلك. ولكن دونالد الذى يجلس قريباً منهما، يشيح بوجهه بعيداً وكأنهما يقصدانه بهذا الحديث. وبرغم أن المرأة الهندية كانت تأتى للالتقاء به فى الحانة. إلا أن العلاقة بينهما لم تتطور إلى أكثر من ذلك. شغلتنى فرقة التمثيل عن حضور وجبة العشاء فى البيت، وتوقفت برامج النزهة التى كنا نقوم بها، وتفككت بالتالى العلاقة التى ربطت بيننا نحن الثلاثة، إلا أن ما يربطنى بليندا ظل موصولا لا ينقطع. ما أن تحين ليلتى معها، حتى أسعى متلهفاً للقائها، وقد جاءت ترتدى عطرها، وتحمل عاطفة مشتعلة لا تنطفئ.

عدت متأخراً إلى البيت، فوجدتها تجلس صامتة، تضع يدها على خدها، والتلفاز مطفأ أمامها. أحسست بالاثم لأننى لم أعد أمنحها وقتاً يملأ هذا الفراغ الذى صنعته لها، عندما انتزعتها من محيطها وعلاقاتها. ردت على تحيتى بفتور، وقامت تصحبنى إلى غرفتى قائلة بأن عطرها الشرقى قد نفد. لم يكن هذا ما يقلقها، ولكنه دونالد.

- ما الذى حدث له؟

- قضى ليلة البارحة خارج البيت ولم يعد إلا صباحاً.

- هل عرفت منه السبب؟

- جاء ثملا فنام غير عابئ بالذهاب إلى العمـل، ثـم خرج وأنا غائبة فلم يعد حتى الآن. إنها المرة الأولى التـى يفعل فيها ذلك.

ولكن هذه الكآبة التى تنشر ظلالا على وجهها، ورنـة الحزن التى تغلف كلماتها. هى أيضاً أشـياء جديـدة علـى روحها وطبيعتها. وإذا كنت قد تآلفت مع هذه الحالة التى أجد فيها نفسى أتقاسم حبها مع زوجها، ولا أرى فى غيابه ليلـة عن البيت ما يستوجب القلق، فلعلها تدرك بحس المرأة، ما لا أستطيع إدراكه، وترى فى هذا السـلوك نـذيراً بنهايـة الأوقات الجميلة.

أردت أن أقول لها كلاماً عن حاجة الإنسان أحياناً إلى أن يهرب من رتابة الشىء المعتاد، وينفذ من قبضة الروتين الذى يأكل الروح، فيخرج قليلاً عن أساليبه المألوفة بحثاً عن الجديد، وكسراً لهذه الأطواق التى لا يكسرها إلا لكى يعـود مرة ثانية للاحتماء بها. ولكننى بدلا من ذلك قلت:

- لعله يحتاج إلى رعاية أكثر من جانبك.

كنت فعلاً أشفق على دونالد، وأراه جديراً بأن يبقى مشمولاً بما كان يسميه، دائرة السعادة التى تصنعها ليندا. ولكنها نظرت بفزع نحوى.

- أتقول أنت هذا الكلام؟

ودون أن تنتظر جواباً، ركضت خارج الغرفة. لم أجد فى الجملة التى قلتها ما يستحق هذا الغضب، ولا أظن أن لتوترها سبباً آخر سوى هذا التغيير الذى طرأ على سلوك زوجها فجاءت تحملنى تبعاته. لا أدرى ما الذى كانت تريد أن تسمعه منى. لعلها انتظرت منى اقتراحاً بأن نغادر البيت ونترك له حياته يفعل بها ما يشاء. أو لعلها وجدت فى كلامى تشابهاً مع ما يقوله أعداء هذه العلاقة، والاتهامات التى يسوقونها، وهى ترانى ألومها، وكأننى أتكلم من خارج العلاقة لا من داخلها. وأغضبها أن أنكر عليها شيئاً كانت تعتقد بأننى آخر من يجب أن ينكره عليها. أو لعل السبب شىء لا علاقة له بهذه التخمينات وإنما بهذا العطر الذى نفد منها والذى أصبح شيئاً لا تكتمل طقوس هذه العلاقة إلا به. بقيت جالساً أبحث عن تفسير لنوبتها العصبية المفاجئة. لا شك أنها عانت كثيراً بسبب هذه العلاقة، ورأت فيما قلته

استهتاراً بكل تضحياتها. إنها المرة الأولى التـى أرى فيهـا ليندا تخرج غاضبة منى. هبطت السلالم لاحقاً بها. وجـدتها أقفلت غرفة النوم وراءها. وقفت لحظات أمام بابها المغلـق، دون أن أطرق الباب أو أناديها. وبوهن وإعيـاء، صـعدت السلالم عائداً إلى غرفتى.

قبل هذه الرحلة القصيرة التى أوجبها موت الأب، لـم "أكن أقف لأطرح أسئلة على نفسى، متفحصـاً مشـاعرى، محاولا تعميق مداركى حول ما أفعله وأختاره. وجدت نفسى مبعوثاً على حساب الدولـة، بعـد أعـوام مـن الانتظـار والملاحقة، فجئت فرحاً بفرصة الانفلات من قبضـة الحيـاة المضغوطة داخل المجتمع الصـغير، المتحصـن بأسـواره العالية. لم أسأل عندما جئت، إذا ما كان العالم حقـاً واسـعاً ورحباً كما كنت أقرأ عنه فى الكتب. لأننى لم أكن أريد سوى جرعة من سوائله السحرية التى تروى جفاف الجسد وتطفئ عطش القلب. وجدت موضوعاً مثيراً ومسلياً عـن العنـف والجنس والأساطير فى كتب الشرق والغرب، فاتخذته سبيلاً للحصول على الشهادة التى يطالبوننى بها ثمناً لأيام الانعتاق القليلة هذه. ارتديت لبرد الشتاء كنزة ثقيلة، وحـذاء ثقـيلاً،

وشالاً أحيط به عنقى. وقاومته بأقـداح الشـراب والتمـاس الدفء قرب المواقد والنساء. ولكننى الآن، وأنا أجد نفسـى بمفردى، فوق سرير واسع، ووسط غرفة يضـرب شـباكها المطر، وتغرد فوق سقوفها الريح المحملـة بـأملاح بحـر الشمال، تحيط بى كائنات الأسـاطير التـى تهجـع داخـل النصوص، ممنوعاً من أحضان المرأة التى عنـدها تنتهـى رحلة القلب. فى هذه الليلة التى يشتد فى الخـارج ظلامهـا، تسطع فى ذهنى انعكاسات شمس الصيف القاسية فوق أرض المدينة القديمة المرصوفة بحجارة ملساء. تنثال على الذاكرة صور ومشاهد من أعوام الطفولة والصبا. أطياف نساء خلف الشبابيك تعشقتهن وتعذبت بحبهن فى صمت، أو وجه صبية، وقفت أسابيع أنتظره، ليظهر من بين ظلفتـى بـاب باهـت الزرقة، يرتعش لدى مرآه الجسد حباً وشبقاً. تطل وجوه أب وأم وذوى قربى، رجال ونساء عاشرتهم زمناً ثم رحلوا عن الدنيا. أكتشف فى هذه اللحظات أنهم ما زالوا يقيمـون فـى منازل القلب. وأننى حتى لو ادعيت نسيانهم. فـإننى أنقلهـم معى، يسافرون فى دمى ويدفعون بأسئلة حارقة إلى حلقـى عن معنى الأهل والانتماء والجذور. عن قيم وتقاليد نتربـى

عليها ثم نثور ضدها. نفك، فى لحظة زهو بأنفسنا، ارتباطنا بها ونعلن القطيعة معها. ثم نكتشف أن الأمر لا يحتـاج إلا إلى مواجهة حقيقية مع النفس، لندرك أن حبالاً تمتـد مثـل الكوابل المحفورة فى قاع البحر، تشدنا إليها، وتعيدنا مهمـا طوحت بنا الأسفار إلى حقيقة من نحن ومن نكون. قوة لهـا مفعول أجهزة التحكم الآلى على المدى البعيد، تستطيع متـى تشاء أن توجه حركتنا وتحدد مسارنا، مهمـا توهمنـا أننـا خرجنا عن مجالها المغناطيسى وانتزعنا هامشاً لأنفسنا يتيح لنا أن نمارس حريتنا واختيارنا وتمردنا. لم يكـن سـهلا أن أحقق توازناً مع هذه البيئة التى تتباين أساليب الحياة فيها مع الأساليب التى تربيت عليها. وأضعت وقتاً ثميناً قبل أن أبتكر لنفسى شفرتها السرية التى تهتدى بها فى سلوكها وتعاملهـا. جئت أول ما جئت ملفوفاً بقماطى المشرقى، فوجدت نفسـى جسماً غريباً لا يحقق توافقاً مع ما حوله. اجتهـدت فـى أن أشترى قبولاً بالمبالغة فى التشبه بهؤلاء الناس وإظهار الولاء لقيمهم وأساليبهم. كنت كمن يأتى من أفريقيا بقشرته السوداء ويضع فوق رأسه باروكة من الشعر الأشقر الناعم الطويـل، ويمضى فى الشارع متباهياً بها، مدعياً انها شعره الحقيقـى.

ثم اهتديت بعد ذلك إلى حل يضمن لى تحقيق هذا المقدار من التواصل الذى احتاجه لعافيتى النفسية. فصرت لا أرى نفسى إلا حجراً متدحرجاً لا تنبت حوله الأعشاب. لا أطرح أسئلة حول ما يجب أن أفعله أو لا أفعله، ولا أقيم محاكمات للذات وأبحث عن تبرير أو إدانة لسلوكى. إن عقلى وضـميرى لا ينكران هذه العلاقة التى تربطنى بلينـدا، لأننـى لا أقيسـها بمقاييس المجتمع الذى جئت منه، فأنا الآن أعيش بعيداً عنه. ولا أقيسها بمقاييس المجتمع الذى أعيش فيه، لأننى لا أنتمى إليه. إننى أقيسها بمقاييس أبتكرها بنفسى للتعامل مع نفسـى ومع الآخرين. مقاييس الحجر المتدحرج فوق هذه الحقـول. إننى أعيش الآن حياة مؤقتة، أعبر خلالها تلك المنطقة الحرة التى تقع بين تخوم دولتين. أرض »اللا أحد«، التى تمتد بين نقطتى حدود، حيـث لا سـيطرة لأى قـانون إلا قـانونى الشخصى، ولا ولاء لأية راية إلا الراية التى أصنعها لنفسى. وعندما تداهمنى هذه اللحظات التى تريدنى أن أمزق رايتـى وأعلن الولاء لراياتها، أدفعها برفق عنى، وأنظر إلى ساعتى قائلاً إنه لم يبق من الوقت إلا بمقدار ما أنتهـى مـن هـذه الأوراق.

- أريد أن تجعل من هذا البحث إضاءة لعبقرية الخيال عند العرب، وكشفاً للحظة الحضارية التى أبدعت هذا النص.

هكذا يقول الـدكتور هـاورد. يقـول ذلـك بلهجتـه الاكسفوردية التى تصدر من قاع الحنجرة، والتـى تـذكرنى بممثلـى المسـرحيات الكلاسـيكية، فأتظـاهر بالإنصـات والاهتمام. إنه الوحيد الذى يأخذ موضوع الرسالة مأخذاً جدياً ويكثر من الحديث عن مسؤولية الباحث فى الاهتـداء إلـى أسرار العمل الفنى، والنفاذ إلى عمق القضايا التى يطرحها. أراجع معه الفصول التمهيدية التى تتناول بالمقارنـة جـذور هذا الأدب فى الثقافتين العربية والغربية، من أشـعار أوفيـد إلى معلقة أمرؤ القيس، ومن آثار المركيز دوساد إلى كتـب الجنس العربية التى ترجمت إلى الإنجليزية، وصولاً إلى مـا تقوله مدارس علم النفس عن أثر الجنس فى نشأة المجتمـع والدين والحضارة. أكتب الملاحظات التى يقولها، والمراجع التى يزودنى بها، وأذهب عائداً بالأسطر التى كتبتها، محاولاً أن أبحث عن الدلالات خلف الوقائع، وعن البنى الاجتماعية والاقتصادية والسياسية خلف هذا الأدب، وأنفذ مـن سـطح الإثارة والتسلية إلى القضايا الجادة التى يريدها الأستاذ.

أتخاصم مع نفسى، ثم سرعان ما أسعى للتصالح معها، متيحا للحياة من حولى فرصة أن تمضى فى مسارها، بعد أن توهمت أننى استوقفتها لحظة قصـيرة للمسـاءلة. أنصـت للأصوات المتنازعة بداخلى وكأننى متفرج ينصت لحشد من الشخصيات التى تتجادل داخل عرض مسـرحى، محتفظـاً بمسافة بينى وبينها، ثم أمضى وأنا أحمل تلك المسـافة بـين نفسى ونفسى. لست أدرى إن كان ما أقوله من تفسيرات هو مجرد أشكال لخداع الذات أو أن هذه المصالحة التى وصلت إليها هى حقاً مصالحة أو مجرد هروب من الصراع وتجميد له. ولعل تصالحى فى الأيام التالية مع ليندا لم يكن تصـالحاً وإنما محاولة أخرى لتجميد الصراع الذى بدأ يصيب حياتنـا المشتركة بالتصدع والشقوق. لم يقتض الأمر إلا أن نختـار ركناً معتم الإضاءة فى مطعم ينزوى بشارع خلفى يتخصص فى تقديم الأطعمة البولونية، حيث لا احتمال لأن نلتقى بأحد من معارفنا. نتناول العشاء، ونرتشف كؤوس النبيذ، ونستمع إلى صوت الموسيقى مخلوطاً بإيقاع المطر، ونستمتع بـوهم أن بإمكاننا أن نعيد لحظات البهجة إلى علاقة تنشـأ وسـط غبار حيطان تتهاوى وتنهار، نحتفل بعودة الصـفاء بيننـا،

ونعاود الاختلاء فى غرفة نوم مغلقة، ونتصور فـى غمـرة الفرح الذى جاء بعد هذه الخصومة القصيرة أن حياتنا عادت من جديد قارباً يمضى فوق سطح بحر هادئ، ولكن للبحـر منطقاً لا يعترف بما تريده القوارب أو يشـتهيه البشـر. إذ سرعان ما أفقنا على الحالة اليائسة التى وصل إليها دونالـد. صار الرجل يسرف فى شرابه وغيابه عن البيت والعمل. لا أراه إلا غارقاً فى صمته، عائداً مخمـوراً مـع الصـباح أو خارجاً عند المساء ليشرب. أرادت ليندا بإصرار ومعاندة أن تخرجه من أزمته. لم يبق فى وقتهـا وقـت لعلاقتنـا. وإذا وجدت هذا الوقت، فهو لقاء سريع، يـتم بـلا طقـوس ولا عطور، ولا يستمر سوى لحظات قصيرة. تريد أن توهمـه بأنها توقفت عن لقائى، وأنهت علاقتها بى، إلى أن تراه يعود طبيعياً كما كان. لم أكن مطمئناً لذلك. أحسست أن ما نفعلـه الآن هو ما يمكن أن نسميه غشاً، وما يسميه قاموس العلاقات الشرعية »خيانة«. كانت علاقتنـا تكتسـب نظافتهـا مـن وضوحها. وهى الآن بعد أن صارت وقتاً مسروقاً، ولقاء يتم فى الخفاء، من وراء ظهر دونالد وخداعاً له، فأنهـا تأخـذ

شكلاً تآمرياً، عامراً بالتوتر، ومفرغاً مـن بهجـة وعفويـة العلاقة المفتوحة.

كانت فرقة التمثيل تستعد لإحياء ليلة شكسبيرية تضـم مشاهد من مسرحيات هاملت وماكبث وعطيـل والعاصـفة وتاجر البندقية والملك لير وروميو وجولييـت. حشـد مـن المشاهد والشخصيات التى اقتبسها مخرج الفرقة مـن هـذه المسرحيات، وأراد تقديمها فى سهرة واحدة عند نهاية العـام الدراسى.

لم أكن أملك قامة وبناء شخصية مثل «عطيل»، ذلـك المحارب العظيم الذى يجب أن يظهر فوق المسـرح وكأنـه قلعة تتحرك. ولكن المخرج عندما رأى أن لى بشـرة أكثـر سمرة من الآخرين، وشعراً يشبه فى سواده وخشونته شـعر الزنوج، ولُكْنَةً متميزةً لن تكون غريبة عنـدما ينطـق بهـا مغربى أسود فى بلاط الملوك البيض. اختارنى لتقديم الدور. حاولت الهروب من دخول هذه المغامرة قائلاً:

- أنت تريد أن تنقلنى فجأة من جندى يحمل الرمح إلى قائد لجيوش البندقية، وهـى ترقيـة تخـالف كـل التقاليـد العسكرية.

أفهمنى بأنه مجرد مشهد صغير يدوم لمـدة عشـرين دقيقة، وأشعرنى وهو يشرح سبب اختياره لى، بأنه قادر على أن يجعل أى ممثل خامل الموهبة يتألق فـى الـدور الـذى يختاره له. أعجبنى غروره الذى يعفينى من المسؤولية فقبلت الدور. كان مشهداً يأتى فى ختام المسرحية عندما يقوم عطيل بقتل ديدمونة ثم يقتل نفسه نـدماً. أعـاد المخـرج إعـداده وأضاف إليه حواراً من مشاهد أخرى بين عطيل وديدمونة، واحتفظ بجمل قصيرة يقولها بعض الممثلـين فـى نهايتـه. وكانت الممثلة التى اختارها لتشاركنى أداء المشـهد، امـرأة صغيرة الحجم، بحيث أبدو أمامها كبيراً ومهيباً فـى أعـين المتفرجين. كنت أعرف ساندرا من قبل، فهى إحدى ممثلات الفرقة الرئيسيات. شاهدتها تقوم بأدوار مختلفة فى طبيعتهـا، فتتقن القيام بها. امرأة صغيرة، ولكن التناسق فـى تكـوين جسمها يجعل الناظر إليها لا ينتبه إلى حجمها الصغير. فهى تبدو بشعرها الزعفرانى الذى يتهدل بتجاعيدة وفوضاه، حول وجهها، واخضرار عينيها، واحمرار بشرتها، أشـبه بدميـة بعثت فيها الحياة. كائن رهيف، جميل، أود لو أضعه فـوق كفى وأتفرج عليه.

قلت لها ونحن نبدأ تمارين القراءة:

- أشعر بالحرج وأنا أقف أمام نجمة كبيرة مثلك.

- أمهلنى قليلاً حتى أفوز بالأوسكار، ثـم قـل هـذا الكلام.

لم تكن هواية التمثيل غريبة عنى. مارسـتها منـذ أن كنت طالباً صغيراً، وأسهمت فى تأسـيس فرقـة بالجامعـة شاركت فى أعمالها إخراجاً وممثلاً. ولكننى جئت إلى هـذه الفرقة عارفاً حدودى. جئتها لا بهدف التمثيل وإنما بهدف أن أكون قريباً من هذه البيئة التى أحبها، ساعياً إلى توسيع دائرة علاقاتى فى مدينة لم أكن أعرف بها أحداً، راضياً بأن أبقـى عضواً هامشياً يساعد فى إعداد المناظر وسد الفراغات فـى بعض المشاهد المسرحية. استعدت مـع هـذا الـدور ذلـك الإحساس المدهش الذى تبعثه فى نفسى لحظة الخروج مـن شخصيتى والدخول فى شخصية أخرى، أحـاول أن أتمثـل حياتها، وظروفها، وعلاقاتها، ناسـياً حيـاتى، وظروفـى، وعلاقاتى. ووجدت فى صحبة عطيل، هذه الصحبة القصيرة العابرة التى لا تستمر سوى دقائق معدودة، صـحبة غنيـة ممتعة، لما فى هذه الشخصية المركبة من تنوع، وخصـوبة

فى المشاعر والانفعالات. مشهد صغير ولكنه احتوى جوهر المسرحية وبؤرة الصراع فيها. عطيل مركزاً ومختصـراً. قرص الطعام الذى يختزل المأدبة الكبيرة. سـأوهم نفسـى بأننى فعلاً أقرب إلى عطيل من كل هـؤلاء البشـر الـذين خذلوه. جاءوا به من بلاد المغاربة ليصنع لهم مجداً. فكافأوه بهذا الموت العبثى المأساوى. واظبت على تمارين القـراءة، والبقاء لحضور التمارين على المشـاهد الأخـرى. كانـت ساندرا تؤدى دورين آخرين فـى مسـرحيتى »هاملـت« و »روميو وجولييت«، فكنت أنتظرها أحياناً حتى تفرغ منهما. صرت ألجأ إلى هذه الأجواء الخيالية المسرحية، هروباً مـن حالة الكآبة داخل البيت. لم يطرأ أى تبدل على حالة دونالد، ولم يترك أى أثر فى نفسه ذلك التحفظ الذى أبدته ليندا فـى علاقتها معى. تفلح أحياناً فى أن تمنعه من الشراب، أو تدفع به دفعاً إلى معاودة الذهاب إلى المكتبة. ولكن ذلك لا يستمر طويلاً. إذ ما يلبث أن يتمرد على وصايتها ويعود إلى كأسه، وغيابه عن البيت والعمل. اقترحت لينـدا أن نمتنـع عـن الاختلاء ببعضنا فى حضوره وغيابه، لكى نكون صـادقين

معه ومع أنفسنا. وافقت على اقتراحهـا، وقلـت وأنـا أرى الأسى يلون كلماتى، ويمنحها صوتاً لا يشبه صوتى:

- سأصلى   ليخرج من محنته فى أقرب وقـت. لأن محنته صارت محنتى.

- ليس ما يعتريه سوى حالة طارئة. سأنتظر أن يبرأ منها، وسأستقل بحياتى عنه.

كانت تقول ذلك بانكسار وهـى تضـع عينيهـا فـى الأرض، لعلها تأخرت قليلاً فى اتخاذ هذا القرار الذى كـان اختياراً متاحاً ومعقولا قبل أن يحدث لدونالد هذا الانهيار. أما الآن فمن يدرى متى تنتهى أزمته. كان يوم «أحد»، وكـان الوقت صباحاً وناقوس كنيسة قريبة يقتحم بدقاته القوية هدوء هذه الجلسة.

ودونالد الذى عاد منذ ساعة مضت، يهجـع الآن فـى غرفته. ولذلك جاء صوتها خافتاً وهى تحدثنى عمـا اسـتقر عليه رأيها. أبديت خوفاً من المستقبل، فقالت هامسة:

- يجب أن نفكر معاً فيما يجب أن نفعله.

أدركت ما تقصده. فهى عندما منعت عنى جسدها لـم تمنع قلبها من أن يبقى وفياً ونابضاً بـدفء العاطفـة التـى

جمعتنا. تساءلت بينى وبين نفسى، عن الوقت الذى سيمضى قبل أن ألتقى بعطر أعشاب الصحراء. تذكرت أنه نفد منذ أيام. هذا العطر الذى لا يشبه العطور الأخرى. سأتدبر قارورة جديدة منه عندما يحين الوقت. أما الآن فأنا منفى عن حديقة هذا الجسد، ولن أستطيع الاقتراب منه، حتى يسترد السيد دونالد مداركه الغائبة.

جلست أنظر فى بلاهة إليها. كأننى أتأمل حلماً جميلاً يهرب الآن منى. لكن المرارة التى أحسست بها أذابتها حرارة اللهجة التى تكلمت بها ليندا عن مستقبل علاقتنا بعد أن ينتهى ارتباطها بدونالد. قلت مسرعاً:

- سأبحث منذ الآن عن مكان ننتقل إليه.

- لن يكون ذلك صعباً عندما يأتى موعده.

وصامتا ضممتها إلى صدرى. قبلتها قبلة سريعة وخرجت. قبل أن أصل إلى الباب سمعتها تستوقفنى:

- لدى فكرة أرجو ألا تسىء تفسيرها.

امتلأ رأسى بدوى صفارات الإنذار وأنا أقف أستمع لفكرتها.

- لو افترضنا لمجرد الافتراض. أن دونالد رآك تذهب إلى حانة العناقيد بصحبة امرأة أخرى. ألن يسرع هـذا فـى إخراجه من أزمته.

- كم مضى من الوقت على قراءتك لأقاصيص عصر الفرسان؟

- ما أقصده مجرد زميلة تتناول كأساً معك فى الحانة حيث يستطيع دونالد أن يراك.

خرجت دون أن أوافق على فكرتها. قـائلاً بـأننى لا أطمئن إلى هذا النوع من اللعب.

أرادت ليندا أن تذهب به لقضاء إجازة خارج الـبلاد، تتيح له وقتاً ومجالاً لكى يراجع نفسه ويعود إلـى طبيعتـه. ولأنها لم تكن تملك موارد لمثل هذه الرحلة، فقد اكتفت بـأن ذهبت به إلى الريف، ليقيم أياماً معها فى بيت أسرتها.

سافرت ليندا، وكان ناتج الطرح كبيراً، بين وجودهـا فى البيت وغيابها عنه. تحول البيت إلى فراغات، وأركـان معتمة، وهدوء مخيف يشبه الهدوء الذى نـراه فـى مشـهد سينمائى يمهد للجريمة. والغرفة التـى يسـتعملونها مخزنـاً بجوار غرفتى، لم أشعر إلا الآن بأنها ظلـت دائمـاً مقفلـة

وخاوية كأنها مقر للأشباح. خوف لا مبرر له يداهمنى أثناء الليل ويجعلنى أترك النور مضاء فى ردهة البيـت وكـأننى أخشى أن تهاجمنى الأشباح. أصنع ضجيجاً وحركة و"أكثـر من الدخول إلى المطبخ والحمام، والغناء لنفسـى بصـوت مرتفع، وكأننى أريد أن أملأ الفراغ الذى تركته ليندا. كـان وجودها موازياً لوجود البيت ذاته. حضور يملأ المكان كله. ولذلك جاء غيابها فادحاً. لم تكن ليندا، فقط عطـراً شـرقياً ترتديه فيوقظ فى دمى شوق الرحيل إلى مدينة أسطورية لها شكل امرأة تشبه ليندا. لم تكن فقط فيضاً من الحنان والأنوثة يقدم لى تعويضاً سخياً لسنوات العمر التـى أكلتهـا ريـاح وأملاح المدن الصحراوية، ولم تكن فقط جسداً شهياً، أجد فى معانقته والاستماع إلى غنائه الليلى، حـلاوة تـذيب مـرارة الغربة ووحشة الليل. وأهرب إليه من الشتاء فأجد لديه شمساً لا تغيب. كانت ليندا خيمة لروحى، وبيتاً لجسدى فى مدينـة جئتها مسافراً لا أحمل خيمة ولا متاعاً سوى جسدى. بدا لى أحياناً، ووسط مناخ التوتر الذى ساد البيت فى الأيام الأخيرة، ان عاطفتى نحوها أصابها ما يصيب عواطف البشـر مـن ضعف وضمور. ولكننى اكتشف الآن إلـى أى مـدى أنـا

مسكون بها، وأدرك أن ما يربطنى بها لم يزدد مع الأيام إلا قوة وعمقاً. عرفت قبلها نساء كثيرات. وتعلق قلبى بزميلات فى الجامعة، كنت أراهن من بعيد، وأحبهن حباً صامتاً قاسياً، دون أن أجرؤ على البوح بعاطفتى نحوهن. ولهذا فإن لينـدا هى المرأة الوحيدة التى منحتنـى حبهـا، وأطعمتنـى مـن أشجارها فاكهة لم يطعمها لى أحد سواها. لست أدرى إلـى متى سيطول غيابها. ليتها حددت وقتاً ولـم تتركـه زمنـاً مفتوحاً، معلقاً بحالة زوجها. لو قالت عاماً كاملاً، لأمكننى أن أنام هذا العام فلا أستيقظ إلا يوم مجيئها. ولكنها عادت. بعـد أربعة أيام فقط عادت. سمعت قبل أن أغادر السرير صـوت سيارتها تقف أمام البيت، فقفزت راكضاً لاستقبالها. وجـدتها تقف فى مدخل البيت تنزع معطفها.

- الآن وقد عدت فلن أتركك تغيبين عن نظرى أبداً.

قالت بعد أن فرغنا من التحية والعناق:

- هل ينقصك شىء؟

- تعرفين أنه بغيابك ينقصنى كل شىء. لأنه لا شىء آخر يعنينى فى الدنيا. فهيا أعيدى لى حياتى المؤجلة، وقولى بأنك عائدة لكى تبقى معى.

- احتجت إلى ملابس جئت آخذها. أو قل هـذا هـو العذر الذى سوغ لى المجىء. لأننى ما جئت إلا لكى أراك.

تناولت يدها، ووضعت يدها فى يدى ونحـن نجلـس متقابلين، بيننا طاولة الطعام، وفوق رؤوسنا سـاعة الحـائط التى توقفت عن العمل، وتوقف طائرها الذى يصفق بجناحيه عن الحركة.

- إذن ضعى يدك فى يدى ودعينا نتعاهـد ألا يتـرك أحدنا الآخر.

أسبلت رموش عينيها وابتسمت فى أسى. إننى أحاول أن أقفز فوق الواقع وأهرب منه إلى الأمام. ولكـن طريـق الهروب ليس سالكاً. فثمة إنسان تضرر من هـذه العلاقـة، وواجبى أن أنتبه إلى ذلك، فأنا لست مبرأ من مسؤولية مـا حدث له.

- هل قال شيئاً عن سبب أزمته؟

نعم. هذا هو السؤال الذى كان غائباً. سلمنا منذ البداية بأننا السبب فى أزمته، وتعاملنا مع هـذا الافتـراض كأنـه الحقيقة الوحيدة. فلماذا نستبعد وجود عامل آخر. لعله اكتشف فجأة إنه ابن سفاح، أو أن أباه الذى ظنه قديساً كـان يـدير

عصابة للقتل. أو لعل بوذا زاره أثناء الحلم وتبرأ منه، فهرب إلى كأسه حزيناً يائساً.

- إنه لا يتكلم. حاولت ليلة البارحة أن أخرجـه عـن صمته فقذف بالكأس فوق الأرض. أزعجتنى هـذه النوبـات العصبية التى صارت تنتابه. تركته حيث هو، وما أن جـاء الصباح حتى جئت لكى أراك.

مضت لحظة صمت حبلى بالاحتمالات، قبل أن تقول:

- أعتقد أننى حامل.

كانت تطرق برأسها، وترسم بإصـبعها إشـارات لا معنى لها فوق طاولة الخشب. نظرت إليها صامتاً أحاول أن أستوعب معنى ما قالته.

- لا أدرى كيف وقع ذلك. لم أكن أرغب فى أن أرى شيئاً كهذا يحدث لى فى هذا الوقت بالذات. لعلنى نسـيت أن أتناول إحدى تلك الحبوب، فقد جاء هذا الحمل مفاجأة لى.

- هل هو..

لم أكمل السؤال، فقد أدركت ليندا ما أقصده.

- لا أدرى أن كنت أنـت أبـاه أم دونالـد، إننـى لا أعرف.

غابت داخل غرفتها لاحضار ما تريده مـن ملابـس، وبقيت بمفردى أتأمل ما قالته. سواء كنت أنا أباه أم لم أكن. فإن أحداً لا يريده الآن. إنه يأتى ليجعل كـل شـىء أكثـر تعقيداً. سألتها عندما عادت:

- هل ستحفظين به؟

كان سؤالاً فجاً ومباشراً. إننى فعلاً أتمنـى لـو أنهـا تتخلص منه الآن طالما أنه فى أيامه الأولى.

- لم أكن أريده أن يأتى. أما الآن وقد جاء..

أما الآن وقد جاء فهو يجب أن يبقى. هذا مـا تريـده ليندا.

لعل الكتب الكثيرة التى تتحدث عن عاطفة الأمومة لم تكن كلها عبثاً. أما عاطفة الأبوة، فمن أين لى أن أعرف إذا كان هذا الجنين ابن أبيه، أو ابن سفاح جاء من صلبى. لعلها تعرف من يكون أباه، ولم تشأ أن تقول. لعله جاء برغبتهـا وتخطيطها. رأت بيت الزوجية يتقوض فأرادت أن تنتزع من بين الأنقاض طفلاً، يكون لها وحـدها، وتتـولى مسـؤوليته بمفردها، وامتنعت أن تحدد له أباً لكى لا يأتى فيما بعد مـن يطالب بحقه فيه. ظلت واقفة تحتضن كومة من الألبسة:

- إنك لست ذاهبة بهذه السرعة.

- يجب أن أشترى أغراضاً من مركز المدنية.

- سأرافقك إلى هناك.

قلت لها ونحن نشـرب القهـوة بمقصـف المجمـع التجارى:

- هل أخبرت دونالد بأنك حامل.

- لن أستطيع أن أخبره وهو على هذه الحالة.

كنت أتساءل بينى وبين نفسى، الآن وقد صار بينهمـا طفل، حتى لو لم يكن حقاً ابن أبيه، ألن يحدث هذا تبدلا فـى طبيعة العلاقة التى تربط بينهما ؟. تبادلنا كلاماً قليلاً وصمتاً كثيراً، ثم افترقنا. ما ظل يقلقنى بعد ذهابها هو أن هذا الطفل الذى يأتى فى هذه الفترة الحرجـة، ودون أن يطلـب أحـد مجيئه، والذى يأتى حسب رواية أمه، عنوة إلى الدنيا، فارضاً وجوده فرضاً، مخترقاً موانـع الحمـل، وقـافزاً كـالجنود المظليين فى أزمنة الحرب، فوق كل الحواجز التى تسد عليه الطريق. هذا الطفل الوافد لتوه من العدم، هو الـذى سـيأخذ منى المرأة التى أحبها. هو العامل الجديد الذى يدخل علـى الأحداث ويجعلها تأخذ مساراً لن يكون لصالحى.

لم أتحرر من هذا الخوف القـابض علـى عضـلات القلب، إلا عندما وجدت نفسى أخوض صراعاً كى أخرج من شخصيتى لأدخل شخصية عطيل. أبدل همومـه بهمـومى، وأضع ديدمونة مكان ليندا. كنا قد بـدأنا تمـارين الحركـة. وكانت ساندرا تتمدد فوق لوح من الخشب وهى تأخذ مظهر ديدمونة وقد هجعت إلى مخدعها. نشـرت شـعرها فـوق الوسادة وأغمضت عينيها، وحافظت على انفراجة صـغيرة بين شفتيها، متمثلة تعليمات المخرج الذى أرادهـا أن تبـدو وكأنها تحلم أحلاماً سعيدة، فهكذا يجب أن يراهـا عطيـل. همدت فى جسمها الحياة إلا من حركة النهدين وهما يرتفعان وينخفضان شهيقاً وزفيراً تحت كنزة الصوف. وأدخـل أنـا مرتدياً شخصية عطيل، أحمل قنديلى وأقول مناجاتى. وما أن خطوت أولى خطواتى على المسرح حتى استوقفنى المخرج لإبداء الملاحظات. قطع انفعالى، فقلـت مـدارياً حرجـى، مستغرباً هذا الاعتراض على ادائى:

- إننى لم أبدأ بعد.

قال بلهجته التى تضفى خطورة على كل شىء مهمـا كان تافهاً:

- هذا هو لب المسألة. تظن أنك لم تبدأ طالما أنك لـم تباشر قول الحوار. ولكننى أقول أنك بدأت من قبل أن تخطو خطواتك الأولى على المسرح. إن دخولك معنـاه أن حيـاة كاملة تدخل إلى المسرح. إنه عطيل يدخل الآن ويحمل معه الحروب التى خاضها والطفولة التى عاشها والتجارب التـى صنعت منه هذا الرجل. كل هذا يجب أن أراه قبل أن تقـول كلمة واحدة. لا أريد أن أرى خليلاً، طالب الدراسات العليـا. أريد أن أرى عطيلاً، عطيلاً كله يظهر على المسـرح الآن. أما أنت يا ساندرا..

تركته يقول ملاحظاته لساندرا التى يريـدها أن تبـدو مثل الأميرة النائمة كما تصورها الأساطير الشعبية. وانشغلت بالتفكير فى وسيلة لاحتواء هذه الشخصية الكثيـرة التعقيـد. سأنسى مسألة »الغيرة« التى يجعل منها الدارسـون مفتاحـاً لشخصيته. سأنسى قصة الصراع بين الأبيض والأسود التى يقول بها آخرون. سأنسى الخديعة والخذلان والحـب الـذى يحمل بداخله بذور الدمار. وسأبحث عن الولاء الممزق بـين عالم قديم هجرناه، وعالم جديد لم نحقق تواصلاً معه. عـن

هذه الهوة، التى سقط فيها عطيل، بين عالمه وعالمهم، زمانه وزمانهم، لونه ولونهم، رؤيته للحياة ورؤيتهم لها.

اقترح المخرج، بعـد أن انتهـى المشـهد، أن نأخـذ ملاحظاته ونبحث عن مكان غير هذا المكان لإجراء تمارين إضافية، لأنه سيكون مشغولاً بـإخراج المشـاهد الأخـرى. وسيلتقى بنا مرة كل أسبوع.

لم تكن غرفة المكياج التى ذهبنا إليها مكانـاً ملائمـاً لإجراء التمارين. فما أن بدأنا حتى جاء من يقاطعنا بحثاً عن مقص أو مرآة أو شريط لاصق. ولم تكن ساندرا تملك غرفة مستقلة ببيت الطلبة يمكن الانتقال إليها. ومن هنا جاءت فكرة أن نذهب لأداء التمارين فى غرفتى.

ما أن وصلت ساندرا إلى مدخل الغرفة حتى انهمكـت ضاحكة. رأتنى أنظر إليها مسـتغرباً، فقالـت مـن خـلال الضحكات المتتابعة:

- معذرة، لا أستطيع أن أمنع نفسى من الضحك.

كانت الكتب التى تتناثر فوق الأرض بجوار الوسـائد، والأطباق العامرة ببقايا جبن وزيتون وبـيض فـوق طبليـة أستعملها للكتابة ومائدة للطعام، تصنع قدراً من الفوضى أثار

شهيتها للضحك. ولم أكن أشعر بالحرج، فقد صرت أعرف شيئاً عن طباعها بعد هذه العشرة القصيرة. امرأة تشتعل فضولا وحيوية، ورغبة فى الحوار والمجادلة. لها قدرة على التقاط الجانب المضحك مما تسمعه وتشاهده، لترمى بعد ذلك بتعليقاتها اللاذعة دون أن توفر أحداً. وببطء دخلت ترفع الكتب من فوق الأرض وتتفحص أغلفتها التى تزينها صور الجوارى والسلاطين. رأيتها تلتفت نحوى وتهم بأن تقول شيئاً، فقطعت عليها فرصة التعليق قائلا بأنها كتب تتصل بموضوع دراستى عن ألف ليلة وليلة. اتجهت إلى النافذة تفتحها وترفع ستائرها قائلة:

- والآن دع النور والهواء يدخلان هذه المغارة.

ثم سألتنى وقد جاءت دفعات الهواء تعبث بشعرها:

- وهل لا بد أن يجلس ضيوفك فوق الأرض؟

أوضحت لها وأنا أدعوها للجلوس فوق السرير، إننى اختصاراً للمصاريف، لجأت إلى الطريقة التى تعلمتها فى مدرسة الجامع، عندما كنت أكتب وأقرأ لوحى، جالساً فوق الأرض، مستغنياً عن المكتب والصالون وقطع أثاث أخرى لا يحتاجها مسافر مثلى.

- لست مقيماً هنا كما تعلمين. ما أنا إلا عابر طريق. وما هذا المكان إلا محطة على الطريق.

ولكن هذه الكلمات التى قلتها لأضع بها حداً لفضولها، لم تزدها إلا شهية للحديث.

- ليس هناك شىء دائم وشىء مؤقت. ليس هناك إنسان مقيم وآخر زائر. طالما أنك تعيش هذه المرحلة من عمرك هنا، فأنت مقيم وأنت دائم. لأن هذه الأيام قد تكون هى عمرك كله. إننى امرأة تنتمى إلى هذه البلاد، فهذا أسمى نفسى وأنا أقيم فى غرفة مشتركة ببيت الطلبة. هل أسمى نفسى زائرة وأعتبر أن حياتى فى هذه البلاد حياة مؤقتة؟ أليس وجودنا فى الحياة كله وجوداً مؤقتاً؟ إذن فلا شىء يدوم سوى المؤقت كما يقول الفرنسيون.

سألتها أن تشرب كأساً مكافأة لها على هذه الأفكار. اعتذرت لأنها لا تشرب الكحول قبل الفراغ من العمل الذى أمامها. صنعت لها كوباً من الشاى الأخضر المخلوط بالنعناع.

- أنت تحب أن تكون مختلفاً.

- لست صاحب فضل فى اختراعـه. هكـذا نشـرب الشاى فى بلادنا.

أردت أن أناقشها بمنطق يتفق مع منطقها فقلت لها:

- إننى أحمل بداخلى تقاليد قبائل البدو التـى أنحـدر منها. يحمل البدوى بيته فى قلبه، لأنه لا بيت له. وكذلك أنا. لقد غيرت مسكنى مراراً عديدة، خلال هذه الفترة القصـيرة التى أقمتها معكم.

- لا تخطئ فهمى. فليس خطأ أن تقوم بفعل مهما كان بسيطاً تعلن به هويتك، وتؤكد به ذاتك وشخصيتك. وتسـتمد منه إحساساً بالاستقلال. نوع من آليات الدفاع العفوى، وأنت تعيش بعيداً عن محيطك الطبيعى، داخل بيئة تحـس بأنـك غريب عنها. إن هذا الكوب من الشاى يقول ذلك.

- إنك تتحدثين عن غربة لم أشعر بها فى يـوم مـن الأيام. فمن أين تجيئين بهذه الأفكار؟

- لن أقول أن اختيارك لألف ليلة وليلـة موضـوعاً لرسالتك، يحمل فى حد ذاته بعض الـدلالات، وإن كثيـرين ممن يفشلون فى التعاطى مع الواقع يلجـأون إلـى اختيـار

مواضيع تتصل بالخرافات والميثولوجيا. لن أقول إنك مـنهم لأن هذا يقتضى أن أعرفك أكثر.

- شكراً كثيراً. إنك لم تدخرى شيئاً تقولينه فيما بعـد. ماذا لو عرفت الجانب الذى اخترت دراسته؟

- لا تقل إنك ستكتب عن المرأة فى ألف ليلة وليلـة. فقد صار هذا الموضوع هو تقليعة هذه الأيام. المرأة، المرأة، المرأة. كأنهم صدقوا المثل الفرنسى الذى يقول »فتش عـن المرأة«، فصاروا يفتشون عنها فى أرفـف الكتـب ورمـاد التاريخ وحواشى المخطوطـات القديمـة، حتـى أصـابونا بالضجر. فلا تقل بأ عليك أنك فعلت مثلهم.

- ليس تماماً. فهو موضوع يختلف قليلاً عن المألوف. وها أنا أحذرك منذ البداية. إنه يتصل بالعنف والجنس فـى هذه الحكايات.

أحنت رأسها تسألنى أن أعيد الكلمات التى قلتها. أعدت عليها عنوان الرسالة بصوت أكثر ارتفاعـاً، مبالغـة فـى استفزازها. أرسلت ضحكتها الصاخبة وهـى تجلـس فـوق السرير وترتمى بجسمها إلى الخلف وإلى الأمام وكأنها أحـد المجاذيب فى حفلة زار.

- يا له من موضوع يتفجر قوة وصخباً وتحدياً، لا يتصدى له إلا من لديه قدرة على اقتحام أوعر الطرق وأكثرها مشقة وهولاً.

أضافت وهى تطفئ لفافة تبغها الرابعة أو الخامسة، فهى تدخن بمثل ما تتكلم:

- ما أفلحك فى اختيار الواجهات الكبيرة التى تنبئ على الفور أنك تريد أن تخفى وراءها شيئاً تخشى أن يكتشفه الناس عنك. لن أستطيع أن أقول لك ما هو، ولكن يكفى أن أقول أنك إنسان يخجل من ضعفه. ويحاول أن يظهر بمظهر يوحى بالقوة لكى لا يكتشف الناس هذا الضعف. لعلك نشأت فى بيت كان خالياً من الحب. لم تكن أمك تطيق أباك، ولم يكن أبوك يطيق أمك. أو لعل أمك لم تكن تجد وقتاً للاعتناء بك عندما كنت رضيعاً فلم تمنحك ما يكفى من الحب الذى يزرع الثقة بالنفس. لا أدرى كيف لم يقل لك أحد من قبل أن هناك ضعفاً فى كل الناس، وأن لا أحد يخلو من ذلك إلا سوبرمان بشخصيته الأسطورية، فلماذا الخجل؟

- ما أعظم قدرتك على قراءة العناوين وفناجين الشاى.

- وأستطيع أن أقرأ شيئاً آخر. ستكون عطيلاً ممتـازاً لو نسيت عطيلاً وتذكرت نفسك. لا حاجة بك لأن تبحث عما يعانيه عطيل وتحاول تشخيصه ومحاكاته. ابحث عما تعانيه أنت. عن الأبيض والأسود فى نفسك أنت، قبل أن تبحث عنه فى شخصية عطيل. وسيأتى تمثيلك رائعاً.

أرهقنى أسلوبها الراكض فى التحليل والتفسير، فقررت أن أكسب ودها ببعض كلمات المجاملة:

- لا شىء يجعلنى أستمر فى تأدية هذا الدور إلا يقينى بأن ممثلة موهوبة مثلك سوف تنقذ المشهد من السقوط.

- ستجد أنت شيئاً من نفسك فى عطيل. أما أنـا فلـن أجد شيئاً من نفسى فى ديدمونة. إن ما أغدقه عليها المؤلـف من نقاء وشفافية، يجعلها كائناً نادر الوجود بين البشر. لقـد وضعها شكسبير هناك مثل نجمة بعيدة تضىء لنا جزءاً من الصراع الذى يدور فوق الأرض. سأكون أكثر انسجاماً مـع أوفيليا، لأن جنونها يعجبنى.

ظلت الجملة الأخيرة التى قالتها سـاندرا تتـردد فـى ذهنى. إن بها هى أيضاً شيئاً من الجنون الذى يعجبنى. قالت وهى تخلع نعليها، وتتمدد فوق السرير استعداداً لبدء التمرين:

- دعنا لا نظلم غرفتك. إنها أفضل كثيراً من غرفـة المكياج.

أبدت ساندرا اقتراحاً بأن نستفيد من فرصة غياب أهل البيت وننتقل لأداء التمرين فى بهو الطابق الأرضـى الـذى يشبه فى اتساعه مسرحاً حقيقياً يتيح مجالاً للحركة ويسـاعد على اتقان المشهد. لم أجد داعياً للاعتراض. فصرنا نستخدم الردهة للتدريب، ونذهب فى نهاية الأسبوع إلـى المخـرج ليرى ما وصلنا إليه.

كان المشهد يقتضى أن يقبل عطيل ديدمونـة وهـى نائمة. وكنت خلال هذه التمارين أقبلها فى خـدها، مـؤجلاً القبلة الحقيقية إلى ليلة العرض. وفى إحدى هـذه الجلسـات وجدت نفسى أترك الحذر وأنتقل بالقبلة من خدها إلى شفتيها. لا أدرى لماذا فعلت ذلك، أو كيـف واتتنـى الشـجاعة لأن أفعله. ربما جاء ذلك نتيجة ما نشأ بينى وبين سـاندرا مـن ألفة، وما رأيته فى طبعها من استهتار بالتقاليد التى يحـافظ عليها الناس فى معاملاتهم. أو لعل السبب هو اندماجى فـى تأدية الدور ورغبتى فى أن أعبر تعبيراً صادقاً عما يعتمـل من عواطف فى صدر عطيل. أو لعل الربيع الـذى يجلـس

الآن فى الحدائق المجاورة، حاملاً إلينا بهاء الشمس وعطر الأرض، هو المسؤول عن هذا الانفلات من نظام متفق عليه. رأيتها ممددة فوق الأريكة. ترتدى قميصاً أبيض يكشف عن ذلك الجزء الشهى من صدرها، والنهدان بشكلهما الدائرى يرتفعان وينخفضان تحت ارتعاشة القميص. كائنان صغيران يرسلان دعوة صامتة للغواية. التصق البنطلون الجينز بثنيات الجسد وتعرجاته، يرسم التفاصيل رسماً دقيقاً، ويصنع منها أمواجاً زرقاء فى لوحة رسام يحتفل باللون والضوء. فاح من جسمها عطر نسائى لم أتبين شذاه المسكر إلا عند اقترابى منها، وهى تأخذ وضع أميرة الأساطير النائمة فى خدرها. وقفت متأملا تلك المساحة بين العنق والصدر التى صارت تتوهج تحت دائرة الضوء التى صنعتها نافذة بعيدة، وأنظر إلى ذلك الوجه الغاطس فى أسرار صلواته الصامتة. تناثرت من حوله خصلات الشعر صانعة تكويناً فوضوياً وانتشرت زعفرانية اللون مشوبة باحمرار، كذوائب النار تحرق الأريكة وتحرق صدرى. رمت بذراعها الأيسر فى كسل واستهتار بعيداً عن الجسد النائم واسبلت الذراع الآخر بجوارها واراحت الأصابع النحيلة ذات الأظافر المخضبة

بالمنيكيور فوق فخذها الذى يعانق فخذها الثانى عناقاً مهلكـاً قاسياً. مستغرقة فى أداء دورها. تغمض عينيها فى اغفـاءة وهمية، عامرة بالأحلام السعيدة، لا ترى شيئاً مما يعصـف بى من مشاعر وانفعالات. تأملتها بنظرة تحاول أن تحتـوى كل هذا البهاء النائم، ثم أحنيت جسمى فوق جسمها. اقتربت بوجهى من وجهها. امتزجت أنفاسى بأنفاسها. تلقيت عبيرها الذى انسكب رعباً وهلاكاً فى شرايينى. ولم أعد أرى شـيئاً سوى شفتيها. شفتان قرمزيتان، تتوهجـان عنفـاً وجنسـاً. ترتعشان وتتنفسان وتكتسبان وجوداً مستقلاً عن بقية جسمها. حبتا فاكهة، نضجتا، وحان زمن قطافهما، ثم صدر أمر إلهى بتحريم الاقتراب منهما.

- »آه يا أبرع نسق صنعته الطبيعة بروعتها«.

وجدت نفسى أغمض عينى كمن يريد أن يلقى بنفسـه إلى التهلكة، وأطبق بفمى على فمها.

- »يا نفساً عاطراً، تكاد تغرى العدالـة بـأن تكسـر سيفها، قبلة أخرى وأخري«.

أقول ما يقوله عطيل وأقبلها.

- »قبلة أخرى وهى الأخيرة. ما كانت حـلاوة قـط فاتكة مثل هذه«.

رفعت رأسى ووقفت. بقيت جامداً للحظـة، اسـتمرئ هذه النشوة، وأنا لا أصدق أننى قطفت هذه الفاكهة المحرمـة دون أن ينالنى عقاب مريع. أنتبه إلى أن هذا الشعور العذب، لا يناسب الغضب الدموى الذى يهز كيان عطيـل. فـأعود لإلقاء خطابه حانقاً، أتوقع فى كل لحظة أن تقوم من رقادهـا ساخطة على مافعلت. ولكنها لم تقل عنـدما اسـتيقظت إلا الحوار الذى تقوله ديدمونة. أكملنا التمرين بطقوس القتل التى ينتهى بها المشهد، فقلت لها بعد أن قمت من موتى وقامـت من موتها:

- يبدو أننى اندمجت فى التمثيل حتى نسيت نفسى.

هزت كتفيها وكأن مسألة أن أقبلها فوق شفتيها شىء لا يختلف عن طريقتى السابقة فى تقبيل خدها. إننى لم أخـرج على النص أو أخترع قبلة لا وجود لها. فهذا ما يفعله عطيل وما أمر به كاتب المسرحية. وهى ترى أننا بلغنـا مرحلـة تقتضى أن نقوم بأداء المشهد كاملاً، تفادياً لأى ارتباك ليلـة العرض. ولا أدرى لماذا اعتبرت هذه القبلة مرحلة جديدة فى

علاقتنا، وإن حاجزاً تحطم الآن ليفضى بنا إلى علاقة أكثـر حميمية. ولكن ساندرا تعاملت معى بأسلوب الممثلـة التـى أعدت نفسها ليكون التمثيل حرفتها، ولا تراه خروجاً علـى أداء هذه المهمة أن تمارس الحب إذا اقتضى دورهـا ذلـك، دون أن تخلط بين الحياة وبين التمثيل. وصرت فيما تلى ذلك من تمارين أقبل فمها الشهى الجميل دونما حرج. أرتدى قناع عطيل وأقبلها. بحب وشوق أقبلها. بشبق وعنف أقبلها. فلست إلا إنساناً مسخراً لخدمة هذا الدور، متمثلاً شخصـية هـذا المحارب القوى العنيف. إذا ما انفعلت فإن عطيل هو الـذى ينفعل. وإذا ما أبديت حماساً ولهفة وقبلتها بشهية كبيرة قبلـة طويلة تزيد شفتيها احمراراً، فإن عطيلاً هو الذى يريد ذلك. وكان عطيل دائماً يأتى. من خلف حجب التاريخ والأسطورة يأتى. ليكون عونى على ارتشاف هذه القطرات اللذيذة مـن شفاه ديدمونة.

ظلت ليندا تهاتفنى مرة كل أسبوع. لم يكن فى البيـت الريفى هاتف حتى أستطيع الاتصال بها، فلم يعد بإمكانى إلا انتظار هاتفها. كنت أخبرها بشوقى إلى رؤيتها، وأهدد بأننى سأكترى سيارة وأذهب إليها إذا لم تسرع بالمجىء. تعـدنى

بأن تنتزع وقتاً لزيارتى، ثم تتأسف فى المكالمة التالية لأنهـا لم تستطع أن تترك دونالد خشية أن تضيع النتائج التى حققتها معه بعد أن بدأ يألف حياة الريف ويبرأ من إدمانه. مضـت أسابيع خمسة على غيابها، وهى تنوى البقاء معه أياماً أخرى حتى تراه قد تماثل للشفاء تماماً. لم أخبرها بما أقوم به مـن تمارين مع ساندرا، وتركت ذلك إلى حين عودتها. لم أتوقف عن التفكر بها. وأهجع إلى غرفتى ليلاً فأشتاق إلى صحبتها، وأنتظر بلهفة يوم رجوعها، ولا أرى البيت إلا مغارة موحشة وهى غائبة عنه. عدا تلك اللحظات التى أجد فيهـا سـاندرا بجوارى، تمنحنى تعويضاً، يسد للحظات قليلة، هذا الفـراغ الذى تركته ليندا فى حياتى.

جاءت هـذه الأنثـى الصـغيرة، بهمجيـة شـعرها الزعفرانى، واخضرار عينيها، وتوقد أفكارها، تـوقظ فـى نفسى شهية قديمة للنقاش، وتعيد إلى الحياة ذلك الجزء مـن عقلى الذى أحلته على التقاعد منذ أن خبـت جـذوة الفكـر الحارقة التى كانت تدفعنى إلى تقليب كل الأحجار، ومناقشـة البديهيات بدل التسليم بها، وطرح الأسئلة التى تفضـى إلـى أسئلة أخرى. ونصب المحاكمات للبشر والآلهة على السواء.

استسلمت لطمأنينة العقل المستقيل، ورضيت بمنطق الأشياء المألوفة، أرهن لها نفسى، وأدور مع الدائرين فى طواحينها. وهاتفاً، الأمان، الأمان صرت أهادن الصمت، وأدير وجهى إلى الناحية الأخرى كلما رأيت شيئاً لا يعجبنى. تأتى هذه الفتاة الآن لكى تذكرنى بتلك المرحلة القديمة، عندما كنت مثلها فى بداية العشرينات من عمرى. كسرت قشرة الطفولة والصبا، وبدأت رحلة اكتشاف الناس والحياة. أناقش وأجادل وامتلئ بالأوهام التى تغذيها كتب تسعى لاعادة صياغة العالم. حاولت أنا أيضاً إعادة صياغته، وعندما فشلت، تركت له نفسى يصيغها كما يشاء. تنازلت مثل نبى لم يجد من يؤمن به، عن رسالتى، ورضيت بهزيمتى، وعدت مسرعاً إلى صفوف الذاهبين إلى المعبد، ممن أنكرت عليهم دينهم، أنضم إليهم وأعبد ما يعبدون. كانت ساندرا تختلف قليلاً عنى، فهى لا تأتى محملة برسالة إلى العالم كما كنت أرى نفسى. أو تملك إحساساً بالدور الاجتماعى والتاريخى الذى يجب أن تؤديه. إنها لا تحمل رسالة نحو أحد سوى نفسها. فهى تلميذة مخلصة للأدب الفرنسى الذى تتخصص فى دراسته بالجامعة، تعلمت منه التأكيد على الذات، والاحتفال

بمعنى وجود الإنسان فى الحياة. وأطروحات الوعى المقموع الذى يسعى لأن يكسر القشرة التى تسجنه ويعبر عن نفسه بالأسلوب الذى يتفق معه، كما تقول مردده أفكار الوجوديين. وصارت مثل متمردى الروايات الوجودية لا ترضى بخبرة الآخرين بديلا عن الانغماس فى التجربة والمغامرة، ومعرفة الأشياء عن طريق الخبرة الشخصية. وكنت كثيراً ما أفكر فيهما معاً. ساندرا وليندا. محاولا أن أهتدى إلى شىء جوهرى يجمع بينهما، صار مركز جذب واستقطاب لعاطفتى قبل أن أدركه إدراكاً واعياً. ساندرا، التى تصغر ليندا سبع سنوات وتصغرنى ثلاثة عشر عاماً، تبدو دائماً أكبر من عمرها وأكثر نضجاً. كتاب أنيق مبهج لا يمل المرء قراءته، والاستمتاع بما فيه من صور وألوان وأفكار. امرأة مصنوعة من جمر مواقد الفكر، قادرة على إطلاق الشرارات التى تضىء الذاكرة والوجدان. فى حين كانت ليندا، بأنوثتها، وثراء عواطفها، وردة من ورود الحديقة، تشرب الريح والمطر، وتستمتع بسقوط ندى الفجر، اقرب إلى الأشياء الجميلة فى الطبيعة وأكثر تمثيلاً لها وتعبيراً عنها. ساندرا، امرأة تستفز العقل وتوقظ فى النفس توقاً إنسانياً إلى التحرر

والانعتاق، واكتشاف المناطق المجهولة خلف مظاهر الأشياء المألوفة. وليندا امرأة اللحظات الحميمة، التى تجيد لغة القلب، وتدخر فى جسمها فاكهة لكل المواسم، وشمساً لليل الشـتاء. إن قدراً من التورط العاطفى مع ممثلة تشـاركنى دوراً فـى مشهد مسرحى، لهو ضرورة يفرضها أداء المشـهد، حيـث ينتهى الأمر عند ذاك الحد، وستبقى ليندا هى البيت، الذى ما أن يأتى المساء، حتى يأوى إليه القلب. هكذا وجدت نفسـى مرة أخرى، قادراً على إجراء هذه المصالحة بين المـرأتين، يتقاسمان عاطفتى، ويتجاوران دون صراع فى منطقة مـا، على حافة الظل، بين الحلم والواقع.

كنت أقوم مع ساندرا بتدريبنا المعتاد فى بهو البيـت، عندما فتحت ليندا الباب ودخلت إلى البهو. كنت فـى تلـك اللحظة قد وصلت إلى ذروة المشهد، حيث يباشر عطيل قتل ديدمونة. أخذت الوسادة ووضعتها فوق وجه ساندرا. وبجسم يهتز انفعالا، وملامح تمتلئ غضباً، وذراعين ويدين وأصابع تمتلئ تشنجاً، صرت أتظاهر بأننى أقتلها، كاتما أنفاسها تحت الوسادة. وهى تتظاهر بأنها تتلوى ألماً ومعانـاة لسـكرات الموت. تطلق صرخاتها المكتومة، وتحـاول المقاومـة دون

جدوى. كنت مستغرقاً فى أداء الدور فلم أنتبه إلى ليندا وهى تدخل البيت، حتى وجدتها تقف قريباً منى وقد فـرت مـن وجهها الدماء وامتلأت ملامحها رعباً وهى تصيح:

- يا إلهى ما الذى تفعله بحق الشيطان.

أدركت أنها فوجئت بمشهد القتل وحسبتنى أقتل هـذه الفتاة بالفعل. رميت بالمخدة وهرعت إليها، أمسك بها قبل أن تتداعى فوق الأرض، فى حين قامت ساندرا مـن مرقـدها لتقول معى فى نفس واحد:

- إنه تمثيل. مجرد تمرين على مشهد مسرحى.

أجلسناها فوق الأريكة وهى ما تزال فى حالـة مـن الذهول والفزع. أحضرت لها كوباً من الماء تبلل به حلقهـا. وجلست ساندرا بجوارها تشرح لها ما نقوم به من تدريبات. أمسكت كوب الماء بيد مرتعشة، تأخذ رشفات منه، وتقـول بأنفاس متقطعة:

- إذن فهو مجرد تمثيل. شكراً للسماء أنه لـم يكـن حقيقة.

قلت لها بعد أن رأيتها تضع كوب الماء فوق الطاولـة بيد أقل ارتعاشاً:

- كيف ذهب بك الظن إلى حد أن حسبتنى قاتلاً؟

- وكيف لا أحسبه حقيقة وأنا أراك تقوم بخنقها وعلى وجهك ملامح وانفعالات القتلة. لا شك أننى لم أكن لأفـزع كل هذا الفزع لو أن أحداً أخبرنى مـن قبـل، بـأمر هـذه التمارين.

كان ما فعلته إثماً كبيراً فى حقها. أجلب امـرأة إلـى بيتها، وأمثل معها مشاهد الحب والعنـف دون أن أخبرهـا، وأجعل من غرفة جلوسها مسرحاً دون أن أطلب اذنها، ثـم أختار لحظة القتل لكى تتفق مع موعد مجيئها، فكيف لا يأتى عتابها قاسياً كحد السكين. قدمت لها ساندرا، وقلت رداً على عتابها:

- إنه مجرد مشهد صغير لا يسـتحق أن أقـوم لـه بالإعلان والدعاية.

- ما رأيته لم يكن مشهداً صغيراً. كـان حلقـة مـن حلقات الجحيم.

خرجت ساندرا، وجاءت ليندا تسألنى أن أعينهـا فـى إدخال الحقيبة التى لا تقوى على حملها. أدركت أنها تضـع اعتباراً للجنين الذى فى بطنها، وأنها عادت لكى تبقى.

بدت مرهقة، تكسو ملامحها علامات أسى ظننته جاء نتيجة المشهد الذى أفزعها. ولكن أثر الأرق فـى عينيهـا، والشحوب الذى طرد الاحمرار من وجنتيها، وزوجها الذى لم يأت معها، كل ذلك ينبئ بأن هذه الكآبة ليسـت طارئـة أو جديدة عليها. كآبة لم تفلح فى إزالتها هذه الضحكات السريعة التى أطلقتها، ساخرة من خوفها لحظة دخولها البيت.

- من أين جاءتك هذه القدرة على تقمص دور القاتل؟

قلت مازحاً، أحاول أن أطرد سحابة البـؤس المعلقـة فوق رؤوسنا:

- يبدو أننى لم أتحرر من ميراث ذلك الإنسان البدائى، الذى كان يخوض صراعاً قاسياً من أجل البقاء، فلا يجد غير القتل واستخدام العنف سبيلاً إلى ذلك. إن هذا الجانب المظلم من نفسى يبقى مقموعاً حتى يجد فرصته للتنفيس عن طريق التمثيل.

لعل كلماتى لم تكن طرداً للبؤس وإنما اسـتدعاء لـه. ولعل ما أقوله هازلاً يلمس جانباً من الحقيقة. فليس عبثـاً أن الممثل غالباً ما يجيد تمثيل نقائضه فى الحياة، لأنه يعبر عن جانب مقموع فى نفسه. هل أقول لها الآن، إن جدى لأمـى

كان قاطع طريق يصنع من امعاء ضحاياه قرباً يحمـل بهـا الماء فى الصحراء. كان والدى ينسى أن هذا القاتل هو أيضاً جدى، فلا يذكر إلا العلماء من اسلافه لكى يعيد سيرتهم إلى الدنيا. ولكن أليس للجد القاتل حصة فى حفيده؟ أليس من حقه هو أيضاً أن يجد امتداداً له وإحياء لذكراه ؟.

تركت الرجل العالم والرجل القاتل يتصارعان، وقلـت لأصل بالفكرة إلى نهايتها:

- من يستطيع أن يجزم، بأن ذلك الرجل البدائى، قـد مات وانتهى وجوده الفاعل فى سلوكنا وتفكيرنا؟

اكتشفت أننى أستعير أسلوب ساندرا، وطريقتهـا فـى تحليل المواقف دون أن أدرى. ترى ماذا تقول ليندا بشأن هذه الفتاة المرسومة بأكثر الألوان إثارة وسطوعاً، والتى أخفيـت عنها علاقة العمل التى جمعتنى بها؟ ألا يجعلها ذلك تشك فى براءة هذه العلاقة؟ كانت هى التى اقترحت أن أبحـث عـن امرأة أخرج بها إلى الحانات لكى يشاهدنا دونالد فيتعافى من مرضه. هل ما زالت تؤمن بهذا الأسلوب علاجاً للـزوج ؟. لعله لو جاء اليوم، وشاهدنى مثلها، أخنق امرأة فـى بيتـه، لأعادت له الصدمة عقله الغائب.

أوت مبكراً إلى غرفة نومها، ولم أعـرف منهـا، إلا عندما جاء الصباح وجلسنا نتناول إفطارنا، كيف أن دونالـد خرج من بيت أهلها ولم يعد. أخبروها بـأنهم رأوه يركـب حافلة تتجه إلى مدينة »جلاسكو«. فأخذت سيارتها، وذهبـت وراءه، تبحث عنه فى الحانات والفنادق المجـاورة لمحطـة الحافلات، دون أن تلقاه. عادت للبحث عنه فى اليوم الثانى، وفى اليوم الثالث أخذت حقيبتها وعادت إلى بيتها.

- ظننته أصبح أفضل حالا.

- هذا ما كنت أظنه أنا أيضاً. لكنه فجأة رحل.

- لعل له أهلا يذهب إليهم.

- لا أهل له سوى أخت هاجرت مع زوجها وانقطعت صلته بها.

ثم أضافت، كأنما تخاطب نفسها:

- لا أدرى كيف يعيش الآن. ليس لديه ما يكفى لشراء فرشاة أسنان.

صمت ثقيل كالرصاص حل بيننا. لم أكن أنظر إليهـا عندما تتكلم. وكانت هى تقول كلماتها فـى جمـل قصـيرة متقطعة، وتتناول إفطارها ببطء ودون شـهية. هـى أيضـاً

تتحاشى أن تنظر نحوى. تمسك بكأس الشاى وتبقيه قريباً من فمها وتطيل النظر إليه. أخذت الإبريق أسـكب منـه شـاياً لنفسى. لم أنتبه إلى أننى نسيت أن أضـع السـكر. أخـذت الرشفة الأولى فأحسست بأمعائى تصعد الى حلقى. قلت طالباً لها ولنفسى استراحة من الحديث عن دونالد:

- وكيف حال الجنين؟

انتقلت من موضوع ثقيل، إلى موضوع أكثر حرجاً.

- إنه بخير. أو هكذا كان عندما أجريت فحصاً منـذ أسبوع. لا أدرى مدى تأثير مفاجـأة الأمـس عليـه. لعلـه يجتازها بسلام.

رأتنى مرتبكاً، فسألتنى بسرعة:

- متى ستقدمون عرضكم؟

- فى ختام العام الدراسى.

- تحتاجون إلى شهر آخر تقريباً.

- ستة أسابيع على وجه التحديد.

- تأخذون وقتاً طويلاً. فى التدريب أعنى.

- ليس طويلاً عندما تعرفين أننا نقوم بتجربة واحـدة فى الأسبوع، ولأنها لا تكفى، نلجأ للتمارين الإضافية.

كان واضحاً أن التواصل بيننا يعانى مشكلة مـا. وان هناك شيئاً يفسد صفاءه ووضوحه. وما هـذه الانقطاعـات ولحظات الصمت، والقفز من موضوع إلى آخـر، إلا دليـل على ذلك. غاب دونالد وبقى ظله يطاردنا. وباحثاً عن سبيل لحسم هذا الموضوع قبل أن يفضى بعلاقتنا إلى الهلاك، قلت لها:

- سأذهب معك للبحث عنه.

- ليس هناك من سبيل إلا انتظاره هنا. فهو لابـد أن يعود.

توالت الأيام دون أن يظهر دونالد أو تأتى منـه أيـة أخبار. كنت قد توقفت عن دعوة ساندرا إلى البيت. مكتفيـاً بالتمرين الأسبوعى الذى أجريه معها بحضـور المخـرج. عادت ليندا. ولكن البيت لم يستعد بهجته القديمة. الروح التى ظننت بأنها ستعود بعودتها إليه، ظلت غائبة. استلمت لينـدا عملا مؤقتاً بوكالة تتولى الإعداد للدورات الصيفية. وذهبـت فى مشاوير كثيرة إلى مكتبة الجامعة، تملأ ورقاً تبـرر بـه غياب زوجها، لكى لا يجد نفسه عاطلاً عندما يعود. لم تكن تسهر خارج البيت، ولم يكن أحد يزورها أو تزور أحداً، عدا

ممرضة متقدمة فى السن تأتى إليها، تحمل جهـازاً لقيـاس الضغط، أو شيئاً مما تحتاجه النساء الحوامـل مـن حبـوب وأغذية مركزة. وظلت تقوم بزيارة إلى بيت أهلها كل يـوم أحد، أملا فى أن تسمع شيئاً عن دونالد. كنـت أحـرص ألا أتركها بمفردها. أستيقظ مبكراً لألتقى بها على مائدة الإفطار، وأعود أحياناً كثيرة فى المساء لأبقى بجوارها. لـم أجـرؤ خلال هذه المدة أن أعانقها أو أقبلها أو أشير إلى ذلك الجانب المؤجل من علاقتنا. كانت الرغبة لا تفارقنى، ولكنها مثـل الرغبة التى تراود رجلاً يلتقى بـامرأة مثيـرة لا يعرفهـا، ويدرك أنه لن تضمه معها غرفة نوم واحدة. كنـت أكتفـى بمتعة أن أكون قريباً منها، وأنتظر يوماً تزول فيه هذه الغيوم وتعود فيه هذه المدينة المقفلة فى وجهى، مدينة أملك مفاتيحها وأتجول حراً بين أشجارها وفوق أرضها المباركة. ها هـو دونالد يحقق انتقامه. وبمثل ما أفسدنا عليه حياته، جاء هـو أيضاً يفسد حياتنا. نعيش بأمل أن يظهر وقد تعافى وعاد إليه عقله، حيث تستطيع ليندا أن تترك له بيته وتتحرر من زواج أثبتت الأيام فشله، لنبدأ مرحلة جديدة فى علاقتنا، لا تخالطها أوجاع الضمير الذى يتوق إلى البراءة. ولكن دونالد لا يظهر

مريضاً أو معافى، كأنه أدرك مقصدنا، وأراد أن يعاقبنا، فاختفى هذا الاختفاء الغامض، ليترك حبنا معلقاً بين الأرض والسماء، لا يجد مساحة أرض صغيرة، يبنى خيمته فوقها.

وبعد غياب امتد لأكثر من شهر، ظهر دونالد. كان عدنان هو الذى أخبرنى بظهوره عندما ذهبت للقائه، عشية الأحد، بحانة العناقيد. كان عائداً لتوه من أحد الملتقيات السياسية. وجدته يضع شارة فوق صدره، لم أتبين من كتابتها سوى » لجنة التنظيم«.

- ما أكثر الشارات التى ترتديها. لا أراك إلا وأنت تحمل شارة تختلف ألوانها عن الأخرى، فإلى أى تنظيم تنتمى هذه الشارة الكئيبة الزرقاء؟

- دعك من هذا الآن. إن الطلاب العرب ينتقدونك لأنك لا تحضر لهم اجتماعاً.

- متى أراك دون أن تحمل لى انتقاداً. ألهذا كنت تبحث عنى؟

- أعدنا إحياء جمعية أصدقاء القضايا العربية، وكنت أريدك أن تكون معنا. من العار أن تمتلئ القاعة بالاسكتلنديين ويختفى العرب.

- دعنى أصنع لكم الأصدقاء على طريقتى الخاصـة. تعرف أننى أترك السياسة لرجالها.

- وعلى أى نوع من الرجال تريدنا أن نحسب السـيد خليل الإمام؟

- يمكنك أن تحسبنى على رجال الأدب. فهو مجـال رحب كريم لا يضيق باللاجئين إليه.

- حتى لو اعتبرناك كبير الأدباء العرب وحامل رايتهم إلى النار. متى كان الأدب ينفصل عن السياسة؟

- انتهى الزمان الذى كان فيه الناس يخلطـون بـين مختلف المهن. يعزفون الموسيقى ويعالجون الفلسفة ويهتمون بتحضير الأرواح ويشتغلون أيـام الآحـاد بالخطابـة فـى المهرجانات السياسية. أفق يا عزيزى. نحن نعـيش عصـر التخصص.

- العنف والجنس. ما أنبل هذه القضية التى اخترت أن تكرس لها حياتك، ونبذت من أجلها القضـايا الأخـرى. لا أدرى كيف لا تخجل من هذا التخصص؟

- كأنك لم تقرأ فرويد لتعرف أن كل شىء فى حياتنـا يبدأ بالجنس وينتهى إليه. هل تريد أن أحدثك الآن عن الدافع الجنسى وراء نشاطك السياسى؟

- ولماذا لا تتحدث عن المركيز دو ساد، طالما أنـك أصبحت سادياً مثله. عرفنا الآن ضحيتك الأولـى، فمـن سيكون ضحيتك الثانية بعد دونالد. ليتك تراه لتعرف حجـم جنايتك.

- لابد أنك رأيته. قل بسرعة، أين هو؟

- إنه ينام مريضاً فى بيت أنار.

سألته أن ينتظرنى وخرجت أكتـرى سـيارة أجـرة تأخذنى إلى البيت. لم تكن ليندا قد عادت من زيارة أهلهـا. انتظرتها قليلاً داخل البيت. لم أطق البقاء فخرجت لأجلـس على عتبة الباب أنتظرها. مر الوقت بطيئاً ثقـيلاً. ومـا أن رأيت سيارتها قادمة حتى ركضت إليها وفتحت الباب قبل أن تقف قائلاً:

- هيا بنا إلى دونالد.

- ما لذى تقوله؟

- ستجدينه الآن ببيت أنار.

أفهمتها أن هناك قسماً بنادى المدرسـين يخصصـونه لإقامة الأساتذة الزائرين، وان انار تقيم مؤقتاً هناك. سـألتها أن تتركنى قريباً من حانة العناقيد. فى حين ذهبت هى للقـاء زوجها العائد من غيبته.

عرفت من عدنان أن العلاقة التى نشأت بـين دونالـد وأنار، لم تكن منذ البداية، إلا شفقة منها على رجل لم تستطع تعاليم بوذا أن تمنحه أجنحة يرتفع بها فوق مشاكل الواقع. أو لعله ارتفع قليلاً، ثم ما لبث أن ارتطـم بـالأرض. حاولـت المرأة إسعافه، ورأته نافراً من بيته فمارست تـأثيراً عليـه بحيث واصل حياته مع زوجته، وأفلحت فى إقناعه بأن يذهب معها إلى الريف، وعندما رأته يغيب كل هذه المدة، ظنت أنه تجاوز أزمته وشفى من أسقامه، إلى أن فوجئـت بـه منـذ يومين، يدق بابها مع الفجر، ثملاً، ومريضاً، يطلب مأوى.

رجعت مبكراً إلى البيت أنتظر لينـدا. رأيتهـا تعـود بمفردها، وقالت دون أن أسألها، بأن دونالد رفض أن يـأتى معها. انهارت فوق الأريكة بجوارى، تضع رأسها بين كفيها وتبكى بكاء صامتاً. واحتراماً لحزنها، جلست صامتاً حتـى أكملت بكاءها. دخلت بعد ذلك إلى غرفتها وأحضرت حقيبة

فارغة، صارت تملأها بالبدل والقمصان وما يحتاج إليه مـن أغراض أخرى. رأيتها تعتنى اعتناء كبيراً بوضع كل قطعة فى الحقيبة، وتسرح قليلاً وهى تتأمل القميص أو البدلـة أو المنامة التى بين يديها، عندما كانت تتـولى بنفسـها انتقـاء وشراء كل ملابسه وحاجاته. انتهت مـن إعـداد الحقيبـة، ونقلتها إليه. أدركت وأنا أراها تفعل ذلك، إن دونالد لن يطـأ هذا البيت مرة أخرى.

لم يبق على تقديم العرض المسـرحى غيـر أسـبوع واحد. فصرنا يومياً نقوم بتدريب شامل على كـل المشـاهد وبكل ما يقتضيه العرض من ملابـس وديكـور وموسـيقى وإضاءة، وبرفقة الممثلين الثانويين الذين يشاركون معنا فـى أداء المشهد بجملة أو جملتين. كما انشغلت مع الفرقة فى أداء مهمات أخرى كان من بينها أن أطوف الكليـات والمكتبـات لتوزيع نشرات الدعاية. أخرج مبكراً ولا أعود إلى البيت إلا آخر الليل، فلا أرى ليندا إلا صدفة وللحظات قصيرة جـداً. أعطيتها فى إحدى هذه المرات بطاقـة لحضـور الحفـل، وعرفت منها أن دونالد ترك بيت انار، وذهب ليقيم بفنـدق للبحارة قريباً من الميناء، بعد أن أنهى عمله مع المكتبة وأخذ

مستحقات نهاية الخدمة، وقرر أن يستقر هناك. أسـعدنى أن مرحلة قد انتهت بكل ما رافقها من قلق وانتظار، وإن مرحلة جديدة أذنت بالمجىء الآن، وجب أن نستعد لها ونعيد ترتيب الأشياء بما يضمن الاستقرار والأمان لعلاقة الحب التى بيننا. لم نتبادل سوى كلمات قليلة، مؤجلين الحديث عن المسـتقبل إلى أن تنتهى مشاغلى مع الفرقة. رأيتها مقبلة نحوى بوجـه يضيئه الابتسام. فوقفت صامتاً أنظر إلـى وداعـة عينيهـا، وأنصت إلى كلماتها وهى تتمنى لى حظاً طيباً، اقتربت منى، فلم أجد حرجاً فى أن أضمها إلى صدرى، وكأننى ألتقى بها، بعد غياب طويل أمضنى وأرهقنى.

- حمداً ، لقد انتهت الأيام الصعبة.

قبلتها قبلة سريعة على جبينها، وخرجت عائـداً إلـى الفرقة.

كان مسرح »الكولوسيوم« الذى استأجرته الفرقة لتقديم العرض لليلة واحدة، مسرحاً كبيـراً ينتمـى إلـى الطـراز الكلاسيكى بسقوفه العالية ذات النقوش والنمنمات. جاءت ليلة العرض وامتلأت طوابقه الكثيرة ومقصوراته التى تمتد على الجانبين، بالمشاهدين الذين ارتدوا ملابس السهرة، وجلسـوا

يتابعون هذه الجولة عبر عوالم شكسبير. حان موعد المشهد الذى أقوم بتقديمه، فوقفت وراء الكواليس أستمع إلى دقـات قلبى التى اختلطت بالأنين الفاجع لموسيقى العرض. انفرجت الستارة عن غرفة نوم تسبح فى نور هادئ، وديدمونة هاجعة إلى مخدعها، الذى أضفى عليه الإخراج فخامة تليق بمشـهد الموت المأسوى الذى سيكون ميداناً له. وضعت طلاء أضفى سمرة داكنة على الوجه والذراعين والساقين والنصف الأعلى من جسمى الذ"ى بقى عارياً إلا من قطعة قمـاش كـالحرام. وتمنطقت بحزام جلدى عريض ترصعه أزراز بلون الذهب، وتنورة بيضاء تصل إلى الركبتين. شعرى الذى أبقيته طويلاً صار الآن مبعثراً كثير التجعدات بفضل المكياج. فى حزامى خنجر له مقبض من فضة، وسيف له غمد كثير النقوش، وفى قدمى صندل له خيوط جلدية تلتف علـى السـاقين. جعلتـه مرتفعاً لكى أبدوا أكثر طولاً من طولى الحقيقى. حان موعد دخولى، فوقفت لاهث الأنفاس، متهيباً من الـدخول. رأيـت زميلاً يتولى إدارة المسرح، يضع فى يدى شمعدان ويدفع بى إلى الدائرة التى تستقطب عيون كل هؤلاء المشاهدين. لم أكن أريد أن أنظر إليهم أو أشعر بوجودهم، ولكن عطـور كـل

النساء اللاتى يشاهدن العرض، تتجمع الآن لتصـنع غمامـة كثيفة من عطر هجين يغمر المسرح ويغمرنى. أحـاول أن أنسى العطر والنساء، فلا أذكر سـوى النجـوم والقناديـل وديدمونة، التى يخاطبها عطيل فى مناجاته:

- «إنه السبب. إنه السبب أيتها النفس.

لا تجعلينى أسميه لك أيتها النجوم الطاهرة.

إنه السبب. ولكننى لن أسفك دمها، ولن أخـدش ذلـك الاهاب الأبيض كالثلج. الأملس كرخام التماثيل. ولكن يجـب أن تموت، وإلا فأنها ستخون المزيد من الرجال.

اطفئ النور، ثم اطفئ النور.

إذا أطفأتك أيتها الخادمة اللاهبة، فإن بوسعى إذا مـا ندمت أن أستعيد نورك من جديد.

ولكن إذا أطفأت نورك أنت، يا أبرع نسـق صـنعته الطبيعة بروعتها، فأننى لا أعرف أين تلك النار البروميثيـة التى بوسعها إشعال نورك من جديد.

إن أنا قطفت الوردة، لا أستطيع أن أهبها نمو الحيـاة ثانية، ولا بد لها من ذبول. ..

سأشمها فوق الشجرة.

يا نفساً عاطراً، تكاد تغرى العدالة بأن تكسر سيفها
قبلة أخرى، وأخري
هكذا، كونى حية تموتين، فأقتلك وأحبك بعدها.
قبلة أخرى، وهى الأخيرة. ما كانت حلاوة قط فاتكـة كهذه. يغلبنى البكاء، ولكنها دموع قاسية. هذا الحزن علوى. يضرب من يحب، ها هى تستيقظ».

تستيقظ ديدمونة لتؤدى معى دورها. ينتهـى الحـوار ويحين موعد قتلها. امسك بالوسادة وأضعها فـوق وجههـا، خائفاً، ما تزال تراودنى فكرة أن أتـرك المسـرح وأخـرج هارباً. فأقهر الخوف بالمبالغة فى الانفعال. أخـذت أضـغط بالوسادة محاولاً أن أنسى نفسـى وأنسـى خـوفى وأنسـى الجمهور الذى صار وحشاً له آلاف العيون تراقبنـى. ولـم أنتبه إلا بعد لحظات إلى أننى فعلاً أخنقها، وأننى أضع كـل قوتى فى هذين الذراعين المتشنجين وهما يدفعان بالوسـادة لكتم أنفاسها. وإن ساندرا وهى تقاوم وتتألم وتتلـوى فـوق السرير وترفع يدين تشجنت اصابعهما تحـاول أن تـدفعنى عنها، لا تفعل ذلك تمثيلاً، وإنما تفعله رعباً، وخوفاً مـن أن أقتلها. أدركت فظاعة ما أفعـل، فتركتهـا وانهـرت فـوق

سريرها أبكى بكاء أكثر حرقة وصدقاً من بكـاء التمثيـل. تابعت أداء المشهد مع ممثلى الأدوار الثانوية، وقلت كلماتى الأخيرة ثم غرست السكين فى صـدرى، وارتميـت فـوق صدرها ميتاً. بدأت الستارة تطبق ببطء على مقدمة المسرح، ودوت القاعة بالتصفيق الذى استمر طويلاً. كنت متلهفاً لأن أرى التصفيق ينتهى ويتم إقفال الستارة، لكى أتأكد مـن أن ساندرا لم تصب بأذى. تنفست بارتياح عندما رأيتهـا ترفـع رأسها، تتحسس عنقها، وتفرغ سعالاً حبسته فـى صـدرها. وضعت يدى فى يديها أساعدها على النهوض، وسحبتها إلى زاوية وراء الكواليس وبعيداً عن أعضاء الفرقة الذين جاءوا يهنئون بما أصبناه من نجاح، أعتذر لهـا عـن غشـامتى، وأسألها أن تحتفظ بما حدث سـراً بيننـا، لكـى لا يتحـول الاعجاب الى سخرية من سذاجة انفعالى. فقد بدا واضحاً أن تلك السذاجة المهلكة هـى التـى أعطـت المشـهد صـدقه وحرارته، والهبت أكف المشاهدين بالتصـفيق، وأبلغتهـا أن الاعتذار الحقيقى، سيكون زجاجة شامبانيا أقدمها لهـا بعـد انتهاء الحفل. ذهبت أنزع المكياج وأرتدى ملابسى، ومـا أن أكتمل تقديم العرض، وخرجنا جميعاً لتحية الجمهور، حتـى

أخذت ساندرا، وذهبنا بصحبة امرأتين ورجلين ممن شاركوا فى أداء وإعداد المشهد، إلـى مطعـم ومـرقص بمحـاذاة المسرح.

أمرت بإحضار الزجاجة الموعودة، فجاءت تضفى جواً احتفالياً على جلستنا، بسبب ما يقام لها من طقوس. أحضرها رئيس الخدم ملفوفة فى دثار من قماش أبيض، وجاء بكؤوس صغيرة من الكريستال لا تستعمل إلا لشربها، كما جاء بسطل الثلج المفضض والمخصص لحفظها. ثم مضى ينزع الورق المذهب الذى يغطى عنقها، ويفتحها فتحدث تلك الفرقعة التى قابلناها بالتصفيق وصيحات الابتهاج. تناثر الزبد مـن فـم الزجاجة، وفاضت رغوتها فى الكـؤوس، فـدفعنا بالكـأس الأولى إلى ساندرا ورفعنا كؤوسنا تحية لها. انتهت الشمبانيا فتحولنا إلى النبيذ، وجاءت أطباق المأكولات الخفيفة ترافـق الشراب، فقضينا وقتاً فى الأكل والشراب والرقص. حانـت الساعة التى يقفل فيها المحل أبوابه قبل أن تنتهى رغبتنا فى السهر. فاشترينا شراباً، ذهبنا به إلى غرفتى، نواصل إحيـاء هذه الليلة التى كنا نحن نجومها. سعداء بأنفسنا، مغمـورين بتلك اللحظة السحرية التى يصنعها التواصل مـع جمهـور

يتحمس إعجاباً وتصفيقاً لنا. انتهت سهرتنا وكنت ثمـلاً، لا أحفل بمن ذهب أو بقى. نمت حتى منتصف النهار، وعنـدما أفقت وجدت يداً يخضب أظافرها الطلاء الأحمـر، ترتمـى فوق صدرى. تتبعت الذراع فوجدته ينتمى إلى جسد امـرأة تلتحف بشراشف غطت جسمها ووجهها. رفعـت الغطـاء، فاكتشفت أنها ساندرا، تتمدد عارية فى سريرى، فتشت فـى ذاكرتى لأتبين ما حدث بينى وبينها فى هذا الفـراش، فلـم أستطع أن أذكر شيئاً. تركتها نائمة، وذهبت أضـع جسـمى تحت الماء. عندما رجعت كانت هى قد استيقظت، وأخـذت منشفة أحاطت بها جسمها، وخرجت إلى الحمام. فـى حـين انصرفت أنا لإعداد الشاى. كنت مازلت لم أتحرر بعد مـن تأثير ما شربته من خمور كثيرة، لكـى أسـتطيع أن أعـى وأتدبر معنى أن تنام ساندرا فى فراشى. لم أنتبه إلى دلالة ما حدث، إلا عندما سمعت ساندرا تتبـادل التحيـة مـع لينـدا وتسألها أن تعيرها شيئاً لم أتبين ما هو، ثم تهبط إلى الـدور الأرضى، لا ترتدى سوى تلك المنشفة، لتأخذه منها. خرجت من المطبخ لأراها تصعد الدرج حاملة آلة تجفيـف الشـعر، تدندن لحناً راقصاً، وتحـاول أن تضـبط إيقـاع خطواتهـا

واهتزازات جسمها مع إيقاع اللحن. أردت أن أصـرخ فـى وجهها مستنكراً ما فعلته. ولكننى تمالكت نفسى. من أين لها أن تعرف طبيعة ما يربطنى بليندا، سوى أنها زوجة صاحب البيت الذى أسكنه. رجعت إلى المطبخ لأجد سـخان الشـاى يغلى فوق الموقد، احترقت أصابعى وأنا أفرغ الشـاى فـى إبريق الخزف. اندلق الشاى وسقط الإبريـق مهشـماً فـوق الأرض. تركته مرمياً هناك وعدت إلى الغرفة. كان صوت آلة تجفيف الشعر، يتابعنى ويوخز رأسـى كـالابر. كيـف سأفسر لليندا الالتباس الذى وقع. لن تصدق أن مجىء هـذه المرأة الى غرفتى وقضاءها الليل معى، لم يكـن إلا حـدثاً عرضياً. بدا الأمر وكأننى أتعمد اهانتها. ولعلها تتساءل لماذا لم أفعل شيئاً كهذا بعيداً عنها ؟، ولماذا أصر على احضـار هذه العشيقة الجديدة، الصغيرة السن، الكثيرة الألـوان إلـى بيتها ؟. وربما تظن بأننى ما أرسلت إليها ساندرا وهى تغطى عرى جسمها بمنشفة الحمام إلا رغبة فى استفزازها. جاءت ساندرا لارتداء ملابسها. ارتميت فوق السرير، وتظـاهرت بأننى لا أزال متعباً أريد النوم. خرجـت وبقيـت بمفـردى أحاول أن أهتدى إلى طريقة أعالج بها الموقف قبل أن يتحول

إلى كارثة. يجب أن أذهب إليها الآن، وأشرح لها ما حـدث بكل تفاصيله. إن علاقتنا تبدأ الآن مرحلة جديدة بعد أشـهر من العناء والانتظار، فلا حاجة بنا إلى هموم نصنعها بأنفسنا لإيذاء أنفسنا. كان البيت صامتاً. وعندما هبطت أبحث عنها، كانت ليندا قد غادرت البيت. بقيت طـوال اليـوم ملازمـاً غرفتى. مستلقياً أغلب الوقت فوق السرير. أضع أمام وجهى كتاباً لأقرأه، فأجد أن بصرى ترك الكتاب ومضى يحدق فى السقف. انتظرت ليندا فلم تعد، إلى أن غلبنى النعاس وأفقـت صباحاً على رنين جرس الباب. تواصـل الـرنين، دون أن يقوم أحد بفتح الباب. نهضت متثاقلاً لأفتحه، وقبل أن أصل إليه، رأيت ثلاثة رجال وامرأة يفتحونه ويدخلون. قدم لى أحد الرجال بطاقة الزيارة وهو يعتذر:

- أرجو المعذرة. ظننت أن لا أحد بالبيت فاستخدمت المفتاح.

قرأت البطاقة التى تحمل اسم وكالة »كالادونيا« لبيـع وشراء العقارات.

- جئت أرافق هذه العائلة لمعاينة البيت. لا بـد أنـك السيد الذى يقيم بالطابق الأعلى. أخبرتنـى عنـك صـاحبة

البيت. إنها سيدة محظوظة. ما أن وصلت إلى الوكالة حتـى وجدت هؤلاء الناس الذين يبحثون عن بيت بهـذه المنطقـة. وفى الحقيقة فأن فئة الباحثين عن سكن لا تنتهى من الـدنيا. أحزاب كبيرة تنتهى، وفئات اجتماعية تذوب وتنقرض، ولكن فئة الباحثين عن سكن باقية. يذهب أناس ويـأتى آخـرون. ولكن لا يهم. هناك دائماً وكالة »كالادونيا« التى لا تهدف إلا لخدمتهم. إنه بيت ممتاز. بيت حديث البناء جداً. ولكن هـذا البهو الفسيح ينتمى إلى عصر أكثر فخامـة، عنـدما كانـت الأرض. ..

إننى لا أفهم ما يثرثر به هذا الرجل. هل قررت لينـدا فجأة أن تعرض بيتها للبيع. لا بد أن الأمـر كـذلك. وهـذه العائلة جاءت الآن تتفقد البضاعة. إنها عائلة تليق ببيت كهذا. رجلان وامرأة، كما كان الحال معنا. لم أستطع أن أحدد من منهما الزوج ومن منهما العشيق. لعل العشيق هو هذا الشاب الصغير الذى يلتصق القميص بصدره مليئـاً بنجـوم العلـم الأمريكى وخطوطه. ولكن المرأة تتقدمه فى العمـر حتـى لتكون أمه. يبدو أن هذه هى التقليعة الآن. صغيرات يتعشقن كبار السن. وكبيرات يتعشقن الصغار. أعجبتنى الابتسـامات

التى يعلقونها فوق وجوههم وكأنهم يشاهدون معرضاً للرسوم الساخرة. ها هى غرفة نوم ليندا مباحة أمامهم يطوفون بها، يقيسون طولها وعرضها، ويشـاهدون السـرير والوسـائد، وأدوات زينة ليندا، والمرايا التى لم تعكس فيمـا مضـى إلا صورتها وصورة زوجها. كم هى مهينـة هـذه الزيـارات. تمنيت لو أننى أستطيع أن أمنعهم من معاينة غرفتى، فهـى أيضاً ستكون مباحة أمامهم، يعاينونها ويضحكون من أثاثهـا وفوضاها. صعدت أرتدى ملابس الخروج وأترك لهم الغرفة مفتوحة دون أن أعتنى بتنظيمها. فوجئت وأنا أغادر البيـت بأن مندوب الوكالة علق لوحة كبيرة أمام الباب تحمل عبارة »بيت للبيع«. لابد أ ن الشيطان نفسه هو الذى استخدم حافره فى كتابة هذه الأحرف البشعة. بيت للبيع. ذكريـات للبيـع. حب للبيع. حجار ة للبيع. علاقات قديمة للبيع. كـل شـىء خاضع للعرض والطلب. والدنيا كرة تدور، فلا ثبات لشىء. دورة تنتهى وتعقبها دورة أخرى. زيارة قصيرة إلى وكالـة كالادونيا وتنتهى فصول القصة. تأتى اليافطة ويأتى الباحثون عن بيت للشراء، وتبدأ قصة أخرى. لقوة السوق منطقها الذى لا يعبأ كثيراً بأوهام البشر وعواطفهم. كالادونيا، كالادونيـا.

لك التمجيد والسلام أيتها الحقيقة الوحيدة الثابتة فـى سـوق البيع والشراء.

ولكن لماذا؟ لماذا تفرط ليندا فى بيـت لـم تملكـه إلا بالشقاء والاستدانة. ليتنى أعرف طريقاً إليها هذا الصباح لكى أمنعها من ارتكاب هذه الحماقة. طوفت عبر شوارع المدينة بلا هدف. كنت قلقاً. كارهاً نفسى. لا أعرف سبيلاً أسـلكه. أذهب إلى المكتبة فلا أطيق البقاء. واذهب إلى قسم الدراسات الشرقية وأسمع ثناء على الحفل الذى قدمناه فلا يزيل الثنـاء شيئاً من تعاستى. يحين موعد الغداء، فأشترى بحكم الروتين طعاماً، تعافه نفسى لأن عاملة المطعم كانت تسعل وتمخـط. وجدت عندما عدت مساء إلـى البيـت، لينـدا وبصـحبتها الممرضة، كانت الممرضة تقيس لها الضغط، وتواصل معها حديثاً بدأ قبل وصولى، عن ضرورة أن تتجنب المواقف التى تجلب لها الكدر والانفعال الشديد. بقيت واقفاً، ودون أن أنظر إليها مباشرة، كنت أستطيع أن أرى وأعرف إلـى أى مـدى هى مريضة. لم يكن ما بدا على وجهها إجهاداً أو تعباً هـذه المرة. كانت ليندا مريضة كأقسى ما يكون المرض. عندما لا يسرق لون بشرتنا أو يسرق الوميض من أعيننا، وإنما يسرق

ملامحنا ويحيلها إلى ملامح أخرى. لم أكـن غـافلاً عمـا ارتكبته فى حقها. ولكننى الآن أرى بشكل أكثـر وضـوحاً وقسوة، بشاعة ما حدث. حتى لو كان ما تعانيه، مرضاً جاء نتيجة أسباب أخرى. فإننى لا أستطيع إلا أن أفكر فى نفسـى كمسؤول عن هذا الأذى الذى لحق بها. لا أدرى ماذا يكـون شعور ذلك الأسير الذى يلقونه فى حفرة ثم يطلقون عليه أسداً جائعاً. ولكننى لا أعتقد أنه كان أكثر تعاسة منى وأنا أواجـه هذه المشاعر السوداء التى تهاجمنى وتنهش جوفى. خرجـت الممرضة وتركتنى وحيداً معها. فكرت فيما يجب أن أقولـه تبريراً لموقفى. ولكن الكلمات ما أن تصل إلى فمـى حتـى تبدو باهتة لا معنى لها. لا تبرئنى وإنما تؤكد إدانتى فأتوقف عن قولها. اخترت لجلوسى كرسياً يحاذيها، فذلك أقل قسـوة من أن أواجهها، ولكننى لم أستطع أن أتفادى رؤيـة الأسـى الذى يغطى وجهها والذى كان يربكنى فلا أعرف كيف أفتح الموضوع. تناهى لى صوتها واهناً ضعيفاً وهى تقول:

- كان لابد أن أعرض البيت للبيع. ولكن من حقك أن تبقى مقيماً به.

صرخت محتجاً ومستنكراً. كان صراخاً صامتاً يمزق صدرى دون أن تقوى حنجرتى على نقله. سمعتها تقول:

- سأقيم ببيت أهلى. فلا شك أن دونالد بحاجة إلى أن يستعيد ما دفعه فى هذا البيت. طالما أنه لم يعد يريده.

كان البيت قد بدأ ينهار. فلا أرى إلا ركاماً، وأتربـة، وغباراً يتساقط فى صمت وحزن. حاولت أن أرفع رأسى من دوامة الغبار وأقول شيئاً أفسر به ما حدث نهار الأمس، بدلاً من هذا الصمت. وقبل "أن أتمكن من الكـلام وقفـت لينـدا واتجهت صوب غرفتها. قالت قبل أن تختفى خاف الباب:

- يمكنك أن تفتح التلفاز إذا أردت. أما أنا فيجـب أن أنام الآن. لا تنس أن تطفئ الأضواء فيما بعد.

فى اليوم التالى سمعت طرقاً خفيفاً على باب غرفتـى. تفاءلت خيراً عندما وجدت أنها ليندا جـاءت تـوقظنى مـن نومى. أفسحت لها الطريق ودعوتها للدخول. قالـت وهـى ماتزال واقفة أمام الباب:

- لم أشأ أن أسافر دون أن أقول وداعاً.

- ليندا.

- وأتمنى لك التوفيق فى دراستك.

- ليندا أرجوك. لا تقولى هذا الكلام وكأننا لن نلتقـى بعد اليوم.

- ربما نلتقى، من يدرى.

- دعينى أخبرك بشىء واحد وهو أننى لا أستطيع أن أعيش بعيداً عنك، وسأذهب معك إلـى أى مكـان تشـائين. امنحينى فرصة لأشرح لك.

- نسيت أن أهنئك على نجاحك فى دور عطيل. مـا أشد براعتك فى التمثيل.

- لحظة واحدة أرجوك.

- يجب أن أمضى. يمكنك الاحتفاظ بآلة تجفيف الشعر التى استعارتها صديقتك فلا بد أنها ستحتاج إليها فى المرات القادمة.

كانت تهبط الدرج وأنا أهبط وراءها.

- يجب أن تعرفى أننى لن ألتقى بها بعد الآن. انتهت علاقة العمل التى جمعت بيننا. لم يكـن وجودهـا هنـا إلا استمراراً لسهرة أقمناها احتفالاً بالعرض المسرحى وامتـدت حتى غلبنى النعاس. صدقينى بأننى فوجئت بوجودهـا فـى اليوم التالى كما فوجئت أنت.

- ولماذا أفاجأ. إنها حياتك و"أنت حر بها.

أمسكت بذراعها عند عتبة الباب أمنعها من الخـروج. إنها ترفض أن تنصت لى وكأنه لا يعنيها أن تعرف صدق ما أقول. اتخذت قراراً بأن تطردنى من حياتها، وسوف أقـاوم هذه القرار الظالم.

- يجب أن أذهب.

- لن أدعك تذهبين.

- أترك ذراعى أرجوك.

قوة تتلبسنى وتدفعنى لأن أرتكب أية حماقة فى حقهـا الآن. أن أقذف بها فوق الأرض وأدوس بأقدامى كل جـزء من جسمها حتى لا تقوى على الوقوف أو الكلام أو الـذهاب إلى أى مكان آخر فى الدنيا. أن أطـوق عنقهـا بأصـابعى وأخنقها، حتى تسقط كما سقطت ديدمونة جثة بـلا حـراك. أقتلها وأحبها بعد ذلك. كنت أرتعش كأننى مريض بـالحمى. وكنت أقبض بقوة على زندها وهى تتألم وتسألنى أن أتركها تمضى. ولكن كيف أستطيع أن أتركها تمضى ؟. حاولت أن تنتزع ذراعها من قبضتى فأمسكت به مستخدماً اليد الأخرى، قابضاً عليه بتشنج وعصبية، لكى أمنعها من الخروج. كنـت

أحس بوجهى ملتهباً كأن جمراً يتقد تحت جلدى، وأنا أطحن ضرساً بضرس، محاولاً أن أتمالك أعصابى وأستحضر أقصى ما أستطيع من عقل "أمنع به نفسى من تلبية هذه الأفكار المجنونة التى تريدنى أن أقتلها وأحرقها وأصنع من رمادها قدحاً أملأه خمراً أعاقرها مدى الحياة. مرت لحظة بعمر الفاجعة، كلانا ينتفض ويرتعش، قبل أن أترك أصابعى المتشنجة حول ذراعها تتراخى وتفك قبضتها. ولا أدرى ما الذى رأته ليندا يرتسم من انفعالات على وجهى حتى صارت تبحلق فيه بعينين تمتلئان ذعراً. خرجت راكضة وهى تلتفت كأنها لا تصدق أنها نجت من هذا الشر الذى رأتنى أضمره لها. قفزت سيارتها فى الهواء. واندفعت بقوة تثير زوبعة من الغبار. أخرج العادم دخاناً كثيفاً غطى وجهى وملأ حلقى بالمرارة والغثيان. راقبت سيارتها وهى تمرق، تمضى، يبتلعها الطريق، ولا تبقى وراءها سوى الدخان والغبار.

ولا أدرى كم مر من الوقت وأنا أقف مزروعاً أمام البيت، قبل أن تأتى سيارة شحن عملاقة، تقف فجأة أمامى، وتخرجنى من ذهولى. يقفز من صندوقها الرمادى عمال يرتدون عفريتات ذات ألوان قاتمة داكنة، يدخلون البيت

ويباشرون تقويض الأثاث. راقبتهم قليلاً وهم يتسلقون الأرفف والحيطان كالجراد، ثم تركت لهم المكان وخرجت. غمامة بلون الأسى الأسود، تحملنى فوق ظهرها، تلفنى بدخانها المازوتى، وتطوف بى طرقات المدينة. لا أكاد أصدق أن ليندا خرجت هذا الخروج العاصف من حياتى. وإن كل وشيجة كانت تربطنى بها تمزقت بهذه السرعة الفجائية. كأن خنجراً لا مرئياً انبثق من مكان ما فى الفضاء ومزقها. كيف يمكن لهذه العلاقة التى حسبتها محوراً لما مضى من حياتى، وما سوف يأتى، أن تلقى مصيراً فاجعاً يحيلها فى لحظة خاطفة إلى دخان وغبار. كان حدسى وفى أكثر اللحظات امتلاء بالبهجة والأمان، ينذرنى بأن هذا الفرح لن يدوم. ولكننى لم أكن أتخيل أن تأتى النهاية بهذا الشكل الموجع، المؤلم كالنزيف فى الرأس. وأن يكون أنا الذى يصنع هذه الكارثة بحماقته وجهله. أضرب فى الشوارع تائهاً، هارباً من إنسان لا أعرف كيف أهرب منه. لأنه يقيم فى دمى، ويحتل جانباً مظلماً من نفسى. هذا الكائن المجبول من طين السنين العجاف، ورماد أزمنة الجفاف والقحط، وبقايا الجحيم المتفجر فى حقول الألغام، وبكاء النساء

النائحات فى مأتم الموت الفجائى. هذا الذى يسـتيقظ بغتـة وسط ادغال الروح، ويفتك بالإنسان الآخر المصـنوع مـن كتب الأدب وأساطير الليل، وقصـائد الشـعراء، وأشـجان المغنين، وطباشير المدارس، وتذاكر السفر إلى المدن البعيدة. والذى يبقى دائماً ضعيفاً، وهشاً، هشاشـة المـادة الورقيـة والجيرية التى صنع منها. لا يقوى على الوقوف مدافعاً عـن نفسه فى مواجهة الرجل البدائى الذى يطل برأسه ليدمر كـل علاقة مبهجة يراها تنمو كشجرة ورد فى بيداء العمر. يتسلل ملتحفاً بالظلام ليطعن بخناجره المصنوعة مـن الصـوان، البشر الذين أحبهم، ويشعل الحرائق فى البيوت التى منحتنى الأمان. مخاتل، مخادع، يباغتنى دائماً دون إنذار، فلا أنتبـه لأفعاله وتصرفاته، إلا عندما تداهمنى النتائج مثـل حـوادث السير القاتلة. وهذا بوق سيارة ينطلق خلفـى لأننـى أعبـر الطريق شارد الذهن. استحضر صورة ليندا فأرى ملامحهـا المذعورة وهى تهرب منى، تندمج مع ملامح آن بولين وهم يضعون رأسها تحت المقصلة. تنبجس المشاهد فـى رأسـى كالنزيف، وأرى ليندا مرة أخرى فى صورة أوفيليـا وهـى تطفو فوق البحيرة، تغمر جسمها الأعشاب والزهور الميتـة.

وأراها فى صورة ديدمونة، وهى ترتمى مخنوقة فوق سرير حبها. أذكرها فتأتى ساحبة معهـا صـورة دونالـد، متعبـاً ومريضاً. تمتزج صورته بصورة أجـاممنون وهـو يعـود منتصراً من حروبه فى بحر إيجا، يفتح ذراعيـه لاحتضـان زوجته، فيداهمه خنجر العشيق فى ظهره. وأرى أن الرجـل الآخر الذى يعيش بداخلى هو الذى دفع برأس آن بولين إلى المقصلة وهو الذى رمى بأوفيليا إلى بحيرة الأزهار الميتـة وهو الذى ساق ديدمونة إلى حتفها وهو الذى أغمد الخنجـر فى ظهر الزوج المخدوع. إنه يسير الآن فى الشوارع حراً، طليقاً، لا أحد يدرى بجرائمه، أو يصدر أمراً بالقبض عليه. إن علم الجينات ليس كله عبثاً. وقاطع الطريق الـذى هجـر الصحراء، جاء اليوم يحتمى بهذه المدينة التى لا تعرف شيئاً عن تاريخه الملوث بالدماء. لقد رأيته منذ لحظات يريـد أن يخنق ليندا. لم تكفه المهانة التى ألحقها بها قبل ذلك، فأراد أن يكمل المهمة بقتلها. رأيت والدى يقف غاضباً، ويعلق حـبلاً فى سقف الغرفة. ينصب مشنقة لى. لهذا الجد القاتـل الـذى يلبسنى. رأيته يضع وثاقاً فى يدى ويعقد الأنشـوطة حـول عنقى، ووالده الفقيه يقرأ التسابيح والأوراد ويصدر الفتـاوى

بأن ينال القاتل جزاءه العادل. أحسست بالاختنـاق. جلسـت منهاراً فوق مقعد صادفنى فى الطريق. أحاول أن أفك القيـد عن يدى وأحرر عنقى من الحبل الذى يطوقه. وقفت حافلـة أمام المقعد. لم يهبط أحد. فتح السائق باب الركوب. رأيتـه ينظر نحوى، ينتظرنى، بقيت جالساً فى مكانى لا أتحـرك. أطلق السائق شتيمة لم أسمعها وأقفل الباب. لابد أنه لم يـر هذه الأنشوطة التى تخنقنى، وهذا القيد الذى فى يدى. رأيت ليندا مقبلة نحوى. يداعب شعرها الأشـقر نسـيم الصـباح. استغربت لوجودها فى هذا المكان وهى التى ذهبـت لبيـت أسرتها. رأيتها تفتح ذراعيها لاحتضانى. لا شك أنها أدركت محنتى، وعرفت صدق عواطفى، فعادت مسرعة لانقـاذى. مزقت الحبال التى تربطنى، وانتشلت رأسـى مـن مشـنقة الاسلاف، وركضت نحوها أعانقها. أمرغ وجهى فى جدائل شعرها، وأسكب مهجتى قبلاً تغطى وجهها، وأمسك بيـديها المباركتين ألثمهما والثم أطراف ثوبها، وأنا أشـكرها علـى عودتها وأتوسل إليها أن تبقى معى ولا تتركنى لأننى بدونها إنسان منذور للهلاك. فهى وحدها من يستطيع انقـاذى مـن هؤلاء الاسلاف الذين يريدون قتلى. فتحت عينى فلـم أجـد

أحداً، سوى امرأة تعبر الطريق وتنظر باستغراب نحوى. كنت أعانق الهواء وأكلم نفسى. رحلت ليندا ولن تعود. خرجت من حياتى وتركتنى أواجه وحدى حكم الموت الذى أصدره ضدى أسلافى. كيف أستطيع أن أطرد ليندا من ذاكرتى. يجب أن أكرهها. أن أحقد عليها حقداً ينزع الضعف من قلبى. سأكرر أننى أكرهك يا ليندا. مائة مرة. ألف مرة. فلعل هذا القول يريحنى. ويحررنى من هيمنة ظلها. إننى فعلاً امقتها. وأردت صادقاً هذا الصباح أن أقتلها وأحرق عظامها حتى تصير رماداً. لماذا أبدو إذن ضعيفاً حين أذكرها. إننى أكرهك يا ليندا. بقيت أكرر هذه العبارة. أكررها أحياناً بصوت مرتفع، وأقولها بحدة وغضب. غير عابئ بمن يلتفت هازئاً ضاحكاً. أكرهك، أكرهك، أكرهك. كان تمريناً فاشلاً، فما أن رأيت وجهى مهشماً وممسوخاً فى زجاج نوافذ الدكاكين، حتى اكتشفت أننى أكره نفسى، وأوجه القول إلى صورتى المعكوسة فى المرايا. وصلت إلى الطرف الغربى. منطقة الحانات والمراقص. انتصف النهار وبدأ الناس يغادرون مكاتبهم ويزحمون الحانات لقضاء استراحة الغداء. دسست رأسى وسط زحام إحدى الحانات،

وكأننى أحتمى بالزحام من إنسان يطاردنى. انقضت ساعة الغداء سريعاً، وأمست الحانة خاوية. ذهبت إلى صندوق الاسطوانات لأضع صخباً يبدد هذا الصمت. لمحت وأنا أقرأ عناوين الأغانى أغنية »تلك الأيام«.

فى سالف الأيام

كانت هناك حانة

وكنا نقصدها لاحتساء قدح أو أثنين

كانت تلك هى الأيام يا صديقى. تلك كانت الأيام.

أدرت الأغنية مرة ثانية لكى أقنع نفسى بأن ما حدث لى يحدث مثله لأعداد لا تحصى من البشر كل يوم، دون أن يتقوض العالم أو ينهار سقف الكون.

عندما عدت ليلاً إلى البيت وأشعلت الضوء، أدهشنى أن أرى البيت وقد عاد إلى عناصره الأولى من أسمنت وحجارة وطلاء. عارياً من ذلك الكساء الذى يمنحه طابعاً إنسانياً. اختفى الأثاث كله، ولم تبق سوى الجدران البيضاء، مليئة بالثقوب السوداء التى تركتها المسامير المخلوعة. تلاشى فى يوم واحد كل أثر للبشر الذين أقاموا وأحبوا وتخاصموا وفرحوا وغضبوا فى هذا المكان. لا شىء سوى

الأتربة، وقشور الطلاء فوق الأرض، وعنكبوت كبير يزحف ببطء فوق السقف، وقطرات ماء ترشح من إحدى الحنفيات، تخترق الصمت، وتصنع فى أذنـى دويـاً يشـبه طلقـات الرصاص. صعدت هارباً إلى غرفتى. تمنيت لو اسـتطعت البكاء متمثلاً قصائد الشعراء الجاهليين عند وقـوفهم علـى الأطلال، لكى أخفف من غلواء هذا الحزن. ولكن الدموع لا تواتينى. سأخرج إلى الشارع وأبحث عن ملهى ليلى أحتمـى به من مشاعرى، وأجد بين مضيفاته من تعيننى على عبـور ما تبقى من هذا الليل. أحسست بجسمى منهكاً، فتركت فكرة الخروج وأسلمت نفسى لنوم ملىء بالكوابيس. جثـث تطفـو فوق الماء، وأعناق تتدلى من المشانق، وقاطع طريق يطعن شيخاً ذاهباً لصلاة الفجر. عندما اسـتيقظت كـان منـدوب الوكالة يواصل ثرثراته مع أناس جدد جـاء بهـم يعـاينون البيت. اعترض طريقى وأنا أهم بالخروج. سـمعته ينطـق اسمى محرفاً ويسمينى السيد »الآلام« بدل »الإمام« فرأيـت أنه تحريف يليق بى.

- يهمنى أن أعرف الآن، إن كنت سترحل أم ستبقى.

أردت أن أشاكسه قليلاً، فقلت له بأننى لم أتخذ قـراراً بعد.

- لابد أنك تعرف بأن رحيلك عن البيت يجعل بيعـه أكثر يسراً، وثمنه أكثر ارتفاعاً.

- ولكن القانون يحمى حقى فى البقاء.

- إنه يضمن لك أن تبقى مقيماً فى هذا البيت إلـى أن تموت. أريد فقط أن أعرف ما أقوله لهؤلاء الزبائن.

أعجبتنى اللهجة الحانقة التى تكلم بها، ضاغطاً علـى عبارة »إلى أن تموت« وكأن ذلك سيحدث غداً. وجدت فيما قاله استفزازاً يتفق مع ما أبديته من عناد، فقررت أن أهادنه.

- إذن يمكنك أن تخبر زبائنك بأننى سأترك البيت قبل نهاية الأسبوع.

لم يستطع أن يخفى دهشته برغم أن مهنته لا تسـمح عادة بإبداء الدهشة فى مثل هذه المواقف. فقد تضيع الصفقة أو يهرب الزبون الغشيم الذى لا يعرف من مضاربات السوق شيئاً إذا ما صار يستغرب لكل ضعف أو عبط. عاد بسرعة لاخفاء دهشته تحت غطاء ابتسامة عريضة باردة، كأن هـذا ما يجب أن يفعله كل مؤجر عاقل. كنـت أعلـم أن العـام

الدراسى الذى أذن بالانتهاء، سوف يتيح لى سـكناً ببيـوت الطلبة. ومن بين المساكن المعروضة للكراء، اخترت مكانـاً يحاذى المكتبة. غرفة كبيرة بالطابق الأرضى، خاليـة مـن الأثاث، تؤجر عادة للمتزوجين لأنها تحتـوى علـى منـافع خاصة بها. أدهشنى أنهم وافقوا بسرعة على تأجيرهـا دون اعتبار لحالتى الاجتماعية. كانت غرفة مستطيلة، لها نافـذة تطل على زقاق معتم، إلا أنها أكثر اتسـاعاً مـن غرفتـى الأولى، برغم أن المطبخ صار الآن جزءاً منها. وفى يـوم واحد نقلت إليها كتبى وأمتعتى. واشتريت طاولة لاسـتعمالها مكتباً ومائدة للطعام. كنت سعيداً باختصار هذه المسافة التى تفصل بين البيت والمكتبة، والتى كانت تأكـل وقتـاً ثمينـاً صرت الآن بحاجة إليه أكثر من أى زمن مضى. سـأكرس كل ما أستطيع من جهد لانجاز رسالتى. مستفيداً من عطلـة الصيف التى تتيح للأستاذ وقتاً أكثر لمتابعتى. سأنسى الإجازة وسأستخدم شهرزاد لمحاربة الفراغ الذى تركته لـى لينـدا. سأقضى يومى كله بصحبتها، أراقبها وهـى تواجـه ملكـاً مجنوناً يريد قتلها كل ليلة. لن أمنحها وقتى بـدافع الدراسـة وحدها، أو بدافع البحث عن تعويض للعلاقات الفاشلة، وإنما

أيضاً بدافع أن أتعلم منها شيئاً عن كيفية ترويض القتلة. فأنا أواجه مع الشخص الآخر، الراقد أبداً فى أحراش الروح هماً يماثل همها. سأعرف منها كيف اسـتطاعت بقـوة الخيـال والحكايات التى تتحدث عن العشق والجن والسحرة والعنـف والجنس وعجائب الدنيا، أن تنقذ عنقها وتضمن النجاة لبنات جنسها اللاتى يهددهن الفناء، وتعيد قاتلاً يزهو بسفك دمـاء الصبايا، بشراً مرة أخرى. ما أريده الآن هو عزلة أنجز بها عملى. حتى لو كان الهدف ورقة أضمن بها رزقى. فإن هذه الورقة تحتاج إلى وقت وجهد. أدهشنى ما استطعت تحقيقـه خلال أسبوع واحد من تفرغى للدراسة. كنت خلاله أقضـى نهارى كله بالمكتبة، وأبحث عندما تحين السـاعة التاسـعة، وينتهى وقت المكتبة، عن ساعة للترويح، فأجدها تحولـت، وبرغم مساءات الصيف المبهجة، إلى ساعة كدر وضيق. فقد أفرغت العطلة الدراسية، مدينة أدنبره من كل الأصدقاء، بما فيهم عدنان الذى سافر دون أن يخبرنى. لم أعد ألتقى بأحـد فى حانة العناقيد التى أطفأت موقدها واستبدلت زبائنها بسواح يأتى بهم الصيف. تهاجمنى فى لحظات الوحدة، ذكرياتى مع ليندا. تأتى مغلفة بسحابة عطر شرقى، فأتمنى لو أقدر علـى

الذهاب إليها فى مخبئها الريفى. قررت ذات صباح أن أذهب إليها. كان يوم أحد، وكنت أعانى إحساساً ثقـيلاً بـالفراغ. وقفت فى المحطة أنتظر الحافلة التى تأخر وصولها. اسـتنفد الانتظار قدرتى على المغامرة، فصرت أراجع هذا القـرار. إنها بالتأكيد لن ترتمى فى أحضانى، بل لعلها تقفـل البـاب دونى. فكرت فى إنسان ما أعرفه، أستطيع أن أذهب إليـه، وأجد فى صحبته عوناً على مقاومة هذا السأم غير ليندا، فلم أهتد إلى أحد. وفجأة خطر على ذهنى دونالد. ها هو إنسـان أعرفه وأعرف أن لا مكان آخر لديه يسافر إليه. مـاذا لـو ذهبت للسؤال عنه فى الفنادق المحاذية للميناء. لـم أنـاقش الفكرة أو أبحث عن تبرير لهذه الزيارة. لـم أتسـاءل عمـا سيكون شعوره وهو يلتقى برجل تطفل علـى حياتـه حتـى أفسدها. سرت باتجاه الميناء، يدفعنى الفضول لأن أعرف ما حدث لهذا الإنسان الذى تشابهت الآن حظوظه وحظـوظى، بعد أن صرت مثله مطروداً من تلك البساتين المعلقـة فـى سماء الوهم والسراب. لم أجد عناء فى العثور على فندقه بين الفنادق القليلة التى هناك. كان قد خرج إلى حانة قريبة دلنى العامل على مكانها. لم أجده بين الزبـائن الـذين خرجـوا

بشرابهم وكراسيهم إلى الرصيف. ولم يكن موجـوداً داخـل الحانة. أخذت قدحاً من البيرة ووقفت أسند ذراعى على البار أنتظر أن يأتى. كنت أحس بالحرج لوجودى بهنـدام أكثـر ترتيباً وأناقة من هندام هؤلاء البحارة وصيادى السمك. لـم أنتبه إلى الرجل ذى اللحية الحمراء الذى يجمـع الكـؤوس الفارغة ويذهب بها إلى حوض خلف البار، إلا عندما وصل قريباً منى. رآنى أتفرس فى وجهه، فترك جمـع الكـؤوس. ووضع يده فوق كتفى.

- إنه أنت أيها البدوى.

- مرحباً دونالد. كدت لا أعرفك وأنت تختفى خلـف هذه اللحية الحمراء.

- أنت أيضاً تغيرت. تعالى نجلـس خـارج الحانـة لأعرف ما هو هذا الشىء الذى تغير فيك.

سحبنا مقعدين، وجلسنا فى مواجهة الشـمس. بـرغم رثاثة هندامه، فقد بدا وجهه من خلاف اللحية متورداً يـوحى بالصحة والعافية النفسية.

- وأخيراً ذهبت إلى دكان الحلاق. إذن فأنـت تهـتم بنفسك هذه الأيام. لم تقل لى. ما الذى جاء بك إلى هنا؟

- جئت للسؤال عنك.

- كما ترى. تحررت من كـل القيـود. لا بيـت ولا زوجة ولا وظيفة. وتحررت من الانفعالات الكبيـرة التـى تجلب أمراض الروح والبـدن. لا عشـق ولا كراهيـة ولا خصومات. أعيش صحبة هؤلاء البحارة الذين لـم تفسـدهم الكتب، وأخرج معهم أحياناً إلى البحر، وأجد نفسى قريباً من نفسى مرة أخرى.

- لعلك تعلم أن ليندا عادت لتعيش مع أهلها بعـد أن عرضت البيت للبيع.

- جاءت إلى هنا تبلغنى بذلك وتقول إن مبلغاً كبيـراً سوف يبقى بعد سداد القرض. سألتها أن تحتفظ بـه فأنـا لا أحتاج إلى مال كثير. لقد أعفانى صاحب هذه الحانة من دفع ثمن الشراب مقابل أن أقوم بجمع وتنظيف الأكواب الفارغة.

لم أكن أتوقع أن يستقبلنى بكل هذا الود. بدا واضحاً أن »البوذية« قد حققت كامل انتصارها فى هذا الرجل، بعـد أن تحرر من ارتباطاته الوظيفيـة والعائليـة. أردت أن أكـون مجاملاً فقلت:

- حان الوقت فيما أظن لأن تستأنف حياتك مع ليندا. إنها لا تزال تحبك. وما كانت علاقتى بها إلا حدثاً طارئاً كما قلت أنت ذات مرة. وقد جئت اليوم لكى أعتذر وأطلب الصفح.

- لم تكن تلك الحياة تناسبنى. الزوج ورجل البيت والوظيفة وربطة العنق وساعات الدوام ومتابعة المسلسل اليومى عن »شارع التتويج«. كل تلك الأشياء كانت غريبة عنى. لم أكن أحتاج إلا إلى دفعة صغيرة لكى أعود إلى طبيعتى. لست نادماً على شىء. هذا ما كنت سأفعله. طال الوقت أم قصر. جئت أنت أو لم تأت. فلا حاجة بك للاعتذار.

- أصبحت الآن والداً لطفل سيأتى بعد أيام. ومن حقه عليك أن تعيد التفكير.

- أنت تعلم بمثل ما أعلم أن هذا الطفل ليس طفلى. مضت سنة وبضعة أشهر قبل الحمل، لم أكن أعاشرها معاشرة الأزواج، لأننى ببساطة كنت عاجزاً عن فعل ذلك الشىء. كنت طبيعياً قبل الزواج. ولكن ما أن تحولت العلاقة إلى زواج وطقوس وواجبات، حتى أحسست بالضعف الذى

تحول فيما بعد إلى عجز كامل. ولهذا لم أعارض أن يكـون للبندا علاقة جانبية ترضيها وتتيح لها أن تبقى قريبـة منـى رغم العجز الذى أعانيه. كنت أحبها ولا أطيق فراقها. وجئت أنت لتقدم خدمة لى ولها. كان ترتيباً يناسب الجميع. ولكننى كنت أعرف أن هذا الضعف لم يأت إلا لأننى أمثل دوراً ليس دورى وأرتدى ثياباً ليست ثيابى. حاولت طـويلاً أن أرغـم نفسى على القبول بتلك الارتباطات البيتية والوظيفية التى لم أخلق لها، إلى أن جاءت الانهيارات العصبية تطالبنى بلغتها القوية أن أحرر روحى من تلك القيود. وما أن فعلت ذلـك، حتى تعافيت من مرضى واستعدت قدرتى علـى ممارسـة الجنس. ويمكنك أن تسأل عاملة البار. فهـى المـرأة التـى أصاحبها وأنام كل ليلة سبت معها.

بقدر ما أحسست بالارتياح لأننى تحررت من إثم هـذا الرجل الذى كنت أعتبر نفسى مسؤولاً عن تدمير حياته. بقدر ما أزعجنى أن هناك سراً من أسرار هذه اللعبة أخفياه عنى. لم يكن اللعب نظيفاً إذن. ولم تكن تلك العلاقة مبرأة من شبهة الاستغلال. هل تراها كانت طوال الوقت تستخدمنى كوسـيلة للاحتفاظ بزوجها العاجز؟ هل كنت فى حياتها مجرد برشامة

الدواء التى تنقذ بها حياة زوجية يبقى فيها دونالد الزوج، وأنا آلة الإخصاب والجنس؟ هل تراها أرادت طفلاً، فاستعملتنى مثل جواد الاستيلاد، حتى تحقق لها ما تريد؟ هل كان حبها كذباً توهمته حباً؟ لست واثقاً من شىء. فكل شىء يأخذ الآن طابعاً عبثياً. ومراجعة الأحداث على ضوء ما قاله دونالد لا يزيدها إلا تعقيداً. أردت بعد أن عدت إلى دارى، أن أصرف ذهنى عن التفكير فى ليندا ودونالد وعلاقات الحب والعبث والخديعة، وأعتبر أن كل مامضى صفحة طويت وانتهى زمانها، لأن هناك أعمالا أخرى أكثر إلحاحاً وأهمية تنتظرنى. لكننى لم أستطع، صرت أعرف الآن على وجه اليقين أن هذا الطفل الذى أنكرت ليندا نسبته لى، إنما هو طفلى. بذرة أنا صاحبها وزارعها. فكرت أن أذهب إليها مسلحاً بهذه المعارف الجديدة، وأسألها لماذا خدعتنى، وأخفت عنى حقيقة الدوافع وراء صعودها إلى غرفتى. تصورت حديثاً يدور بينى وبينها، تشرح فيه موقفها، فأجدها مبرأة من كل التهم. إنها لم تجزم بأبوتى للطفل لأنها لم تشأ أن تشركنى فى مسؤولية تعرف أننى لا أقدر، نتيجة اغترابى وإقامتى المؤقتة فى هذه البلاد، على حملها. أما عجز دونالد، فكيف

أطالبها أن تخبرنى به؟ إنها ليست شريرة إلى حد أن تـؤذى الرجل وتفضح سره. وهى لم تبادر بالإساءة إلـى علاقتنـا، وإنما أنا الذى فعلت ذلك. كانت صادقة فى حبها. لى. راغبة فى أن تستمر علاقتنا بعد أن تحررت من ارتباطها الزوجى. إلى أن رأتنى أختار عليها امرأة أخرى. فحملـت كرامتهـا الجريحة وخرجت من حياتى.

أدرك وأنا أتمدد فى ظلام الغرفة، ألتمس لها الأعـذار وألوم نفسى، أننى ما زلت ضعيفاً أمامها، لا أقوى على تبرئة نفسى مما ارتكبته فى حقها. إن ما تصورته من كلام علـى لسانها لا يقدم تفسيراً كاملاً لما حدث، ولكننى لا أجد مـيلاً لإدانتها. ربما لأننى لا أطيق أن أتصور بأن المرأة الوحيـدة التى أحبتنى، من بين كل من أحببت من نساء، هى أيضاً لـم تكن تحبنى حباً صافياً. وكأن بى شيئاً ناقصاً فـى تكـوينى يجعلنى إنساناً منذوراً لصحارى القلب والعاطفـة. أريـد أن أطرد صورتها من ذهنى، فلا أقدر. والسلام الذى كنت أنشده لأكتب بحثى، بددته هذه الزيارة التى لا معنى لها، إلى حـد البحارة. صممت على أن أتدبر تذكرة سفر وأنتزع لنفسـى إجازة أقضيها بعيداً عن هذه المدينة. ولكن ساندرا اعترضت

طريقى. كانت تستعير كتاباً، عندما وصلت إلى بهو المكتبة. رأيتها ولم ترنى. وقفت دقيقة أفكر فيما إذا كنت حقاً أريد أن أجدد صلتى بها. إننى غالباً ما أجد نفسى مكتفياً بكتبى أثنـاء النهار ولا أحس بحاجة إلى مصاحبة أحـد إلاعنـدما تـأتى الساعة التاسعة وأخرج إلى الشارع باحثاً عن صاحب أبادله الحديث فلا أجده. ولكى أضمن لنفسى إنساناً أواعـده لـيلاً ذهبت إليها. ودون أن أبادرها بالكلام، تناولت الكتاب الـذى وضعته أمامها وهى بانتظار الانتهاء من إجراءات الإعارة. كان الكتاب رواية جون فاولز »جامع الفراشات«. قلت لهـا وهى تنظر باندهاش إلى اليد التى امتدت تسحب الكتاب:

- ما الذى يعجبك فى قصة تتحدث عن رجل غريـب الأطوار يختطف امرأة ويسجنها فى بيته؟

تفرستنى بنظرة استغراب قبل أن ترد ضاحكة :

- إذن فهو أنت. إنك لا تحتـاج إلـى قـراءة هـذه القصص. لأن هذا ما تفعلونه فى الشرق مع نسائكم كل يوم. ظننتك تقضى عطلة الصيف فى بلادك.

- وهل لا بد أن أتعذب هنا بشتائكم اللعين، ثم أذهـب إلى بلادى لأتعذب بصيف "أكثر لعنة؟ أليس من حقى بعد هذا

الشتاء المرعب أن أحصل على صيف أقل رعباً؟ وأنت مـا الذى أبقاك؟

- وماذا أفعل إذا كانت أدنبره هى مدينتى؟

- أعرف أنك تسكنين مثل الأغراب، بيوت الطلبة.

- لم أعد طفلة أحتاج إلى الرعاية العائلية.

قالت عندما انتقلنا إلى مقصف المكتبة:

- حاولت الاتصال بك ولكن هاتفك لا يجيب.

- سبق أن أخبرتك بطبيعتى البدويـة التـى تـرفض الإقامة فى مكان واحد.

- وأين نصبت خيمتك هذه المرة؟

- أردت أن أكون قريباً من المكتبة فاخترت الإقامـة ببيت الطلبة المحاذى لها.

- إننى أيضاً أسكن هناك.

- وكيف لم ألتق بك إلا الآن؟

- لأننى سافرت. وجدت كل النـاس الـذين أعـرفهم يتركون المدينة فذهبت إلى أقرب وكالة سفر وحجزت مكاناً فى رحلة جماعية إلى جزيرة يونانية، حيـث أحرقـت كـل مدخراتى ورجعت.

- إذن فأنت لا تمانعين إذا وجدت رجلاً شهماً يدعوك إلى كأس هذا المساء.

- شكراً للسماء، لأن عصر الفرسان لم ينته من الدنيا.

- وهل سألت عنى بدافع الشوق أم بدافع آخر؟

- بدافع الشوق لعطيل. لأننى فكرت أن نضيف مقاطع أخرى إلى ذلك المشهد ونشترك به فى مهرجان أدنبره الذى يقام نهاية الصيف.

- اشكرى ا الذى أنجاك من الموت خنقاً فى المـرة الماضية، فلا حاجة بك للمجازفة مرة أخرى.

- لقد كان مشهداً ناجحاً.

- ليتنى أستطيع، ولكننى لا أملك وقتاً لذلك.

اتفقنا على لقاء فى المساء. انتظرتهـا فـى غرفتـى، وذهبنا معاً إلى حانة العناقيد. أبلغتنى أن هذه الغرفة كانـت مسكناً لرجل عجوز من العاملين بحراسـة المكتبـة. فاجـأه الأجل وهو يقيم بمفرده فلم ينتبه أحد إلى موته إلا بعد أربعة أيام، وأن رائحة الموت ظلت عالقة بها لأيام بعد ذلك. فكان كل من يستأجرها يهرب منها. حتى بعد أن زالت الرائحـة

وجاء من يسكنها لم يمكث بها إلا مدة قصيرة وتخلى عنها لأنه كان يرى شبحاً يظهر أثناء الليل.

- هذا يشرح السهولة التى حصلت بها على هذه الغرفة. ورغم أننى لم أتشرف حتى الآن بمقابلة هذا الشبح، فإنه لا شك سيزورنى ابتداء من هذه الليلة. سامحك ا . أما كان اك أن تحتفظى بهذه المعلومات لكى أهنأ فى نومى؟

- ظننت أن رجلاً يقيم فى الخرافة مثلك، يحب هذه الأشياء.

- إننى لا أقيم فى الخرافة وإن كنت أحتفى بالخيال وأحب معاشرة أهله، فهم أكثر لطفاً من البشر الحقيقيين.

- أنت الذى أعطيتنى الانطباع بأن بيتك الحقيقى ينتمى إلى عوالم وعصور شهر زاد.

- الاحتفال بالخيال ليس انتماء لعصر آخر أو عالم آخر. إنه انتماء لعالمنا، وما الخيال إلا جزء من وجودنا. ولعله شاعركم وليم بليك، الذى يقول، إننا نجد فى الخيال حياة حقيقية، أكثر واقعية، مما يسميه الناس العالم الحقيقى. فما وجه الغرابة فى ذلك؟

- هناك دائماً الصورة التى نريد أن يعرفها الناس عنا، وهناك الأصل الذى نحتفظ به لأنفسنا. إنك تبالغ أحياناً فـى وضع الطلاء على الصورة. هذا كل مأخذى عليك.

- ولماذا لا تقولين، إن هناك الصورة التى يحب الناس رؤيتنا بها. والحكم من خلالها علينا، كما تفعلين الآن. وهناك الأصل الذى يتوهون عنه. هناك الإنسان الذى رسموه لنا فى أذهانهم منذ أول انطباع، وهناك الإنسـان الحقيقـى الـذى يرفضون التعرف عليه. إننى بمثل ما أريد أن أعرف ساندرا الحقيقية، فأنا أدعوك صادقاً إلى معرفتى معرفة حقيقية.

- إن كنت واثقاً من معرفتك بنفسك، فدعنى أصارحك بأننى لا أعرف ساندرا الحقيقية. وكثيراً ما أقوم بأفعال أفاجأ بها، وكأنها صادرة عن إنسان أجهل كل شىء عنه.

- ها أنت تعترفين بأن النفس البشرية أكثر تعقيداً من وضعها فى إطار كما نفعل باللوحات والصور الشمسية.

- اعتبرته فألا طيباً عندما رأيتك تختار مظهراً بسيطاً لغرفتك الجديدة.

- إنها غرفة عارية، لا تنتمى إلى شىء ولا توحى بأن هناك إنساناً يسكنها. لا شخصية لهـا ولا لـون ولا نكهـة. غرفة جديرة بأن تسكنها الأشباح.

- هل صدقت بأن هناك شبحاً فى الغرفة.

- ولماذا لا أصدق؟ إننى لا أنكر وجود الأشباح.

- أما أنا فأنكره، طالما أننى لم أرها.

- تعالى معى هذه الليلة إلى غرفتى وسـترينها بـإذن ا .

اقترحت عليها أن ننسى حديث الأشباح، وأن ننتقل إلى تناول العشاء بمطعم صغير افتتح حـديثاً لتقـديم الأطعمـة المصرية. مطعم نظيف ورخيص ويقـدم ألوانـه الشـعبية مصحوبة بأطباق من الدعابة المصرية. حذرتها بأنها سـتجد طعاماً يختلف كثيراً عن طعام الاسكتلنديين. وافقت بسـرعة على اقتراحى قائلة بأنها ترحب بـأى طعـام غيـر الخبـز والجبن، فهى منذ أن ذهبت فى هذه الرحلـة التـى انهكـت مواردها لم تأكل طعاماً ساخناً. وعندما قلت لها بأنها تستطيع أن تجد طعاماً ساخناً فى بيت أهلها، هزت كتفيها باسـتهتار قائلة بأنها قطعت علاقتها بهم منذ أكثر من عـامين. أرادوا

معاملتها مثل طفلة قاصرة، فسعت للحصـول علـى منحـة دراسية وتركت لهم البيت. ولكن الطعام الفقير لم ينقص شيئاً من بهجة هذه الملامح وتورد هذه الوجه، الذى لم تزده شمس اليونان إلا توهجاً واشتعالاً. تكدس الشعر الأرجوانى حـول الوجه والعنق، وتناثرت خصلاته بلا ترتيب، توحى بالفوضى الجميلة، والتمرد على القوالب الجاهزة لتسـريحات الشـعر. تمسك كأس النبيذ بالتماعاته الحمراء قريباً من فمها وتتحول إلى كائن صغير مصنوع من ألوان الشفق. فأشـتهى، وقـد غزت رأسى نشوة الشراب، ان تمتد صحبتنا هذا المساء حتى تنتهى إلى معانقة فوق سرير الليل والفرح. ولكن كيف أواجه هذه الحدود التى رسمتها منذ البداية لعلاقتنا، وهذه المسـاحة البيضاء، التى أصرت على أن تبقى بلا غرس ولا عمـران، تفصل بيننا، إنها هى التى جاءت هذه المرة تبحـث عنـى. ولكن كشريك فى العمل وليس كصاحب يهمها حضـوره أو غيابه. إننى لا أعرف شيئاً عن ارتباطاتها العاطفية أكثر مما عرفته فى الفرقة، عندما كانوا يتحدثون عن علاقة جمعتهـا ذات مرة، برجل يكبرها كثيراً فى السن، ويعمل أستاذاً بقسم اللغة الفرنسية.

خرجنا من المطعم ليستقبلنا ليل المدينة بأنسامه الرطبة، عابقاً برائحة الأشجار، ومفعماً بصوت الموسيقى القادمة من سفح الهضبة، حيث تنصب شركات البيرة الألمانية سرادقات الدعاية لإنتاجها. قلت لها، ونحن نقف بجوار السلم الحجرى الذى يهبط الى الحديقة والسرادقات:

- أنت تتحملين وزر ما ينتابنى من فزع وأنا أعود إلى غرفتى، إننى أكره الأشباح، ولا أطيق أن أبقى معها وحيداً للحظة واحدة. ولا شك أن ضميرك لن يرضى بأن تتركينى أقضى الليل بمفردى فى الغرفة.

- ولماذا تذهب إلى غرفتك وقد جاء الصيف يمنحك فرصة أن تبقى طوال الليل فى هذه الحدائق ترقص وتشرب وتسمع الغناء.

كانت الساعة تقارب منتصف الليل عندما هبطنا الدرج ودخلنا أكبر هذه السرادقات. كان أعضاء الفرقة الموسيقية يرتدون لباس القبائل الجرمانية القديمة، يغنون ويعزفون ألحانهم الشعبية وقد انتظم الناس فى حلقات الرقص. شبكت ساندرا ذراعها فى ذراعى ودفعتنى للانضمام معها إلى إحدى الحلقات. انتظرت أن يتعب هؤلاء الناس ويتوقفون عن

الرقص، ولكن الحلقة تواصل طوافها حول نفسـها، يخـرج أناس ويدخل آخرون، وساندرا بجوارى، تضـرب الهـواء بساقها أعلى من كل السيقان، وترمى بشعرها فى نزق الـى الوراء وإلى الأمام. تضحك، وتطلق الصيحات بأعلى ممـا يفعل الآخرون. انتزعتها انتزاعاً من بين الراقصين وسـألتها أن نأخذ شراباً ونمضى. وبشهية واستعجال أكملـت القـدح. وسألتنى أن أعود معها إلى الرقص.

- هل سنبقى هنا إلى الصباح؟

- لا تكن كسولاً، فالليل ما زال فى أوله.

لم يكن الليل فى أوله. ورأسى لم يعـد يطيـق هـذا الضجيج. قلت لها حانقاً:

- يمكنك البقاء، أما أنا فسأعود إلى البيت.

- إذن نلتقى غداً.

ببساطة قالت جملتها. تركتنى واقفاً، أنظر إليها ساهماً، وقدح البيرة فى يدى فارغ، وركضت تنضم إلى حلقة الرقص والصراخ. رجعت إلى غرفتى، وما أن فتحت البـاب حتـى رأيت شبح الرجل العجوز واقفاً وسط ظلام الغرفة ينتظرنى، وحوله هالة من الضوء مثل الهالة التى تحيط بالقديسين فـى

التصاوير الدينية. وقفت أنظر إليه ذاهلاً، ثم أطلقـت عليـه السلام، عندما أدركت أنه لم يكن إلا ظلاً صنعه لى مصباح السقيفة. زايلتنى الرغبة فى النوم. كنت موعوداً هذه الليلـة بامرأة لذيذة تشبه تمثالاً من الحلوى. فكيف أباحت لى نفسى أن أتركها بصحبة القبائـل الجرمانيـة، وأرجـع وحيـداً، ومهزوماً، إلى غرفتى. أردت بغشامة أهـل الصـحراء، أن أحرجها، وأستفزها، عندما أصدرت قرارى بمغادرة المكان. لكى أراها تهرول خلفى، ناسياً أنها تربت على تقاليد أخرى، وتغذت بشمس وهواء يختلفان عن شمسـى وهـوائى. مـا الضرر الذى كان سيلحقنى لو أننى تأخرت قليلاً للسهر معها، ثم عدت بها، لأستبدل بحضورها، حضور هذا الشبح الـذى أحس بأنفاسه تملأ فضاء الغرفة؟ حاولت وأنا أتمدد مؤرقاً أن أتبين عواطفى نحوها. هل ترانى أسعى إليها باعتبارها قوتـاً جنسياً أم أن عاطفة أرقى تشدنى إليها؟ كنت سعيداً وأنا أراها تنبثق فجأة أمامى وسط متاهة الصيف، ومناخ الغـبن الـذى أحاط بى، عقب زيارتى إلى دونالد. وسألتها دون حـرج أن تكون امرأتى هذه الليلة، فتركتنـى معلقـاً بـين الامتنـاع والاستجابة. فهل هى مجرد امرأة أخرى يمكـن أن تعيننـى

على مواجهة الأيام الفارغة؟ ولكننى أخدع نفسى عندما أتكلم عن عواطفى بلغة المترفين الذين تعودوا منذ بداية وعـيهم، الجلوس إلى موائد الحب يتخيرون ويتساءلون عما يعجبهم أو لا يعجبهم. كيف لا أسمى علاقة تربطنى بامرأة مثل ساندرا أو أية امرأة فى بهائها، حباً يستقطب كل المشاعر، وأنا الذى تعشقت فى صباى صـور نسـاء علـى أغلفـة المجـلات وعاشرتهن معاشرة النساء الحقيقيات. ليكن غيثاً ما جادت به السماء بعد ذاك، ولكنه لم يكن ليستطيع مهما هطل، أن يطفئ عطش البيداء التى أحملها معى. لأنه غيث يأتى بعد موعـده ويهطل فوق أرض قتل العطش أشـجارها حتـى صـارت أخشاباً، فما عاد بإمكانه أن يعيدها إلى الحياة. إننـى أحـب الواحدة منهن وكأننى أكرها، وأحقد عليها وأحملهـا وحـدها مسؤولية الأرض المحروقة فى صدرى، وما عانيتـه مـن إحساسات العار والخجل بعد كل عملية استمناء، أو مضاجعة وهمية لنساء فوق الورق. ولا بد أن مشاعر النقمـة علـى الزمن الهارب الذى سرق الأشـجار مـن أرضـى، وزرع إحساساً فاجعاً بالخديعة فى نفسى، هذه المشاعر التى تشـبه علقاً يأكل الروح، هى التى أفسدت علاقتى مع ليندا، وهـى

التى أرغمتنى هذه الليلة، على أن أرفض صحبة ساندرا، وأهرب عائداً إلى غرفة الأشباح.

أردت وأنا ألتقى بساندرا فيما بعد، أن أكون منتبهاً إلى هذا العلق الذى أنبته ميراث الحرمان. سأضع فوقه ماء وملحاً، كما تقول الوصفات الشعبية، لكى يبقى نائماً فى مراقده فلا يتسلل لإفساد هذه العلاقة. لم أكرر عليها الدعوة لقضاء الليل فى غرفتى، ولم أشأ أن أفرض عليها شيئاً لا تريده. تركتها تشعر وكأننى أكثر الناس زهداً فى معاشرتها. أذهب للسهر معها أينما ذهبت، وأبقى معها حتى تأذن بالعودة، فأذهب إلى غرفتى وتذهب إلى غرفتها. ولم تشأ ساندرا أن تنتقل بهذه العلاقة إلى أكثر من زمالة مسائية، حتى ذهب فى ظنى، أن فى حياتها رجلاً غاب عنها خلال إجازة الصيف وأرادت أن تبقى مخلصة له. ثم عرفت فى بداية الأسبوع الثالث من خروجنا معاً، أنها التقت برجل لم تكن تعرفه من قبل، ونامت فى سريره حتى الصباح. كنت أجلس معها فى مقصف المكتبة عندما رأيت رجلاً له ملامح الصينيين يتقدم منها ويعتذر بلهجة هامسة عن شىء لم أتبين ما هو. سألته ساندرا بحزم أن ينسى الموضوع. ثم أدارت

وجهها عنه، وكأنها لا تعرفه. لم أسمع مما قاله الرجل سوى إشارة إلى ليلة البارحة. لم أكن قد التقيت بها عشية الأمس أو أعرف ما حدث لها. انتظرتها قليلاً فى حانة العناقيد حسب اتفاقنا، وعندما تأخرت فى المجىء، ذهبت. رأتنى صامتاً بعد أن قطع الرجل حديثنا، فبادرت إلى توضيح ما حدث، قائلة بأنها عندما جاءت إلى الحانة بعد انصرافى، التقت بهذا الفتى الصينى وتبادلت معه بعض الكلمات. انتهى وقت الحانة فذهبت معه إلى بيت يسكنه مع عدد من زملائه وقضت الليل بصحبته. وهو يعتذر الآن لأنه كان مضطراً لأن يغادر البيت وهى لا تزال نائمة. كانت تتحدث ببساطة وعفوية، وكأنها تروى حكاية امرأة أخرى تلتقط الرجال من الحانات. ولا أدرى إذا ما كنت خالياً حقاً من مشاعر الدهشة والغضب. أو أننى نجحت فى تمرين نفسى على كبت هذه المشاعر. فقد استمعت إليها ببرود وحياد، وواصلت حديثا بدأته قبل أن يقاطعنى الرجل، حول جزء من بحثى سأعرضه اليوم على الأستاذ. وكأنه لا يهمنى كثيراً أو قليلاً أن تنام مع عابر سبيل من بلاد الصين أو بلاد الصقالبة. لعلها طلبت منه نقوداً كما

تفعل بائعات الهوى، أو لعلها نامت مع كل رفاقه فى البيت.

عادت هى إلى الموضوع:

- إنه أول رجل صينى أعاشره فى حياتى.

- سوف تحتاجين إلى عمر إضافى، إذا أردت ممارسة الجنس مع كل الأجناس.

- لا تظن بى سوءاً. إنه حادث استثنائى. كانت مجرد لحظة رأيته فيها خجولاً مرتبكاً، يضع عينيه فـى الكـأس، فأحببت وجهه الملون بالخجل. أراد أن يودعنى وينصـرف، فأخبرته أننى قادمة معه. إنك لا يمكن أن تتصـور الدهشـة التى غمرت وجهه.

- يبدو أن لبعض الأجناس حظاً معك أكثر من أجناس أخرى. فلماذا هذه التفرقة العنصرية؟

- أرأيت كيف تظلمنى. إننى أعاملك معاملة خاصـة وليس بمثل ما عاملت رجلاً راقت لى غوايته فاتخذته رفيقـاً لليلة واحدة ثم نسيته.

- عندما رأيت أنك زاهدة فى حبى، ظننـت أن لـك رجلاً تخبئينه فى دولاب ملابسك ولا تخرجينه إلا آخر الليل، تبادلينه الحب.

- ها قد صنعت لى قصة أكثر إثـارة مـن «جـامع الفراشات». وما كنت أبغى سوى أن تنضج علاقتى بك فوق نار هادئة لأنها تختلف عن علاقاتى الأخرى.

وعند نهاية النهار شكرت من كل قلبى الولد الصينى، فقد تأججت النار الهادئة، تضىء بألوان لهيبها الظـلام فـى غرفتى. لم يحدث ذلك دون تمهيد ضرورى. ففى ذات اليوم عدت للقائها مساء وتحدثنا عن الجنس. جاء الحديث بمناسبة الفصل الذى قدمته للأستاذ قبل لقائى بها، سألتنى عن محتواه فأخبرتها بأنه يتحدث عن الجنس الذى يعيد إنتاج نفسه مـن خلال النص ذاته. مـن خـلال علاقاتـه الداخليـة وبنيتـه القصصية. فألف ليلة وليلة تستعير فى بنائها الفنى، أسـلوب التناسل والإخصاب عندما تتوالد الحكايات الواحدة من رحـم الأخرى. وهكذا يأتى الجنس الذى تتحدث عنه شهرزاد فـى حكاياتها وتشهره سلاحاً تدفع به عن نفسها التهديـد اليـومى بالقتل، وفى ذلك تأكيد لجوهر الحياة الجنسية كسـلاح ضـد الموت والفناء. تعمدت أن أبالغ قليلاً، معطياً لوناً جنسياً لهذا الفصل الذى لم يكن كله تمجيداً للجنس. وعندما وصلنا بعـد هذا الحديث إلى مقر إقامتنا، لم تتجه ساندرا فى هذه المـرة

إلى الدرج الصاعد إلى غرفتها، وإنما واصلت طريقها معى، عبر السقيفة التى تقود إلـى دارى. فـى صـمت، ودون أن أسألها، جاءت ساندرا تمنحنى حبها هذه الليلة.

هكذا يجب أن تبدأ العلاقات بين المحبين. خالية مـن الأوهام والأقنعة. يباركها الصدق والوضوح، وترعاها آلهـة الفرحة والمتعة والجنس. علاقة تبدأ الآن. متحررة من كـل الالتزامات والتعهدات التى يتورط فيها الرجال والنسـاء ثـم يندمون عليها فيما بعد. إننى أشتهيها. بل أكثـر مـن ذلـك قررت أن أحبها، حباً متمرداً على غريزة الامـتلاك التـى تطالب أن يكون الحبيب احتكاراً خالصاً لنا، ومتحرراً من كل القيود التى تمنع شوق القلب لالتقاء بمغامرة جديدة. ها أنـذا أحملها بين ذراعى متخطياً بها عتبة الباب كما يفعل العرسان ليلة الدخلة. تضحك مندهشة وتسألنى لماذا أفعل ذلك، فأقول لها بأننى أفعله خوفاً من أن يكون أحد الحساد قد وضع لهـا سحراً فى عتبة الدار، يجعلها تتنكرنى فور أن تضمنا الغرفة المغلقة. لكن ساندرا لا تتنكرنى. إنها تقـودنى إلـى حـدائق الدهشة، وتضىء ليلى ببروق النشوة والفرح. أعانقها وأفرغ

هذه الشحنات من الغبطة قبلاً، أغطى بهـا وجههـا. ترفـع رأسها من بين أحضانى ضاحكة:

- جئت هنا فقط لأرى الشبح الذى وعدتنى به.

- لن يجد الشبح ليلة أفضل من هذه ليمارس طقـوس انتحاره.

نشرب كأساً، نخب محبتنا، قبل أن تتركنـى لحظـات قصيرة، كى تهتم بزينتها، وترتدى عطرها ولبـاس نومهـا، وتحضر أشرطة الموسيقى التى تحب سماعها. تعود بعـد أن أخذت حمامها، مبللة الشعر والبدن، تنضو اللباس عن الجسد الصغير الذى يسيل عذوبة وشهداً، متـورداً كـأوراق وردة تستيقظ لحظة بزوغ الشمس وتنفض عن نفسها ندى الفجـر. أرقبها باندهاش كأننى أرقب سراً من أسرار الكون يكشـف عن نفسه ورقة ورقة. ويظهر الصدر بقبتيـه الصـغيرتين، المضيئتين، المباركتين. نهدان يشتعلان بنار الذهب، ويمتلآن نزقاً وتمرداً وعنفاً، أراهما فيرتعش جسدى ويتداعى ارتجافاً وحمى. ثم أرى باقة صغيرة من زهـور الزعفـران التـى استعارت لون الشفق، تظهر فى ذلك المكان الذى بـه تبـدأ دورة الحياة، فلا أعجب أن يكون للزعفران أسـراره، التـى

تجعل فقهاء الشرق يدخلونه فى تراكيب السحر، ويجعلونه دواء للمرضى. وها هو عبير الجسد المعجون بمسك الليل، يملأ المكان ويطرد أنفاس الأشباح التى كانت تسكن هذه الغرفة. وها هو البدوى الذى كان ينام مقموعاً فى صدرى، يسرج الآن خيوله، فينطلق صهيلها، راكضة باتجاه مدينة القباب والمسك والزعفران. وها هى ساندرا تتحول إلى زهرة من نار، تشعل الحرائق فى دمى، وترينى من فنون الحب ألواناً لم أعرفها من قبل. إننى لا أسعى فى الجنس إلى متعة أكثر من متعة الممارسة الأولى، حيث أكتفى بما تحدثه فى جسدى من خدر لذيذ، ولذلك فإنه ما أن وصل العناق بين الشراشف ذروته القصوى، حتى استلقيت بجوارها مثقلاً بالإجهاد والنشوة. أدخن باستمتاع لفافة تبغ أخذتها من علبتها. وجدتها تداعب بأصابعها شعراً قليلاً نابتاً على صدرى فأخذت يدها أتأمل أصابعها النحيفة المقصوصة الأظافر. لم تكن هذه المرة تضع طلاء فوق أظافرها، ولكن الدم الذى تدفق فى رؤوس الأصابع، منح الأظافر لوناً كأنه الطلاء الأحمر. احتفظت بيدى فى يدها، مرتاحاً إلى نعومة ملمسها وقد جاء النعاس يداعب أجفانى. عادت ساندرا إلى إثارتى.

وضعت فى جهاز التسجيل أغنية من أغانى الجنس كانت قد أحضرتها من غرفتها، وصارت تغمر صدرى بقبلاتها وتحتوينى بذراعيها وتداعب عنقى وظهرى بأظافرها. تتأوه وتتنهد وتمرغ جسدها بجسدى، وتطلق شهقات تقلد بها المغنية التى تحترق شبقاً فى شريط التسجيل. تهدر فى جسمى الدماء التى بردت، وتنفر العروق التى نامت. تتفتح زهرة الشهوة، وأعود من جديد، أحضن الشفق، وأغيب فى مسك الليل وغابة الزعفران.

صارت ساندرا تنام كل ليلة معى، وتنتشر حديقة ورد وجمر فوق سريرى. أبدلت مظهر الغرفة بما يلائم ذوقها. نقلت الأثاث من مكان إلى آخر، ووضعت ستائر فوق النافذة، ومفارش من القطيفة الخضراء فوق قطعتى أثاث تحاذيان السرير، وجعلتنى أشترى رسوماً منسوخة عن لوحات سيريالية لشاجال وبيكاسو وسلفادور دالى. تكوينات ودوائر وألوان، تعطى إحساساً بالتمرد والانطلاق، وتهرب من سجن المعانى والقوالب. ملأت بها جدران الغرفة، فصارت غرفة أخرى تليق بساندرا وبهجة حضورها.

اقترحت عليها أن تترك غرفتها التى تكلفها جزءاً من منحتها الضئيلة بعد أن صارت تعيش معى. رفضت أن تتنازل عنها كما رفضت أن تأتى بزميلة جديدة تتقاسم معها الإيجار بدل الطالبة التى أنهت دراستها ورحلت. دخلت ساندرا حياتى، وتباعدت ذكرى ليندا، وكأنه مضى على فراقنا عقد من السنين. ونامت فى خاطرى ذكرى الأهل والوطن فلم أوقظها. غطست مع ساندرا فى لجة النزق والعشق والسهر. رأيت سهماً موشوماً على صفحة فخذها، صغيراً داكن الاخضرار، يشير إلى باقة الزعفران، وفوقه أحرف منقوشة وموصولة ببعضها البعض، تقول كلاماً غامضاً كغموض التعاويذ السحرية. تفاءلت خيراً بهذه التعويذة، واتفقت معها أن نعيش شهر عسل كما يعيشه العرسان الجدد، نبقى معاً فلا نفترق خلال هذا الشهر ليلة واحدة. سألتها ألا تخوننى قبل مرور ثلاثين يوماً. وافقت ساندرا على المبدأ، واعترضت على كلمة »خيانة« لأنه لا مكان لهذه الكلمة فى قاموس علاقتنا. ولكنها لم تحافظ على وعدها. قبل نهاية الشهر بأسبوع واحد، بدأ مهرجان ادنبره للفنون. حصلت ساندرا على بطاقة لحضور حفل الافتتاح،

وذهبت بمفردها إليه. انتظرت أثناء الليل عودتها، فلم تعـد. قلت لها عندما جاءت صباحاً:

- لا تقولى بأنك لم تنقضى العهد الذى بيننا.

- سأعترف لك وستعذرننى عندما أخبـرك مـع مـن قضيت الليل.

وذكرت اسم مطرب من فرق الموسيقى الدارجة، تملأ تصاويره حيطان المدينة. كان واحداً من نجوم حفل الافتتاح. ذهبت ساندرا فى نهاية الحفل تطلب توقيعه للـذكرى. قـال يغازلها بأن لها فماً جميلاً، فقررت أن تتخلى عـن الوفـاء بوعدها لى، وتمنحه بدلاً من فمها، جسمها كله. أكملت قائلة:

- إنه مهووس بى، ويريدنى أن أصحبه فى رحلاتـه حول العالم.

- أسرعى قبل أن تخطفه امرأة أخرى، ويضيع منـك العالم.

- انتهى أمره بالنسبة لى. إننى كماء النهـر الـذى لا يسبح فيه الإنسان مرتين. فأنا لا أحتفظ بعلاقة ثابتة إلا مـع عطيل.

قلت لها بأنها ستكون ملهمتى لكتابة مسـرحية جديـدة حول عطيل. وبمثل ما فعل الكتاب الذين استعاروا شخصيات شكسبير وأعادوا صياغتها فى قالب عصرى، فسـأفعل ذات الشىء مع عطيل. سأجعله يتحرق شوقاً للقاء ديدمونـة مـن أجل أن تروى له كل مرة قصتها مع الرجل الذى نامت معه فى الليلة الماضية. وسيصبح عطيل الذى كان عنواناً للغيرة، مثالاً للرجل المتسامح فى عصر التحرر وانعتـاق النسـاء. وتتحول المأساة التى أبكت الناس جيلاً وراء جيـل، ملهـاة تفرح القلوب.

انتهى شهر العسل. ولكن مهرجان أدنبره جاء يمـنح المدينة عرساً يدوم لمدة أسـبوعين. جـو احتفـالى يغمـر الشوارع والحدائق والميادين ليلاً ونهاراً. وفرق فنية جـاءت من مختلف بلاد الدنيا ومعها توافدت حشود من السـواح لا تقوى فنادق المدنية على استيعابها. واختراقاً لقوانين الجامعة قامت ساندرا بتأجير غرفتها لأعضاء فرقة موسـيقية مـن أمريكا، لمدة أسبوع. وجاءت تخبرنى بأن أعضـاء الفرقـة يدعوننا لحضور حفل يقدمونه بإحدى الكنائس التى تحولـت قاعاتها إلى مسارح. كانوا فرقة من ثلاث نساء وثلاثة رجال،

يتخصصون فى تقديم أغانى الريف الأمريكى. أقبل جمهـور كبير لرؤيتهم بعد أن صار هذا اللون طعاماً للإذاعات المرئية والمسموعة. انتهى الحفل فعدنا بصحبتهم إلى الغرفة. لم تكن الغرفة تتسع لهم، فأسندوا السريرين إلى الحائط، ووضـعوا البطاطين والشراشف والوسائد فوق البساط، وصنعوا مساحة تكفى لنومهم بمثل ما تتسع لآلاتهم الموسيقية. بقينـا للسـهر معهم، وجلسنا فوق الأرض متلاصقين وأمامنا زجاجتان من النبيذ. لم يكن فى الغرفة ما يكفى مـن الكـؤوس، فـذهبت لإحضار كؤوس من غرفتى. كما أحضرت منهـا زجـاجتى نبيذ، بعد أن رأيت نبيذهم ضئيلاً لا يكفى لإحياء سهرة تضم ثمانية أشخاص. ولكن أحد أعضاء الفرقة أخرج قالبـاً مـن الحشيش بحجم علبة الكبريت، وجاء بغليون له مبسم طويل. خلط الحشيش بالتبغ ثم ملأ الغليون وأشعله، وبـدأت جلسـة التخدير والدخان الأبيض. أدركت عندها السبب فـى نـدرة الشراب، الذى ترك مكانه هذه الليلة لنوع آخر مـن أنـواع الكيف. كنت أريد أن أحتفظ بولائى للكأس فهو "أكثر أمانـاً. ولكننى لم أشأ أن أكون نشازاً، فشـاركتهم التـدخين. جـاء دورى لوضع الغليون فى فمى. أخذت أنفاساً سريعة متقطعة،

وأجهدت نفسى فى ارتشاف الدخان. كادت نار الغليـون أن تنطفئ، فدفعت به إلى ساندرا التى كانت بجوارى. ارتشـفت جرعة نبيذ أزيل بها الاحتراق الذى أصاب حلقى. فلم يزدنى النبيذ إلا احتراقاً. أبدت ساندرا براعة فى التدخين. وضـعت يدها فوق حجرة النار، وسحبت نفساً طويلاً وعميقـاً حتـى عادت النار للاشتعال. أرسلت من فمها دفعـة كبيـرة مـن الدخان، وعادت تغمض عينيها وتطبق شفتيها وهى تمـتص الغليون كأنها تمتص ضرعاً مفعماً برحيـق الحيـاة. أخـذ قائدهم، ذو اللحية المدببة والشارب المغولى، قيثارته، يعزف عليها لحناً سريع الإيقاع. والآخرون يرددون معـه الغنـاء. امتلأت الغرفة بسحب الدخان، والغليون يطوف بيننا، وأبخرة الحشيش تغمرنا بالخدر والانتشاء. انتهى ما أحسست به مـن ضيق فى بداية الجلسة. وشعرت بجسدى خفيفاً، قادراً علـى التحليق فى الفضاء، برغم أنى لم أكن أقوى على الوقـوف. اقترحت على صاحب القيثارة أن يعزف لنا أغنية »غرباء فى الليل« فهى تليق بنا. كنت أحفظ بعض مقاطعها فغنيتها معـه وأنا أتمايل فاقد الوعى. رأيت كل واحد مـنهم يقبـل فتاتـه فأخذت ساندرا إلى حضنى، أتبادل معها القبلات. طال السهر

ونفد النبيذ، فى حين بقى الغليون دائراً، عامراً، لا ينضب ولا ينفد. ولا أدرى لماذا بدأ الجميع يتحـررون مـن ملابسـهم وكأنها صارت عبئاً ثقيلاً لا تقوى على حمله الأبدان. كـان طقساً جماعياً شاركت فيه وكأننى مساق بقوة منومة. تـرك كل واحد منهم فتاته، وانتقل إلى المرأة التى تجلـس بجـوار صاحبه، يعانقها ويقبلها ويتصارع فوق الأرض معها. كـان عازف القيثارة قد اختار ساندرا ليرتمى عارياً يعانقها. ظلت فتاته تضع وجهها فى وجهى وتنظر لـى بعينـين أثقلهمـا الحشيش. زحفت نحوى بنهدين كبيرين، وفم يتأهب للتقبيـل. أطبقت بفمى على فمها واندمجت ملامـح وجهـى بملامـح وجهها. كانت امرأة قوية البناء، سامقة القامة. صنعنا لجسدينا حيزاً وارتمينا بجوار الآخرين وقد اشتبكت الاذرع والسيقان والشفاه. تحولت الغرفة إلى حقل من الأطـراف والأعضـاء العارية التى تغطيها أبخرة الحشيش. كتلة معجونة من اللحـم البشرى، تصنع مشهداً أشبه بلوحة رسام سـيريالى، وسـط عاصفة من الآهات والتنهدات والأنفاس اللاهثة، وأصـوات القبلات، واحتكاك الأجساد بالأجساد. لـم أكـن أعـرف أن الحشيش يطيل عمر اللحظة الجنسية. فقد استمرت التأوهات

تتصاعد وتعزف موسيقى الشبق والاشتهاء. وكنت وأنا أعانق المرأة التى معى، كثيراً ما أجد ساقاً غير ساقها ارتمى فوقى، أو نهد امرأة يوخزنى، أو ذراعاً امتد بينـى وبينهـا. أدفـع الساق أو الفخذ أو الذراع أو النهد عنى، وأواصـل عنـاقى لاهثاً، راكضاً، أرشح عرقاً، واحترق شبقاً. والغرفة تحولت إلى ساحة لعربات اللذة التى انطلقت جيادها تركض وتلهـث وتصهل كأن جيشاً يطاردها. ولحظة الشبق القصوى لا تأتى. والتأوهات تتحول إلى صراخ. صراخ حقيقى. وكـأن فعـل الحب صار طعناً بالخناجر. صرخات تنطلق فى وقت واحد من كل نساء السهرة. كأنهن أوركسترا تعـزف لحنـاً بلـغ مرحلة »الكريشيندو«. ثم تدريجياً، بدأت الصرخات تخفـت وتتراجع، والأنفاس تتلاحق، سريعة، لاهثة، ملتاعة. ثم خمد كل شىء، وارتمت الأجساد فوق الأرض كالذبائح.

كنت أريد أن أذهب لأنام فى غرفتـى. ولكننـى لـم أستطع أن أرفع جسمى من فوق الأرض. رأيـت الآخـرين يستغرقون فى النوم وهم على أوضاعهم تلك، فأسلمت نفسى للنوم مثلهم، غير عابئ بالذراع التى ارتمت فوق صدرى، أو

الساق التى ارتمت فوق ساقى، أو السوائل اللزجة ورائحتهـا الزنخة التى تملأ المكان.

فى المساء الموالى، جاءت ساندرا تسألنى أن نـذهب لمشاهدة الحفل الذى يقيمه أعضاء الفرقة، فربما نعاود السهر معهم.

- كنت أسمع عن مثل هذه الحفلات، وكـان جسـمى ينتفض استنكاراً لها، فإذا بك تجعليننى طرفاً فيها.

- كنت مشاركاً فيها ومستمتعاً بها، فلا تقل شيئاً يفضح شخصيتك المزدوجة التى توافق على شىء بالليـل وتنكـره بالنهار.

- إننى لا أنكر أننى استمتعت بها.

- وما وجه الاعتراض إذن؟

- وجه الاعتراض أن هناك نواميس اقتضت الإنسـان زمناً يوازى عمره فوق الأرض. حتى وصل إليها. وعنـدما نعبث بهذه النواميس من أجل المتعة، فإن التدرج الحضارى كله يصبح أضحوكة.

- ما أكثر استخدامك للكلمات الكبيرة التى تخفى بهـا زيف منطقك. فليصبح تدرجك الحضارى أضحوكة. إذا كان هذا يمنحنا قدراً أكبر من السعادة.

- السعادة شىء آخر.

- اختف كيفما تشاء خلف العبارات الغامضة. أما أنـا فلا أعرف سعادة غير تلك التى نرتوى منها بحواسنا. وليلـة البارحة كانت كل الحواس قد وجدت ارتواءها.

- إننى لا أستطيع أن أفعل شيئاً كهـذا وأنـا مـتحكم بقواى العقلية.

- وكم تحتاج إلى دورة مـن دورات الغليـون حتـى تتحرر من هذا القيد ؟.

- لنقل اننى لا أستطيع أن أراك أمامى، تصرخين بين أحضان رجل له ملامح التتار.

- كانت هناك امرأة أشبه بالمحاربات الأمازونيـات، ولها حجم أضعاف حجمى ثلاث مرات، تصرخ بين يديك.

- كنت غائباً عن الوعى.

- كنت تمارس وعيك الحقيقى المـدفون تحـت هـذه القشرة التى صنعتها العادة. كنت تمارس وعياً أكثر صـدقاً

من وعيك الذى تتكلم به الآن. فتوقف عن لعبة الخداع التـى تلعبها مع نفسك.

كنت صادقاً فى التعبير عن نفورى من الـدخول فـى تجربة كهذه مرة أخرى. إن مرة واحـدة تكفـى لإرضـاء فضولى مدى الحياة. فأنا لا أستطيع أن أقفز فوق كل الجسور التى صنعتها قيم ومفاهيم وقناعات، وأجعل من هذه الحفلـة التى كانت صلاة خالصة لإله الجنس، وكفراً بالآلهة الأخرى، شيئاً أتشوق إليه. جاءت حفلة البارحة، بشكلها العفوى وفـى لحظة غياب عن الوعى، ودون سابق تصميم، فكان طبيعيـاً بعد ذلك أن أجد مبرراً يعفينى من المسؤولية. أما أن أذهـب إليها متعمداً، كما تريد ساندرا، فهذا ما لا أقوى عليه. إنهـا تشتاق إلى ليلة أخرى من الإثارة، والجنس المغمـوس فـى الدخان الأبيض. ذلك سلوك لا يفاجئنى، فقد صرت أعـرف شيئاً عن هذا الشوق الذى لا ينضب لاختبار الحياة والارتواء من كل الينابيع. شهية مفتوحة للسـهر والـرقص والحـب والجنس والشراب والطعام والتـدخين والنقـاش والتمثيـل والقراءة. كل المتع مباحة، وكل شىء تمارسه تقبـل عليـه باندفاع وحرارة، تمنحه نفسها كاملة. حتى طبق الفاصـولياء

فى المطعم المصرى، يصبح وهى تتناوله أشهى وأثمن طبق فى الدنيا، كأنها كانت صائمة عن الطعام شهراً كاملاً. لم أتأمل كيف كان شعورى وأنا أراها البارحة تمارس الجنس مع عازف القيثارة. ظلت وحدها تطلق صرخاتها اللذيذة بعد أن سكتت بقية النساء، ولم أكن مستفزاً. كانت اللعبة عادلة، وكنت ثملاً. منتشياً ومبهوراً بثراء ودسامة الجسد الأنثوى الجديد الذى ألتقى به لأول وآخر مرة. الآن فقط أستطيع أن أعرف لماذا لا تنام ساندرا مع عشاقها الطارئين إلا مرة واحدة. إن للمرة الأولى، لهذا اللقاء الأول، والحوار الأول بين جسدين، لذة لا يمكن أن تكرر نفسها. لذة الاكتشاف، ولذة المغامرة والدهشة، التى ترافق هذا الاكتشاف. وعندما كانت ساندرا تزور جزيرة الدهشة بصحبة الرجل المغولى، وتنتظر، مصعوقة، صارخة، شبقاً يمتنع عن التحقيق، كنت أنا مشغولاً بمغالبة تلك المرأة الأمريكية ذات الجسم العارم كالسيل. لا شك أن هذا المغنى، قد اختارها صاحبة له، من بين آلاف النساء اللاتى يحترفن غواية المطربين والعازفين. وفى حين كانت ساندرا جسداً صغيراً لذيذاً، يسهل طيه وتطويقه. كانت امرأة الغناء الريفى الأمريكى، بقامتها

الفارهة، وغزارة شعرها الأسود، وفخامة صدرها، واكتنـاز شفتيها، أشبه بالموجة التى تداهمنى، فتغرقنـى وتطـوينى. أرتفع معها وأنخفض. أغطس حتى أفقد أنفاسى، وأطفو ثانية فوق اللجة العالية. لم أكن قد تعرفت إلى اسمها، أو سـمعتها تنطق اسمى. لم أكن قد تبادلت معها كلمة واحـدة، قبـل أو أثناء أو بعد ممارسة الجنس. كل ما كنت أسـمعه منهـا، أو كانت تسمعه منى، أثناء المعانقـة، هـو تلـك الهمهمـات والشهقات التى كانت لغة الإنسان فى أول مراحل وجـوده، قبل أن يكتشف اللغة أو يعرف الكلام. غرباء التقينا، فتبادلنا المتعة، وغرباء افترقنا. جسدان التقيا، وسط كتلة من الأجساد العارية الأخرى، لقاء الغريزة والشهوة، واختبرا كيف يعـود الإنسان إلى عناصره الأولى، القريبة من الأرض والطبيعة، حتى يتساوى مع كائنات الغابة وبقية المخلوقات فى المملكـة الحيوانية. مزقنا الرداء الحضارى، وعبثنا به للحظة قصيرة، كانت انفلاتا من مدارات وخطوط عرض وطول، عشنا دائماً مشدودين إليها. ثم انتهت اللحظة، ليعود كل واحد إلى مداره، يرتدى ثيابه ويدخل فى قشرته الحضارية. أعود أنا إلى كتبى وأوراقى، وتعود هى إلى غنائها الريفـى، داخـل قاعـات

الكنائس الاسكتلندية. هكذا يجب أن تنتهى اللحظة، لتبقى بعد ذلك نقطة فى الذاكرة، سوف يفسدها التكرار ويقضى على بكارة البهجة التى تصاحبها.

تركنا فكرة الذهاب إلى الفرقة الأمريكية، ومضينا نتجول بين معارض الكتب والرسوم والزهور، ونتنقل بين الفرق الموسيقية وفرق الفنون الشعبية التى اختارت أن تقدم عروضها فى الحدائق والميادين. ونتحول إلى جزء من هذا المشهد الذى يضم بشراً أسقطوا من حسابهم كل النشرات التى تبثها الإذاعات عن أخبار الكوارث والحروب والصراعات والمجاعات. أداروا لها ظهورهم، يستقبلون مهرجان الفنون بأفراحه وألوانه وأضوائه. اختتمنا سهرتنا بمشاهدة مسرحية عن »ميدوزا« التى تنمو فوق شعرها الأفاعى، ويتحول كل إنسان تنظر إليه إلى حجر. كانت مسرحية فكاهية، أثارت شهيتى للضحك واللعب، ورأيت أن لساندرا شعراً يشبه قفة من الأفاعى الحمراء، فأطلقت عليها اسم »ميدوزا«. اشتعلت غيظاً منى، ورفعت قبضتها الصغيرة تضربنى على صدرى، هربت منها راكضاً، وهى تركض ورائى، نضيف فوضى إلى فوضى الشوارع،

ونخترق ليل أدنبره العامر بالساهرين. رأينا شرطياً يلاحقنـا بنظراته، متعجبا من مشهد الرجل الذى يجرى والمرأة التـى تطارده، فلم نعبأ به. كانت الساعة تقارب الثانية عندما وصلنا إلى دارنا منهكين. ذهبت ساندرا تتنصت على سكان غرفتها. لم تسمع لهم عزفاً ولم يصدر عنهم صوتاً، فعادت لتنام. ولا أدرى لماذا وأنا بين النوم واليقظة، رأيـت مشـهد المدينـة القديمة التى عرفتها فى طفولتى، ينبثق فى ظـلام الغرفـة. بيوت تآكلت حيطانها، وتقشر طلاؤهـا، وفقـدت الأبـواب والشبابيك والجـدران انتماءهـا لأى لـون سـوى الصـدأ والرطوبة. ومع ذلك فهى تكتظ بالعوائل التى تـأوى إليهـا. أطياف ورؤى لأصحاب وأهل وجيـران، يسـتيقظون فـى ذاكرتى، وينظرون من خـلال الأبـواب والنوافـذ نحـوى باندهاش واستنكار، وكأننى اقترفت فى حقهم إثماً. تـذكرت عندما جلست فى السرير أفرك عينى، وأطرد منهمـا هـذه الرؤى التى أقلقت نومى، إن زمناً طـويلاً تقضـى، دون أن أهاتف "أحداً من أهلى. إنهم لا يعرفون لى هاتفاً أو عنوانـاً بعد أن تركت البيت القديم. ولا بد أنهم قلقون مـن أجلـى. عرفت عندما جاء الصباح وهاتفت أخى، أنه انتظر خلال هذا

الصيف عودتى، ولأنه لم يجد سبيلاً للاتصال بى أو يتلقـى خبراً منى، قرر أن يأتى إلى هذه المدينة، باحثاً عنى. وهو لم يكن ينتظر إلا إكمال شهر الصوم لكى يسافر. لم أكن أعرف أن شهر الصيام قد بدأ وهو يكاد ينتهى. وان أياماً عشرة هى التى تفصلنا عن العيد. أحسست بالخجل وأنا أقـول لأخـى مجاملاً بأننى أصوم الشهر دون مشقة. أقفلت السماعة غاضباً من نفسى. لأننى نسيت كل شىء عن هذا الشهر الذى تعودت دائماً أن أصومه. عادة نشأت عليها منـذ أن كـان والـدى يرغمنى، وأنا فى العاشرة من عمرى، على أن أصوم مثـل الكبار. تقطعت الأسباب بينى وبين شعائر وممارسات دينية، وبقى الصيام هو الشعيرة الوحيدة التى تصل علاقتى بالسماء. وكنت أقول لمن يرانى صائماً فى هذه المدن التى لا ترتفـع فى سماواتها الأهلة والمآذن، بأن هذا هو الخيط الوحيد، بعد أن تمزقت كل الخيوط الأخرى، الذى يصلنى بأهلى وأصلى وانتمائى وجذورى، ولا سبيل إلى التفريط فيه. وها أنـا قـد مزقت هذا الخيط لأطفو ضائعاً فى فضاء لا حدود له. ولكى لا يكون ضياعى نهائياً، قررت أن أصوم الأيام الباقيات.

- ها هو رجل العنف والجنس يرتدى الآن قلنسوة رجل الدين. يجب أن أزداد اعتزازاً بنفسى لأننى أغويت راهباً.

كيف أستطيع أن أشرح لها ما عانيته من شقاء، حتى تحررت من سطوة ذلك الشيخ الضرير الذى كان يعلمنى الدين بجامع الباشا، ومن تعاليم الأب الذى كان يحمل سوطاً ويرغم طفلاً دون العاشرة، على أن يقوم قبل الفجر ليتوضأ ويذهب معه للصلاة، ومن وصايا الفقهاء والمعلمين وخطباء المساجد الذين كانوا يحملون عصياً مقطوعة من أشجار الجنة، يسوقوننى بها عبر طريق تحوم فوقه الملائكة ويمتلئ بمآذن وقباب المساجد. تحررت بعون ا من سلطتهم، وهجرت مدينة الملائكة أبحث عن مكان بين البشر. ولم يبق فى نفسى شىء من تعاليمهم، ولا أعترف لهم بأية مديونية، سوى هذه الأيام العشرة التى قررت أن أصومها، وأقدمها نذراً لهم مقابل عتقى. فهل تستكثرين ذلك عليهم؟

- إنك دائماً تريد أن تكون ما هو ليس أنت. تريد أن تكون فاسقاً وأخلاقياً. متديناً ومتحرراً من الدين. تريد أن تعيش فى العصور الوسطى والعصر الحديث، تنتمى إلى

الشرق وتنتمى الى الغرب. تضع قدماً فى الواقع، وقدماً فـى الأسطورة. وتكون النتيجة انك لست فاسقاٍ ولسـت أخلاقيـاً. لست متديناً ولست متحرراً من الدين. لا تعيش فى القـرون الوسطى ولا فى العصر الحديث. لا فـى الواقـع ولا فـى الأسطورة، ولا تنتمى إلى الشرق ولا إلى الغرب.

- إنها عشرة أيام سرعان ما تنقضى. لن تكون عبئـاً على علاقتنا، ولن تمنعنى من أن أشاركك السهر والـذهاب إلى عروض المهرجان، فلماذا تصنعين منها مشكلة؟

- إننى لا أتحدث عن الصوم. إننى أتحدث عن الدلالة التى يحملها هذا الصوم. دعوتنى لأن أعرفك، وها أنا أحاول فلا أجد سوى سديم.

انتهى المهرجان وانحسر عن المدنية ذلـك الطوفـان البشرى، فعادت ادنبره إلى بياتها الشتوى الـذى يبـدأ قبـل مجىء الشتاء. وانتهى صيامى فصنعت لساندرا عيداً صغيراً مكافأة لها على احتماله معى. دعوتها إلى عشـاء راقـص، وأهديتها شالاً حريرياً تغطى به آثار العض فى عنقها. كانت قد التقطت فى يوم سابق ولداً إيطالياً وجاءت به إلى غرفتها التى أخلاها مؤجروها. كان عاشقاً صغيراً وغشيماً، ولا يجيد

كلمة واحدة من اللغة الإنجليزية. ما أن رآها عارية حتى ارتمى فوقها، يعضها فى مواقع مختلفة من جسمها حتى أدماها. دفعته عنها، وسألته أن يرتدى ملابسه ويخرج. لم يفهم كلماتها، فألقت بملابسه إلى الخارج، وطردته عارياً من غرفتها.

أرادت أن نذهب لقضاء نزهة صغيرة فى الأراضى العالية، تمتد يومين أو ثلاثة، نهرب خلالها من رتابة المدينة، قبل أن تداهمنا السنة الدراسية الجديدة. فاستأجرنا كوخاً من إحدى الوكالات، وأخذنا خارطة تقود إليه. اشترينا ما نحتاج إليه من نبيذ ولحوم وفاكهة، وتزودنا بالماء والشموع، فهو كوخ بعيد عن الدكاكين والعمران، خالياً من الماء والكهرباء. اكترينا سيارة أجرة أقلتنا إليه ظهر الجمعة، واتفقنا مع سائقها أن يأتى لإعادتنا صباح الاثنين. كان الكوخ يتوسط منطقة خلاء فوق هضبة تحيط بها الجبال والغابات. مجرد غرفتين من الخشب إحداهما للنوم والأخرى دورة مياه بدائية. لم نر على البعد كائناً بشرياً، ولم نسمع سوى حفيف الأشجار وثرثرة الطيور قبل المغيب، وضجيج السناجب التى تتقافز فى كل مكان. طردنا السناجب من الكوخ، وقمنا بتنظيفه من

الأتربة، ونفضنا الغبار عن السرير الذى كان قطعة الأثاث الوحيدة فيه. غابت الشمس ولم تبق سوى سحب كثيرة حمراء تضىء الغابة بوهجها الأرجوانى. جمعنا حطباً، وأوقدنا ناراً، وجلسنا أمام الكوخ نشوى أسياخ اللحم، ونشرب النبيذ. نتحدث، وندير أشرطة الموسيقى، ونرقب من حولنا الظلام الذى بدأ يحط فوق الأشجار والجبال. يعيدنى مشهد البرية، والبطاح الذائبة فى العتمة، إلى مرحلة مبكرة من العمر، مرحلة لم أكن لأعيها لو لم تكن مثار أحاديث وذكريات كنت أسمعها من أهلى حتى صارت محفورة فى ذاكرتى بتفاصيلها الصغيرة، عندما كنا نرحل وراء والدى وهو يطارد رزقه ورزقنا بين الألغام. ننصب خيمتنا فى البرارى، حيث لا شىء سوى الأرض الصفراء والهضاب البعيدة العارية الجرداء، وليل لا تضيئه إلا مواقد النار ونجوم السماء. وكانت ساندرا سعيدة بهذه الرحلة التى أعادتنا إلى أمنا الطبيعة، نعيش بين أحضانها، ونرتمى فوق أعشابها، ونملأ صدورنا من هوائها الذى لم تلوثه المداخن. نرفع أبصارنا، فنرى النجوم كلها، والسماء كلها، لا مساحة بحجم الشباك كما يحدث فى المدينة. قلت لساندرا بأن هذا النوع من

الحياة ليس جديداً بالنسبة لى. لم يكن فى ذلك الوقت نزهـة عامرة بالنبيذ والشواء كما هى الآن. وإنمـا كـان صـراعاً ضارياً من أجل البقاء، ومشياً يومياً فـوق حقـول الجـوع والموت. ننصب فى المتاهة خيمتنا، ومن حولنا خيام أخرى، لعائلات جاءت مثلنا، تبحث، وسط بيادر النار وبين عـروق الألغام، عن عيشها أو موتها. كنت طفلاً، ولم أكن أستطيع أن أدرك رعب تلك الحياة، إلا بعد أن انتهت وصارت جزءاً من ميراثى الشخصى. ولأن البكاء كان زاداً يومياً يعيش عليـه أهل تلك الخيام التى تعاشر الفاجعة، فقد ذهب فى ظنـى أن البكاء ملازم للحياة. وكانت دهشتى عظيمة عنـدما انتقلنـا للإقامة بالمدينة ووجدت الناس لا يبكون كل يوم. رأيت ذلك شيئاً غريباً لا يتفق مع طبيعة الحياة كما عرفتها. كان الناس فعلاً يموتون. ومن لم يمت بالألغام مات بغيرها. ومـن لـم تسعفه الأعشاب والأحجبة والكى بالنار، فإن عليه أن يموت. لا أدرى كم عدد الأخوة الذين فقدتهم. كان الواحد منهم يموت بعد أشهر من ولادته. وكان مبدأ الانتخاب الطبيعى الذى يتيح الحياة للأقوى فى تلك البيئة الشرسة، هو البديل لحبوب منع الحمل. حسبونى أكثر من مرة فى عداد الأمـوات. كانـت

إحداها عندما استعمل الرجل الذى جاء لختانى أدوات ملوثة، فتورمت تلك القطعة من اللحم واسلمتنى إلى مـرض كـاد يقتلنى. جاءوا بالفقيه يقرأ على رأسى القرآن استعداداً لموتى، ولعل إنساناً أشار ببتر تلك القطعة إنقاذاً لبقية الجسـم مـن التسمم، ولكن البادية لم يكن بها أطباء وجراحـون يقومـون بهذه المهمة. وعندما نجوت من الموت وعدت إلى الحيـاة، كانت تلك القطعة لا تزال فى مكانها. لم ينقـذها إلا جهـل الناس وغياب الأطباء. وكانت المرة الأخرى عنـدما جـاء الطبيب الشعبى بسيخ من الحديد المحمى وطبع به رأسـى. انتفخ الرأس كله ألماً ومرضاً، وبدلاً من أن يشفينى هذا الكى من صداعى، أرسلنى إلى موت لم أعد منه إلا بفضل الدعاء والتسابيح التى ظلت أمى تتلوها، لليال طوال، بجوار مرقدى. ولا زالت آثار هذا الحرق، حتى الآن، فى رأسى.

مدت ساندرا يدها تتحسس شعرى وتفتش عـن ذلـك الأثر. أمسكت بإصبعها، ووضعته فى المكان الذى صار الآن بقعة صغيرة ملساء تحت الشعر. قلت معتذراً:

- ما كان ينبغى أن أفسد جمال هـذه الليلـة، ببـائس الذكريات.

- يجب أن تشكر السماء، لأنك نجوت صغيراً وكبيراً. فمثل هذه الطفولة لا تصنع إلا مجرماً أو مجنوناً.

تساءلت بينى وبين نفسى:

- ترى ما الذى تبقى من ذلك كله؟

لا شك أنه باق بأكمله معى. يختبئ تحت الجلـد مثـل ندبة الرأس المخبأة تحت الشعر. إرث أرحل به ويرحل بى. وإذا كانت الأشياء التى تتصل بطبيعتنا وتكويننا، تبدأ مبكراً، كما تقول الكتب، فستظل تلك الأيام الغائبـة خلـف أبخـرة الزمن، تمارس نفوذها على حياتى بأكثر مما تمارسـه أيـام الرخاء التى جاءت بعد ذلك.

بدأت النار تخبو فألقمناها مزيداً من الحطب. تعود إلى الاشتعال ونحن نرقبها وننصت لأنين أعوادهـا المحترقـة. كانت الأعراف الخضراء تصدر أنيناً أكثـر توجعـاً، فهـى تموت الآن قبل موعدها. وفى السماء سحب مضيئة تـنعكس عليها أشعة قمر لم نره، لأنه لم يظهر بعد. فى حين انحنـى قوس الأفق، يصنع خيمة للظلام. تتراقص على ضوء النـار ظلال أشجار ونباتات قريبة، فنضحك متوهمين أن الغابة تقدم عرضاً راقصاً ترحيباً بنا. قررنا أن ننـام خـارج الكـوخ.

أخرجنا المرتبة وارتمينا فوقها نمارس الحب فـى العـراء. تراقصت ألسنة النار تصنع التماعات تضىء وجه سـاندرا، فتصورت أننى أعيش فى إحدى غابات ألـف ليلـة وليلـة، السحرية، وأضاجع إحدى جنيات الغابة، مدفوعاً بقوة الغريزة فى حالتها الهمجية، الفطرية، المجيدة. قضينا اليـوم الثـانى نستكشف المناطق التى حولنا ونطوف عبر الغابة وأدغالهـا. نتأمل الغريب من نباتاتها، ونخلع أحذيتنا ونتسلق أشـجارها، ونتسابق فى الانتقال من شجرة إلى أخرى عنـدما تتشـابك الأغصان وتصنع جسراً يسهل عبوره. ثم نهبط وقد مـلأت الخدوش سيقاننا واذرعنا، لنجرى خلف الفراشـات ونحـن نطلق صيحات المحاربين حتى نصطادها، ثم نحررها مـن الأسر بعد أن نقدم لها أنفسنا، ونذكر لها أسماءنا، لكى تحفظ لنا هذا الفضل، وتشيد بذكرنا بين قومهـا. كنـت مبتهجـاً لوجودنا فى هذه البقعة الخالية من البشر وكأن العالم صـار ملكنا. إلى أن قالت ساندرا:

- إنه مكان مثالى لارتكاب الجريمة.

- لابد أن إدمانك على قراءة روايات مثل «جامع الفراشات» قد أفسدت لديك الروح الرومانسية التى يجب أن نرى بها الغابة باعتبارها وطن البراءة.

لعلها كانت تفكر بمغامر يسكن الغابات مثل روبن هود. ولكن موجة من الذعر داهمتنى وأنا أجد نفسى أفكر فيما لو أننى فعلاً وقفت الآن خلفها، وأطبقت بأصابعى بغتة على عنقها، بحيث لا أترك لها فرصة للصراخ أو طلب النجدة. نشوة وحشية غمرتنى وأنا أتمثل نفسى أقتل هذه المرأة الصغيرة المبهجة التى أحبها وأشتهيها. لن يعرف أحد بجريمتى، ولن أنظر إلى الوراء متحسراً، عندما أغادر هذه البلاد، لأننى تركتها لرجال آخرين يستمتعون بها بدلاً منى. من أين تنبثق هذه الأفكار الظلامية المعبأة بنشوة الشر والجريمة. إنها ما أن تأتى حتى تختفى، فأنا أعرف أننى لن أفعل ذلك ولكن لماذا تأتى وتقضى على ما كنت أنعم به من سلام مع نفسى. لابد أن ذلك يحدث لأننى فعلاً أحبها، وأغار عليها، وأقمع غيرتى متظاهراً بالمسلك الحضارى، إلى أن تطل هذه الأفكار برأسها، تفضح مشاعرى وتمضى. هل أقول لها الآن، إن القشرة الحضارية، هى التى أنقذتها من

موت أراده لها الرجل البدائى الذى يساكن بدنى. ولكن وحشة المكان، التى أوحت بهذه الأفكار، تبددت عندما ظهر البشر. ما أن تقدمنا قليلاً فى الغابة حتى وجدنا أطرافاً منها أعـدت للنزهة، ونصبت فيها المراجيح، وجـاء إليهـا المتنزهـون بأطفالهم وعائلاتهم وسياراتهم. وجدنا فى سفح الجبل أغنامـاً ومزارع ولافتة معلقة فوق سياج خشبى تعلن عن بيع اللحوم والألبان. دخلنا واشترينا حليباً وجبناً لإفطارنا. وجاء الليـل فأوقدنا نارنا ووضعنا أمامنا موائد الشواء والنبيذ. اقترحـت ساندرا بعد أن استهلكنا نصف الزجاجة الثانية، أن نستفيد من وجودنا فى الخلاء، ونمنح حصة من وقتنا للبكاء. فقد قرأت شيئا عن قبائل بدائية كانت تخصص يوماً فى العام لا تفعـل فيه شيئاً سوى البكاء. طرداً لما علق بالروح مـن أوجـاع، وتصريفاً لكل ما عجز الإنسان عن تصريفه مـن مشـاعر الغضب والحزن والاكتئاب. كنت فى حالة من الانتشـاء، لا أريد إفسادها بافتعال الحزن واستجلاب الـدمع الصـناعى. ولكن ساندرا لا تمنحنـى فرصـة للاعتـراض، تحيطنـى بذراعيها، وترمى رأسها فوق كتفى، وتباشر بكاءها. ترانـى لا أفعل مثلها، فترفع رأسها قائلة، بأن البكاء يليق بى أكثـر

منها، وأن الذى نشأ وسط المأتم وأحزان النساء النائحات، هو أنا وليست هى. وهازلاً وضعت رأسى بجوار رأسها وبكيت بكاء مفتعلاً لا يشبه بكاءها النازف حرقة ولوعة. ثم شيئاً فشيئاً تفتحت شهيتى للبكاء. تفجرت فى ذاكرتى طاقة هائلة من المواجع. أبخرة صنعتها أزمنة لم تعد تعيها الذاكرة، تتصاعد من أغوار بعيدة عميقة، مخبأة فى الصدر منذ بدء الخليقة، تنهمر الآن دمعاً وأسى. إحساس، غامض، فاجع، لا أدرى من أين جاء، ولا كيف جاء، يدفعنى إلى أن أبكى وأبكى. تحول البكاء إلى نواح. ونائحاً نادباً، كنت أرتعش وأنتفض وأحنى رأسى على كتفها وقد بللت الدموع وجهى كله. ونائحة كأنها فقدت هذه اللحظة، أعز إنسان لديها فى حادث فاجع، مضت هى تلطم بيديها على ظهرى وترتجف كشراع فى الريح. تنهمر العبرات منى، وكأن نبعاً خفياً مجهولاً مدفوناً خلف جبينى يرسل هذا الماء المالح الذى يصل إلى فمى، وتبقى حموضته، ومرارة طعمه المالح عالقة بلسانى. كانت الفواجع تستيقظ كالبراكين بداخلى، وتتفجر دمعاً وحزناً وانصهاراً. يخفت البكاء حتى يصير نشيجاً، ثم يعود مرة أخرى ولولة وعويلاً. طال الوقت ولكن رغبتى فى

ا لبكاء لا تنتهى. بكاء مر، لاذع، جميل، مريح، مصحوب بإحساس يشتبك فيه الألم باللذة. كأن صخرة وسط القلب تتفتت الآن وتذوب وتصير ماء. توقفت ساندرا عن البكاء، فتوقفت مثلها. أخذت مناديل الورق أمسح بها الدمع عن وجهى وأهدابى، وأنا أحس بارتياح عميق لأننى تحررت من عبء ثقيل أرهق روحى. بدا الهواء أكثر صفاء وعذوبة. والليل يشع بشفافية الغناء الصامت الذى ترسله الأشجار.

كان الطقس فى اليوم الثالث أقل اعتدالاً. امتلأت السماء منذ الصباح، بغيوم داكنات، تحولت أمطاراً فيما بعد، وألجأتنا للاحتماء بالكوخ إلى أن أشرقت الشمس.

فى الغابة فتنة نائمة لا يوقظها إلا المطر. عبير يشبه عبير القلائد المصنوعة من معجون العنبر والقرنفل والمسك التى ترتديها عرائس الريف، تنبعث من هذه الأشجار والأعشاب المغسولة بالماء. قلت لساندرا، ونحن نستمتع بنشوة هذا العبير، وبهجة الارتحال عبر بكارة الأرض، بأن روبنسون كروزو، وحى بن يقظان وأطفال جزيرة الكنز وطرزان وأبطال »روسو« و »كيبلينج«، وغيرهم من أبناء الطبيعة ومؤسسى فكر العودة إليها، لم يكونوا خيالاً صرفا،

وما أحسوه من نشوة الالتحام بالطبيعة لم يكن كذباً. فهذا ما أحس به أنا أيضاً. تصورت أن ساندرا ستعارضنى، وتذكرنى بأعمال أدبية أخرى لم تر فى الطبيعة إلا وجهها المتوحش بعنفه وشراسته. ولكنها لم تقل شيئاً. حالة من الاستغراق جعلتها زاهدة فى الكلام. مسحورة ببهاء الدروب المسقوفة بأقواس الشجر، والمليئة ببرك الماء، والتماعات أشعة الشمس عليها كأنها خناجر الضوء. تسبقنى وهى تلاحق عصفورا يتقافز أمامها. طائراً مخضباً جميلاً لا نعرف له اسماً. تمضى وراءه فاتبعها ونحن نتخاصم حول الاسم الذى سنمنحه لهذا الطائر، الذى اعتبرناه عائلة جديدة من الطيور نحن اكتشفناها. يغيب الطائر بعد أن يقودنا إلى مناطق لا نعرف كيف نعود منها. ولكننا فى النهاية نعود. نعود من الغابة إلى الكوخ. ونعود فى الصباح التالى إلى المدينة، ونحن نحس بالرضا عن هذه النزهة، التى أتاحت لنا أن نكسر طوق الحياة المكرورة المألوفة، وهيأتنا لدورة جديدة من دورات الدراسة والحياة الجامعية.

كان كل شىء فى رحاب الجامعة يوحى بأن هذه الدورة قد بدأت الآن. ازدحمت الساحات بالعائدين من إجازة

الصيف، والملتحقين حديثا بالجامعة، يصنعون مشهداً مبهجـاً لبداية العام الدراسى الجديد. لم تكن المدرجات والفصول قـد بدأت باستيعاب هذه المجاميع، فهى فترة تحضـير وتسـجيل وجداول. ولهذا فاضت بهم الأرصفة والباحـات والحـدائق المحيطة بأبنية الجامعة. يقيمون هذا الاحتفال العفوى العامر بالصخب والمرح. وكان مشـهد الصـبايا اللاتـى أكملـن دراستهن الثانوية وجئن ليبدأن حيـاة النضـج والتحصـيل الجامعى، هو أكثر المشاهد تعبيراً عن هذه الـروح. نسـاء صغيرات، رشيقات، يعبقن برائحة فجـر حـديث الـولادة. ضحك وانطلاق، وشهية للاستمتاع بمناخات الحريـة التـى تتيحها الحياة الجامعية لفتاة تغادر الآن طفولتها، كما تغـادر بيت أهلها، وتبحث عن سبيل لتحقيق ذاتها. ينشئن تجمعاتهن الاحتفالية، ويتبارين فى الأناقة وارتداء أكثر الألوان بهجـة وفرحاً. أردية كأجنحة الفراشات، وحديقة زهـور ينسـكب فوقها الشعاع الأول لشمس عام جديد. ارتعاشات نهود فـى بدء تفتحها، وضحكات لذيذة تملأ برنينها الأفنية والسـاحات. اسمع هذه الضحكات، وأرى نضارة الوجوه، ويلفحنى عطر حدائق الورد، وأستحضر عالماً جميلاً خاليـاً مـن الآفـات

والسجون والأسلحة والعصابات والحروب. أدرك أثناء ذلـك أن هذا المشهد ليس إلا مظهراً خادعاً للحياة. فما أسـرع أن يغمر الهواء الفاسد هذه الكائنات الجميلة، البريئة، لتصبح هى الأخرى جزءاً من بيئة مليئة بالعواء والدخان والصراعات.

أتحرر للحظات من شخصـيتى المتشـائمة وأسـتعيد الرغبة فى الاقتراب من عوالمهن. فاختلق المناسبات لتبـادل الأحاديث معهن، والالتقاء بعبق الحياة، ودورتهـا المتجـددة الخضراء، فى خفق هذه الصـدور وبهجـة هـذه العيـون الضاحكات.

وجدتنى ساندرا فى مقصف المكتبة أحمل سفرة فوقها فناجين الشاى وقطع الجاتوه.

- لمن تقيم هذه الحفلة الباذخة؟

أجبتها بأننى تعرفت على ثلاث طالبـات مسـتجدات. وأشرت إلى مكان جلوسهن. نظرت ساندرا باتجاه الطالبـات قائلة:

- لعلك بدأت تشتاق إلى مغامرة صغيرة مع صبية لم تعاشر فى حياتها رجلاً

أهملت تعليقها وسألتها أن تنضم إلينا. قالت وهـى لا تزال تنظر إليهن:

- أشر فقط إلى الفتاة التى تعجبك منهن، وسـأعرف كيف أرتب لك لقاء ليلياً معها، دون أن تحتاج لصرف مزيد من النقود أو إقامة مزيد من الحفلات.

رأتنى أنظر إليها ساهماً، لا أعرف ما الذى أغاظهـا، فأضافت:

- لا تتظاهر بالغباء. إننى أستطيع أن أقدم لك خدمـة لن تنساها.

- دعينا نتحرك وإلا فسيبرد هذا الشاى وأنا أستمع إلى دعابتك التى لا معنى لها.

جئت إليهن بساندرا، فوقفن لتحيتها، سعيدات بالتعرف عليها، فقد زارت فرقة الجامعة قريتهن فى جولة ريفية لتقديم مسرحية عنوانها »هبط الملاك فى بابل« وشاهدن ساندرا فى دورها الملائكى.

- هذه هى ابنة السماء، هبطت من سمائها وجاءت إلى هذا المقصف.

كنت قد تعرفت عليهن تعرفاً سريعاً، وأخبرتهن بأننى طالب دراسات عليا، وجاءت ساندرا تضيف تعريفاً آخر.

- هل قال لكن إنه يكتب رسالته عن ألف ليلة وليلـة. وهو لا يكتبها عن سندباد والبساط السحرى، وإنما عن العنف والجنس فى هذه الأسطورة.

ضحكن وهن يتبادلن النظرات. قلت متحرجاً:

- يكفى هذا، فلا تفزعيهن أكثر من ذلك.

قالت إحداهن، واسمها مادلين، ولها وجه يضىء مثـل جمر المواقد:

- صار شائعاً كثيراً استخدام هذه الرؤية العصرية فى تفسير الأساطير والنصوص القديمة.

واصلت ساندرا لعبة الغواية والاستدراج.

- وهو الذى مثل أمامى دور عطيل.

- كان مشهداً صغيراً لم يدم سوى دقائق.

- ولكنه كان مشهداً ينضح عنفاً وجنساً. وأثنت عليـه صحيفة الجامعة بأكثر مما أثنت على تمثيلى.

أردت تغيير الموضوع فسألت مادلين عن تخصصها. وعندما قالت إنها مسجلة بكلية الاقتصاد، قلت مجاملاً وأنـا أناولها طبق الجاتوه:

- هذا تخصص لا تقبل علـى دراسـته إلا العقـول الكبيرة، وإلا من يستطيع أن يستوعب هذا الصراع بين أفكار آدم سميث وكارل ماركس، الذى أقحم العالـم فـى دوامـة، تمضى القرون ولا تنتهى الدوامة.

وتدخلت ساندرا عندما شاهدت اهتمامى بالفتاة:

- إذا كان لها عقل كبير، فإن لها جمالاً يستحق قصائد الشعر، أليس كذلك؟

عندما وضعت وجهها فى وجهى، وهمست تسـألنى، لحظة انشغال البنات بطبق الجاتوه، إن كانت فتاة الاقتصـاد هى التى تعجبنى، أدركت أن حديثها لم يكـن دعابـة، وأن ساندرا تلعب لعبة لا أريد أن أكون طرفـاً فيهـا. لابـد أن البراءة البادية على وجوه الصبايا الريفيات، استفزت روحها التى تستهتر بهذا النوع من البراءة وتعتبره سذاجة وضـعفاً، وأرادت أن تقحمهن منذ الآن فى العالم الحقيقى، عالم القـوة والتلوث. أثار سلوكها قلقى، فاستأذنت عائداً إلـى المكتبـة،

منسحباً من هذه اللعبة، تاركاً على مضض هـذه الصـحبة الجميلة.

كانت أغنية مرحة تلك التى سمعتها قادمة من غرفتى وأنا أعود إليها ليلاً. فتحت الباب فوجدت أن ساندرا جـاءت معها بالصبايا إلى الغرفة. أحضرت لهـن فطـائر السـمك، وفتحت زجاجة النبيذ، وأدارت جهاز التسجيل على آخـره، تستمع معهن إلى أغنية » ليس هناك من الحـب مـا يكفـى الجميع«.

- دعوتهن إلى حفلة صغيرة هذه الليلة لأبرهن لهن أن ادنبره لا تكره بنات الأراضى العاليـة، ولا تعتبـر أهلهـا أجلافاً، كما يقول المغرضون.

وأمالت رأسها، تخاطبنى بلهجة هامسة، متآمرة:

- وبعكس ما تقول الأغنية، فإن هناك هذه الليلة فائضاً من الحب يكفى الجميع.

لعلها حقاً أرادت تقديم خدمة لى. لم تجد منى اعتراضاً وهى تلتقط عشاقها من الطريق، فأرادت مكافأتى. وجـاءت تستخدم خبرتها فى التقاط الرجال، وتطبقها هذه المرة، على فتاة صغيرة، تكون قوتاً جنسياً لى. أحسست بالإثم وهى ترانى

مكتفياً بها عن بقية النساء، ورأت فى ذلك شيئاً يخل بتوازن العلاقة التى بيننا. فاختارت هذه الصبية، تعـدل بهـا كفـة الميزان. ولكن هذا ليس كل شىء. إننى أستطيع أن أحس بأن دوافعها ليست كلها بريئة. وان هناك شراً مضمراً يجـب أن أنتبه إليه. إنها وهى تعامل البنات بهذا الأسـلوب، تريـد أن تثبت لى، ولنفسها أولاً، أن سلوكها وهى تلتقط عاشـقاً مـن الحانة، لا يختلف عن سلوك أية فتاة أخرى عنـدما تواتيهـا الظروف، مهما بدا عليها من براءة وعذوبة. وهى تتيح الآن الفرصة لهؤلاء الفتيات كى يظهرن تلك الرغبة، التى تغطيها قشرة رقيقة من اللحاء الحضارى، سرعان ما تتمزق بفعـل ضربات الخمر. وما أنا فى هذه اللعبـة إلا فـأر التجربـة. ولكنها ستجدنى فأراً صعباً. سأرفض أن أضع فى فمى قطعة الجبن مهما كانت شهية، مسيلة للعاب، مثل هذه الصبية.

تحررت من سترتى وحذائى، واتكأت على وسادة فوق البساط أتناول طبق السمك، فى حين أدارت سـاندرا لحنـاً راقصاً ودعت الفتيات إلى الرقص معها. على حياء وخجـل بدأن الرقص، ثم اختفى الحياء تحت دقات الطبـول وتـواتر الموسيقى الزاعقة. تحول الرقص إلى حلقة تشـبه حلقـات

المجاذيب والدراويش، التى يطردون بها الجن والعفاريـب. شعور تتطاير فى الهواء. أجساد تتلوى وتتثنى كأنها أعراف شجرة تضربها أكثر العواصف شـدة وهـولاً. وبنطلونـات تلتصق باللحم البشرى وترسم انحناءات ودوائر أكثر إثـارة وجنساً من عرى الجسد. لا شك أننى أخطأت عندما كنت لا أرى إلا ذلك المظهر الوادع البسيط. كأننى نسيت أن أمثالهن من الفتيات القرويات لسن بعيدات عن هستيريا ليالى السـبت وصراعات الجيرك، وثقافة الجنس التى تتسلل الى بيـوتهن مع الضوء والهواء. صار رقصهن الآن اتصالاً بقوى خفية، تسكن الجسد وتجعله يكتسب طبيعة جديدة، مرنـة وحـرة. يخفق كالأشرعة، ويتطاير كشرارات اللهب التـى تلسـعنى وتحرق صدرى. ها هى ساندرا تـنجح فـى إقنـاعى بـأن الجوهر يختلف عن المظهر، وإن ما ظننته براءة تنتمى إلى السحب المعلقة فى السماء، يكشف الآن عن مهرجان يحتفـل بأكثر الغرائز التصاقاً بالأرض. كانت مادلين هى التى جذبت انتباهى. لم تكن أكثرهن جمالاً. ولكن شيئاً عذباً فى وجههـا الذى يبدو كحقل من الضوء، هو الذى شدنى إليها. ولعل هذا

النقاء فى ملامحها، هو الذى جعلنى أشفق عليها من مؤامرة ساندرا، وأمتنع عن الانسياق فى لعبة التغرير بها.

لاحظت منذ أن وصلت أن ساندرا تدفع لها بكميات من الشراب أكثر من غيرها، وعندما رأتنى أعلق بصرى بهـا، جاءت تغمزنى وتسألنى أن أقوم وأراقصها. بقيت جالسـاً لا أستجيب لدعوتها، احتسى كأسى وأرقب البنات الراقصـات وهن يصارعن الهواء، وكأن أحداً أوقد ناراً ورمى بهن وسط الأحطاب المشتعلة. انتهت الموسيقى فجاءت تحرض البنـات ضدى.

- ليس عدلاً أن نرقص نحن وتبقى أنت جالساً تتفرج. يجب أن تفعل شيئاً. دعنا نراك فى مشهد عطيل وهو يخاطب النجوم.

وتحت إلحاحها قمت وقدمت المشهد بطريقة تهريجيـة أضحكت البنات. أدارت ساندرا لحناً بطيئاً، وجـاءت وأنـا مازلت واقفاً، تأخذ يدى وتضعها فى يد مادلين لكى أراقصها. سمعتها تدعو الفتاتين للمبيت معها وتخبرهما بأن لديها غرفة أخرى تتسع لنومهما. أدركت أنها انتهت من إعداد المشـهد لمسرحيتها الصغيرة، واضعة لكل شىء حسابه. إننى سـعيد

باحتواء هذا الجسد الذى يشاركنى الـرقص الآن، نابضـاً، خافقاً، يضىء بسطوعه قلبى. ولا شـك إننـى سـأندم ذات مساء، لا أجد فيه أحداً بجوارى، على التفريط فى هذه المهرة التى لم تركب. سأكون شهماً هذه الليلـة، وسـأرفض هـذه الغواية كما يرفضها الرهبان. سأستعين بكل أسلافى من أهل التقوى، لكى أتغلب على ضعفى وأمضى حاملاً لوعتى معى.

قلت وأنا أتجه إلى الباب:

- يمكنكن المبيت جميعاً هنا. لأننى سأغيب ولن أعود إلا صباحاً.

وضعت سترتى فوق كتفى، وخرجت دون أن ألتفـت ورائى. وقفت قليلاً أمام مدخل البناية أنظـر إلـى الشـارع الفارغ وأفكر فى مكان أذهب إليه. كان تحدياً لا معنى لـه، وتفسيراً خاطئاً وتآمرياً لدعابة جميلة أرادت ساندرا، تسليتى بها. لست إلا بدوياً غشيماً ومعانداً يرفض مائدة هبطت مـن السماء. يجب أن أعود إلى ساندرا، معتذراً عن هذا السلوك، مرحباً بقبول هديتها الباذخة. كان الوقت قد جاوز منتصـف الليل. تذكرت حانة قريبة تسهر إلى ما بعد الساعة الثانيـة. ذهبت إليها، وجلست أتبادل الحديث مع الساقيات حتى انتهى

الوقت. وعدت لأجد أن ساندرا ذهبت إلى غرفتها بصـحبة مادلين، وأبقت الفتاتين فى غرفتى.

عندما التقينا مساء، لم تكن ساندرا غاضبة. جـاءتنى بحانة العناقيد ضاحكة، قائلة بلهجتها اللذيذة:

- كيف استطعت بكل عنفك وجنسك أن ترفض طبقـاً شهياً مثل مادلين؟

- أنت أغرب امرأة رأيتها.

- وأنت أغبى رجل قابلته حتى الآن.

- إذا كان ما تقصدينه هو اختبارى، فها قـد عرفـت أننى لا أريد امرأة إلا أنت.

- أنك لا تستحق الخير.

- ولماذا لا تقولين إن ما أغضبك فيها هو براءتهـا؟ فأردت عقابها على ذلك.

- إن من تظنها صغيرة، بريئة، تخـاف عليهـا مـن اللمس، أبدت براعة فى ممارسة الجنس، تعجز عنها النسـاء المحترفات.

لم أفهم ما تقوله. نقلت لها حيرتى وسـألتها عمـا إذا كانت قد التقطت لها رجلاً من الشارع، لتراها تمارس الحب

معه. فأوضحت لى ببساطة، كيف مارست بنفسها الحب مـع مادلين قائلة بأنها عندما رأتنى أرفض هذه الهبة التى أرسلتها آلهة الحظ والفرح، قررت فور خروجى أن تفعل شيئاً تتقـى به غضب الآلهة. لقد تهيأت الفتاة لقضاء ليلة عشـق، ومـن الإثم أن تقضى ليلتها فى فراش بارد. ولذلك نذرت سـاندرا نفسها، لإمتاعها، والدخول معها فى مغامرة، كانـت دائمـا تتحرق شوقاً لمعرفة أسرارها. هيأت للفتـاتين فراشـاً فـى غرفتى، وأخذت مادلين إلى غرفتها. ساعدتها علـى تنحيـة ملابسها وأدخلتها كى تنام فى سريرها، واندسـت فـى ذات السرير معها. ثم أخذت تغمر وجه الفتاة بالقبلات السـريعة الحارة، وتخلع الغلالة التى تغطى صدرها. كانـت مفاجـأة، أفزعت الفتاة التى رفضت الاستجابة لمـا تريـده سـاندرا. وصارت تدفعها عنها وتهرب منها ملتصقة بالحـائط. إلا أن ساندرا التى كانت قد تلبستها الفكرة، صممت على أن تذهب باللعبة الى آخرها. حاولت تزيين الأمر للفتاة قائلة لها بأن ما يفعلانه ليس إلا تسلية عابرة، وتمرين على فعل الحب تقـوم به كل البنات اللاتى فى سنها. وعادت تطوقهـا بـذراعيها وتحاول إيقاظ شهوتها بكل ما تتقنـه مـن فنـون الغوايـة

والمداعبة، إلى أن صارت الفتاة تستجيب لهـا، وتشـاركها لعبتها. أفاضت ساندرا فى شرح تفاصـيل هـذه المغـامرة الشاذة، وأكملت حديثها قائلة:

- لو رأيتها وهى تصارعنى بعد أن انتقلنا من السرير إلى الأرض، وتنشب أظافرها فى ظهـرى، وتصـرخ لـذة وشبقاً، لما أتيت على ذكر السذاجة البريئة، وأنت تتحدث عن مثيلاتها من النساء الصغيرات.

إذن فقد حققت ساندرا انتقامها. ظننـت غـافلاً أننـى أفسدت عليها لعبتها. فإذا بها تذهب باللعبة إلى مـدى أكثـر خطورة وفحشاً. وأسهبت فى الشرح لكى تغيظنى وتفهمنـى بأن خروجى المفاجئ ليلة البارحة لم يكن هزيمة لها، وإنمـا فرصة نادرة لتحقيق أكثر صبواتها نزقاً وجنوناً. ما أذهلنـى هو أنها تكلمت عن ذلك كله بلهجة خالية مـن أى إحسـاس بالخجل. صبرت على حديثها الملىء بالتفاصيل، ولكن هـذه التفاصيل أثارت اشمئزازى بأكثر مما أثاره تغريرها بفتاة قد تتحول منذ الآن إلى امرأة سحاقية. كانت العمليـة اغتصـاباً قبل أن تكون شذوذاً.

- لم أكن أعرف أنك داعرة إلى هذا الحد. لست فقـط داعرة وسحاقية وإنما مريضـة. تنقلـين الوبـاء وتنشـرين جراثيمه بين فتيات صغيرات. تغتصبيهن وتصـنعين مـنهن داعرات وسحاقيات.

تنبهت إلى أن ما أقوله لا يجوز قوله فى مكان عـام، ونظرت خلفى لأطمئن إلى أن أحداً لم يكن ينصت إلى حديثنا الفضائحى. أدهشنى أن ساندرا لم تغضـب. أخـذت رشـفة سريعة من كأس النبيذ، وألقت برأسها إلى الخلف وإلى الأمام وهى تضحك، لأننى أبدو غراً وساذجاً لا أطيق الاستماع إلى لحظة عبث صغيرة لم تزاولهـا إلا علـى سـبيل التجربـة والفضول، بينما تزاولها بنات العالم الصغيرات كل يوم على سبيل العادة والإدمان.

- لا أدرى لماذا هذا العناد. أراهن أن بلاد الفضـيلة التى جئت منها، لن تجد بها فتاة لم تمارس هذا الشىء قبـل سن البلوغ.

لا أدرى حقاً لماذا أبدو غاضباً، كـأننى لـم أعاشـر ساندرا ولم أعرف طبيعتها المتحررة من كل القيود، الهاربة من كل الرتاجات، المتمردة على كل التعاليم. لعل الذى أثار

حنقى هو أن ساندرا لم تختر أحداً آخر سوى هذه الفتاة التى يغمر وجهها سلام مضىء. والتى كنت أشتهيها وأتمناها، ثم حاربت هذه الرغبة فى نفسى، لأرى بعد ذلـك أن سـاندرا تبطل ما حسبته موقفاً شهماً، وتفوز بها دونى. أما أن تقـوم ساندرا بإحدى مغامراتها الصغيرة، فهـذا مـا لا يفـاجئنى. أعرف هذا السائل السحرى الذى يتدفق فى عروقهـا، نهمـاً للحياة وجنوناً بها. إن الرغبة التى نقفـل عليهـا صـدورنا، والأمنيات التى تراودنا عندما نسمع فى جوف الليـل عزفـاً بعيداً تأتى به الريح، والأحلام التى تزورنا عنـدما ننتشـى بكؤوس الشراب فى ركن معتم الإضاءة، والتى تتحول إلـى أبخرة تضيع عندما يباغتها ضوء النهار. كل ذلك يتحول عند ساندرا إلى سلوك وممارسة، ولا يزيدها ضوء الصـباح إلا قدرة على الفعل والاداء. إنها لا تكبت نزوة، تجد سبيلاً إلى تحقيقها، سواء أرضى ذلك الناس أم أغضبهم، وهى لا تفعل ما تفعله بحثاً عن التقاليع، وإنما سجية وفطرة واستجابة لنداء ينبع من ذاتها ولا يأتى مـن خارجهـا. سـاندرا لا تقـود المظاهرات النسائية التى تحمل لافتات المساواة مع الرجـل، ومع ذلك فهى تستطيع أن تذهب بقضية المساواة إلى حدودها

القصوى. وإذا كان الرجل يرى أن من حقه أن يلتقط امـرأة من الطريق يرضى بها شهوته، فهى أيضاً تستطيع أن تفعل بالرجال ما يفعلونه بالنساء، وتبادر بنفسها لالتقاط رجل هى التى تختاره، تحقق منه رغبتها وتتركه. وهـى لـم تعاشـر مادلين البارحة إلا لأنها ترفض أن تكبت رغبـة راودتهـا، وعلاقة مثيرة لا تريد أن تبقى جاهلة بأسرارها. سوف لـن تعود لممارسة هذه النوع من الحب، لأن ذلك يتنـاقض مـع شخصية امرأة مثلها، تعى أنوثتها وتحتفل بها. ليس ما تقـوم به ساندرا، شذوذاً يقتضى الغضب والاشمئزاز، إنها امرأة لا تخون ذاتها، ولا تخشى أن تحقن برحيق التجربة والمغامرة، دورة الدم فى عروقها. لا تنتمى لأحد إلا لنفسها، ولا تسـير على هدى أضواء المصابيح العامة، وإنما على هدى الضوء الذى ينبع من قلبها.

إننى وأنا أنكر سلوكها، لا أنكره من قلبى، وإنما أنكره بأقنعتى التى حاك سداها، ونسج خيوطها، عنكبوت الزمـان. ولكن ساندرا طردت العنكبوت من فوق وجههـا، وسـارت تستقبل الشمس والهواء، بوجه لا يعرف الأقنعة.

تحرشت بها كثيراً حتى أغضبتها. سألتنى أن أذهـب إلى الجحيم، وتركتنى جالساً فى حانة العناقيد، وعادت إلـى غرفتى، لنقل أغراضها وملابسها، بعد أن قررت طردى من أرضها وسمائها. استمر هذا الخصام ثلاثة أيام. وانتهى بليلة عامرة بالمودة والحنان، وكأننا عاشقان أضناهما فراق طـال عدة أعوام. أدركت أنى غارق فى حب هذه الفتـاة العابثـة، التى تكره الارتباطات والالتزام بالنواميس، والتى أعرف أنها سوف تتركنى ذات يوم، ألعق جراحى، وتمضى تتسلق الأفق بصحبة رجل جديد. إننى عاجز عن الانعتاق من سـحرها، ولن أجد فى يوم من الأيام الشجاعة على المبادرة بهجرهـا، ولذلك عدت إليها باسطاً كفى، أطلب الصفح والمغفرة، لأننى قمت فى أول يوم من أيام الخصام، بعمل صبيانى رغبة فـى إيذاء مشاعرها، ندمت عليه كثيراً. لم أبق جالساً فى الحانـة عندما رمتنى بشتائمها وخرجت. انطلقـت بعـدها، أسـرع الخطى إلى شارع الأمير، ألتقط من فوق أرصفته، امرأة من بائعات المتعة. كانت امرأة أربعينية، ملأت وجهها بالأصباغ والمساحيق، لتخفى حقيقة عمرها. وكدست كميات هائلة مـن أحمر الشفاه، صنعت لها شفتين فوق شفتيها، وارتدت تنورة

من الجلد تلتصق بجسمها، لها شق طويـل يكشـف بيـاض فخذها. ووقفت بجوار إعلان كبير عن فيلم هنـدى، تنتظـر زبائنها. لم أكن أملك وقتاً للانتقاء، أو انتظار امرأة أخـرى أكثر جمال، وأقل تعبيراً عن مظهر المومس منهـا. كنـت مستعجلاً أريد أن أدرك ساندرا قبل أن تغادر غرفتى، كـى ترى هذه المرأة معى. ثم أن وجودها بهذا الشكل الفاقع يخدم أهدافى بأكثر مما يخدمها شكل أقل إثارة، فأنا أريد أن أقـول لساندرا بأننى أختار عليها أكثر المومسات تلوثاً بالأصـباغ، وأرضى بها بدلاً منها، وهروباً من قبح ما فعلت.

دخلت بها إلى غرفتى، فوجدت ساندرا واقفـة قـرب الموقد تشوى قطع اللحم وتهيئ لنا عشاءنا. انتهـت لحظـة الغضب، وبدلاً من جمع أغراضها والعودة إلـى غرفتهـا. أعدت الصحون وسفرة الشـراب وهيـأت الغرفـة لعـرس المصالحة. جعلتنى المفارقة أبكماً، فوقفت ساهماً لا أجد مـا أقول.

- ما هذا الشىء؟

- إنها امرأة.

لعلها كذلك. ولكن ما الذى تفعله هنا؟

قلت مرتبكاً بعض الكلمات التى لا معنى لها. تركت ساندرا الشواء وسفرة الطعام والشراب. صفقت الباب وراءها. ولم أسمع من شتائمها سوى :

- ابن الزانية.

سألت المرأة أن تأخذ حماماً، وأن تنزع عن وجهها الأصباغ وعن شفتيها أحمر الشفاه. بدت أكثر إنسانية وهى تعود إلى طبيعتها، وظهرت مسحة جمال باهت أبقت عليه الأيام والأرصفة. ومقارنة ببعض المومسات اللاتى عرفتهن، ووجدت فيهن رجولة لا تتفق مع طبيعة الأنثى، كانت هى أكثر أنوثة منهن. فقد ذهب فى ظنى أن المومس، امرأة أصيبت باضطراب فى الغدد التى تفرز الهرمونات، بحيث صارت هرمونات الرجولة فيها أكثر مما فى الأنثى الطبيعية، ولهذا فإن المومس كما رأيتها امرأة تكره أنوثتها لأنها جاءت أنوثة ناقصة، وتحقد على الرجال لأنها لا تستطيع أن تكون منهم. فاختارت هذه المهنة التى تذل بها أنوثتها وتستخدمها أيضاً فى إذلال الرجال. سوف لن أنخدع هذه الليلة، وأنا ألتقى فى غرفة مغلقة مع إحدى نساء المهنة، بما تقوله كتب الأدب. لأن تلك المومس التى صنعها الأدباء، وأضفوا عليها

أردية الفضيلة، وجعلوها ضحية الظلم الاجتماعى، مـومس نادرة فى دنيا الواقع. أنهن يجئن إلى هذه المهنة باختيارهن، مدفوعات بشىء آخر غير الرزق. مدفوعات بقوة الغريـزة وخطأ الطبيعة التى أفرزت فى أجسادهن الأنثوية من نسـغ الذكورة ما لا يحتمله جسد المرأة، فتلون الطبع كمـا تلـون الصوت بخشونة الرجـال، ونمـا الشـعر فـوق السـاقين والذراعين، وبقيت آثار إزالته من فوق الوجه مساحة بيضاء بلون الشمع، لا تفلح الدهون والأصباغ فى إخفائهـا. كنـت أعرف أننى أبالغ فى أفكارى، وبحكم أننـى أدرس الجـنس دراسة منهجية، أدرك أن هذه النظرية التى ابتكـرت حـول الدعارة، تحتاج إلى اختبارات حقلية كثيرة لإثباتها، لقد جاءت هذه المرأة لتشهد العلاقة التى تتقوض بينى وبـين سـاندرا، فلماذا لا أنتشل من بين الأنقاض شيئاً أستفيد به فى تأسـيس نظريتى، ويقدم لى تبريراً أكثر وجاهة لابقائها معـى هـذه الليلة. اعتبرتها عينة صالحة لإجراء اختبار سريع، وفاجأتها بسؤال عما دفع بها إلى هذه المهنة. وعنـدما قالـت بأنـه الرزق، كنت مستعداً لنقض هذه الإجابة الباطلـة مـا أكثـر الموارد المتاحة للرزق، التى تستطيع امرأة تقطن هذه البلاد

أن تجدها خارج مهنة الدعارة. وسردت أمامها لائحة طويلة بكل المهن التى يمكن لامرأة لا تحمل مؤهلاً أن تزاولها، من عاملة بمصانع النسيج إلى ساقية بإحدى الحانات. فكيـف لا تستطيع أن تجد مهنة شريفة لو أرادت؟

لماذا أعذب هذه المرأة التى رمى بها سوء طالعها فى طريقى. إن واجبها حسب النظرية التى أسعى لتأسيسـها، أن تتولى هى تعذيبى. أجابت باقتضاب أن هذه المهن جميعهـا تجلب لها الضجر.

واصلت استجوابها وكأننى محقق جنائى عثر فى أقوال المتهمة، على دليل إدانتها:

- ليس الدافع هو الرزق إذن؟

لم يكن ما قالته رداً على هذه الجملـة الاسـتنكارية، اعترافاً جاء نتيجة الانهيار، فهى فيما يبدو فخورة بمهنتهـا، ولا ترى فيها تهمة يجب إنكارها.

- من قال أن المهن الأخرى أكثر شرفاً من هذه المهنة ؟.

إننى لا أكذب ولا أسرق ولا أغش أحداً، وما أقوم بـه ليس إلا عملاً يجلب رزقاً كأى عمل آخر. اخترته لأننى أحبه

أكثر من غيره، ولأن كل خطوة أخطوها مع زبائن الليل، إنما هى بداية تجربة جديدة. إنسان جديد، ومغامرة جديدة. ولذلك فأننى لم أستطع أن أتآلف مع أية حياة أخرى. حتى عندما سافرت إلى بلاك بول، ذات الملاهى الكثيرة، بصحبة بحار تزوجنى وملأ بيتى بأفخر أنواع السمك، فإننى سرعان ما هربت من قفصى وعدت إلى فضاء وهواء شارع الأمير.

أسعدنى أنها لم تقتبس من الفيلم الهندى الذى كانت تقف تحت إعلاناته، قصة تمتلئ بالكوارث والأطفال المرضى والأزواج الذين قتلتهم الحوادث، ابتزازاً للعواطف وطمعاً فى مزيد من النقود. تكلمت عن مهنتها باحترام وحب، وقدمت لى ما يثبت صحة نظريتى وينقض أطروحات الأدب الذى تأسس على مبدأ المومس الضحية. ومكافأة لها أطعمتها من طعامى، وسقيتها من شرابى، ودخلت بها راضياً إلى فراشى. مر زمن طويل لم أعاشر امرأة من نساء مهنتها. وسأسعى أن أستحضر بالنوم معها ذكريات دهشتى الأولى عندما اكتشفت الجنس مع امرأة عامة مثلها، بأمل أن يقرب ذلك المسافة بينى وبينها، ويجعل مهمتى معها أكثر يسراً. كانت طرابلس فى ذلك الوقت الذى وصلت فيه سن

البلوغ، تملك شارعاً تخصصه لبيوت الدعارة العلنية. أو كما كنا نسميها، »بيوت الدعارة الحكومية«، لأن الحكومة هـى التى كانت تتولى الإشراف عليها. وكما يحـدث مـع الأولاد الذين فى سنى، فإن هناك دائماً صبياً اكتشف هـذه العـوالم قبلنا، وجاء مبهوراً يحدثنا عنها. تسرى الدماء حـارة فـى عروقنا، وتستيقظ تلك الرغبة الحارقة فى أجسادنا، فننسـى أحاديث الفقهاء، وخطباء المساجد وكتب الأخلاق الحميـدة، وندس رؤوسنا، بعضها فى بعض، ننسج خيـوط المـؤامرة الصغيرة التى ستقودنا إلى ذلك المكان. تدبرت ثلاثين قرشاً، كانت هى تسعيرة الدخول، وانتظرت وأنا أحمل فـى قلبـى لهفة الوثوب فوق المرأة العارية، اليوم الموعود الذى حددناه للزيارة، وذهبت مع اثنين من صحابى، نجلس فى سقيفة أحد هذه البيوت ننتظر دورنا. لم أكن أظن، أو أحلم، أن هناك فى الدنيا عالماً يشبه هذا العالم. رأيت نساء البيت عاريـات إلا من الغلالة الشفافة المعلقة بالحلمتين والهابطة إلـى مسـتوى الفخذين، لا تغطى الجسم وإنما تزيده عرياً، وهـن يـذهبن ويجئن. يداعبن بتعليق فاحش أحد الزبائن، أو يتبادلن الحديث مع المرأة العجوز التى جلست فوق كرسيها العالى فى نهاية

السقيفة تدير العمليات وكأنها إحدى إلهات المتعة فوق جبـل الأولمب. كان الكلام كله يدور حول الجنس الذى يسمى هناك بأكثر أسمائه صراحة، مليئاً بذكر الأعضاء التناسلية التى لها أيضا أسماء لا تذكرها الكتب. رأيت قبل أن أدخـل البيـت، امرأة تخرج إلى الشارع من بيت مجـاور، تطـارد رجـلاً وتشتمه. استمعت إلى قاموس شـتائمها فاسـتغربت كيـف تستطيع امرأة جاهلة من نساء هذه المهنة، أن تصنع بكلماتها البذيئة المتدنية، قصيدة هجاء لن يستطيع إلا شاعر ملك قوة الخيال، أن يصنع صوراً ويبنى عالماً مثلهـا. كانـت تشـتم الرجل وتعيره بضآلة أداته الجنسية التى تشبه نملة صـغيرة حمراء ميتة، وتأتى فى شتائمها على عضو الرجل الذى قذف بجرثومته، والرحم الذى حمله وأخرجه إلى الدنيا، وأعضـاء المرأة التى ترضى بالزواج منه دون أن تخونه مع أول كائن يحمل عضو الذكورة حتى لو لم يكن رجلاً. كـان الصـيف قائظاً، وكانت رائحة اللحم البشرى الذى ينـز عرقـاً تمـلأ المكان. جلست المرأة العجوز تحمل مروحة ملونة، مصنوعة من سعف النخيل، تطرد بها الحر والذباب، وتستحث صـبياً فى مكان ما من البيت أن يأتى بطاسة الشاى. وفـى وسـط

السقيفة وقف رجل بهيئة مزرية، وشعر ذقـن لـم يعـرف الحلاقة، تفوح منه رائحة الخمر والعرق، يغنى أغنية فاحشة عن رجل عجوز يتذكر صبواته، وغزواته النسائية، ويناجى أحليله الذى صار هامداً لا حياة فيه. فتضحك المرأة العجوز بفم يمتلئ بأسنان ذهبية، وتسأله أن يعيد مقاطع الغناء. كنـت أدور بعينى فى كل اتجاه حولى، وأنا أمتلـئ اندهاشـاً لأن المدينة التى أحيا بها، وأعرف شوارعها شـارعاً، شـارعاً، تضم مكاناً مثل هذا المكان. أدارت لـه الشـوارع الكبيـرة ظهرها، فاختبأ خلفها دون أن أستطيع الاهتداء إليه. هذا إذن هو ماخور المدينة، الـذى صـنع منهـا أصـحاب الـرأى والمشورة، سلة مهملات يقذف فيها الرجال، الفـائض مـن أوساخ غريزتهم. جلست أرقب هؤلاء الرجال الذين ينتظرون دورهم، فى لهفة وجوع إلى لحظة الجنس، والآخرين الـذين أنهوا مهمتهم وخرجوا وقد اختفـت اللهفـة مـن عيـونهم ووجوههم. حـل مكانهـا تعبيـر يحمـل معـانى القـرف والاشمئزاز، ما أن يصل الواحد منهم عتبة الباب حتى يرمى فوق الأرض بما تجمع فى فمه من بصاق.

دخل رفيقاى وجاء دورى، فأشارت المـدام بمروحـة السعف إلى الغرفة التى يجب أن أدخل إليها. وجدت نفسـى متردداً، متهيباً، واقفاً لا أتحرك، والمرأة تنظر نحوى بضجر ونفاد صبر. لا شك أنها شاهدت صبيان كثيرين قبلى يداهمهم مثل هذا الرعب.

- ما بك يا روح عينى، ألا تبغى أن. ..؟

وقالت تلك الكلمة المهولة التى لم أسمع طفلاً يرددهـا إلا تشتت أهل البيت خجلاً وذعراً، وجـاء أحـدهم يوسـعه ضرباً ويسأله ألا يعود إلى قولها مرة أخرى. بقيـت أتلفـت باحثاً عن شىء ينجينى من حصارها. وجدت أن هناك رجلاً جاء قبلى، فقفزت على هذا العذر وأشرت إلى الرجل قائلاً:

- جاء قبلى.

سألتنى أن أدخل فهو ينتظر امرأة أخـرى. ولا أدرى كيف واتتنى الشجاعة لأقول بأننى أنتظرها أنا أيضاً. كنـت أبحث عن أية ذريعة تتيح لى تأجيل لحظة المواجهة. لابد أن تكون هذه المرأة التى وجدت رجلاً يعتنـى بانتظارهـا، ولا يرضى بمعاشرة امرأة غيرها، أكثر نساء البيت جمالاً. نظر الرجل بغيظ نحوى وكأننى جئت أغتصـب زوجتـه. أدرت

وجهى عنه، وجاء دوره سريعاً، فراقبت الغرفة التى يدخلها، وما أن أنهى مهمته حتى قفزت من مكانى وذهبت إليها. كان بالغرفة دولاب له مرآة كبيرة، وسرير مزدوج تغطيه ملاءة حمراء، وفى إحدى زوايا الغرفة جلست المرأة فوق حوض مثبت بالأرض، تغسل آثار الرجل الذى انتهى للتو من زيارتها. وبرغم أنها كانت أكثر جمالاً وأصغر عمراً من بقية النساء اللاتى رأيتهن فى السقيفة، إلا أن مشهدها وهى تجلس فاتحة ساقيها فوق الحوض، كان يتناقض تناقضاً فاجعاً مع تلك الصورة التى رسمتها فى خيالى لهذه الزيارة. أطلقت السلام فلم أسمع رداً. جففت المرأة أطرافها ومدت يدها تأخذ النقود. ارتمت فوق السرير والعلكة ما تزال فى فمها. فتحت ساقيها تنتظرنى وتستحثنى أن أنتهى من نزع ملابسى. إنها المرة الأولى التى أرى فيها جسداً أنثوياً عارياً إلا من الغلالة التى ارتفعت فوق السرة ولم تعد تغطى إلا جزءاً من الصدر، ملقى أمامى فوق الفراش الأحمر ينتظر فحولتى، نظرت متهيباً، إلى الجسد العارى، ووضعت بصرى فوق ذلك الموضع الذى جعلوه موئلاً للعفة والشرف، والذى ألهم البشرية تراثاً من الأساطير والقصص والأغانى. ها هو الآن

أمامى، مغسولاً بالماء من أجلى، جاهزاً ومباحاً. رأيت هـذا الجسد كثيراً فى أحلامى، وتقلبت محترقاً بجمر الشهوة فوق سريرى، أمنى النفس باحتوائه. ورأيت أيضاً هـذه المنطقـة الظليلة التى تشبه دغلاً يختبئ بين الرمال، وتشوقت كثيـراً لاقتحامها. فما الذى يجعلنى الآن خائفـاً، متـردداً. أنـزع ملابسى ببطء كى أتيح لنفسى وقتاً أطول، وأنظر إلى ذلـك المكان المشتهى، لأستمد منه العزم والقوة، فلا يزيدنى منظره الموحش، وشعره الأسود، الطالع بعد حلاقة ليسـت بعيـدة المدى، إلا بروداً وارتجافاً. انتهى سريعاً طقس خلع الملابس، وحانت اللحظة التى سأختبر فيها رجـولتى. نظـرت إلـى صورتى عارياً فى المرآة. كان العرق يغسل جسدى، وتعبير بائس يغطى ملامح وجهى. نفخت متأففاً من شدة الحر، ولكن قشعريرة لا تصنعها إلا أقسى ليالى الشتاء بـرداً، تـداهمنى وتملأ قلبى ثلجاً، وتجعل أطرافى تنكمش وتتداخل بمـا فـى ذلك السلاح الذى يجب أن أخوض به هذه المعركـة. كنـت مملوءاً بالحرج والخجل، نادماً على دخول هذه الغرفـة، لا أرغب فى شىء سوى الهروب. ولكن الباب موصد ورائى، والجسد الأنثوى ملقى فوق الملاءة الحمراء أمامى، ولم يعـد

بإمكانى أن أبقى واقفاً أكثر من ذلك، لأن رجالاً آخرين ينتظرون دورهم. ارتميت فوق السرير بجوارها، لعل الاتصال بها يبعث شيئاً من الحرارة فى أوصالى. حاولت أن أقبلها، فمنعتنى من الوصول إلى فمها، أو الاقتراب بأصابعى من نهديها، فهى لا تبيع من جسدها إلا مربعاً صغيراً يجب أن أهتدى إلى وسيلة للتعامل معه. أغمضت عينى واسترجعت صورة المرأة الأخرى التى رأيتها مرسومة فوق أغلفة المجلات وصنعت منها خليلة أعاشرها آخر الليل. نجحت الحيلة، وسخنت فى عروقى الدماء الباردة، فدخلت بسرعة بين فخذيها، وأكملت المهمة فى دقيقة واحدة.

صرت بعد ذلك أعود إلى المرأة، كلما ادخرت ما يكفى من القروش لزيارتها، حتى نشأت ألفة بينى وبينها، وصارت تسألنى أن أهرب من أهلى لكى أتزوجها. فهى لديها من المال ما يكفى لإعالتى حتى أكمل تعليمى. وكنت أستجيب لدعوتها كاذباً، وأسألها أن تمهلنى حتى أجد الفرصة المناسبة للهروب. فتحيطنى برعايتها، وتمنحنى فمها أقبله، وتنزع الغلالة لأرى نهديها، وتبقينى لديها فترة أطول مما تبقى الآخرين.

وقبل أن ينتهى عام واحد من علاقتى بها، أصدرت الحكومة قراراً بإلغاء البغاء. طردوا النساء وأقفلوا البيوت وجئت ذات نهار لأزورها، فوجدت البيت مغلقاً، والشارع خاليا. اختفت طوابير زبائن المتعة، وانطفأت الأعراس التى تقيمها نساء الغلالات الحريرية. حزنت لفراقها، ولم أعرف سبيلاً أقصده للبحث عنها، أو عن امرأة أخرى تحل مكانها فى حياتى. أدركت رعب الفراغ الذى سيطاردنى لأعوام كثيرة قادمة. وأرسلت إلى الصحيفة الرسمية، رسالة ألعن فيها الحكومة، لأنها أقفلت البيوت العامة، نفاقاً، وانتصاراً للدعارة النفسية. وإن القرار بقفل بيوت الدعارة الحكومية، ألغى البيوت، وأبقى »الدعارة الحكومية« التى يمارسها رجال، يغلقون هذه البيوت، ويفتحون لعشيقاتهم بيوتاً سرية.

عاودنى، وأنا ألتقى بهذه المرأة، ذلك الذعر القديم الذى داهمنى لحظة أن دخلت بيت الدعارة لأول مرة. لم أستطع بكل خبرة العشرين عاماً التى تفصل بين اللحظتين، أن أفلح فى تحقيق اتصال جنسى معها. استعنت عليها بالشراب، ودعوتها لأن تقاسمنى زجاجة ثانية من النبيذ. فلا يزيدنى الشراب إلا فتوراً وعجزاً. لو كنت مقيماً ببلاد شرقية لقلت

أن ساندرا جلبت لى سحراً يمنعنى مـن الاتصـال بـامرأة غيرها. ولكن ساندرا لا تعرف الطريق إلى كتاب الأحجبـة ومصاحبى ملوك الجان. فمن أين جاءتنى هذه العنة؟ والمرأة تستعين بكل فنون الحب التى تتقنها لكى تعيد الحياة إلى قطعة اللحم الميتة، دون جدوى. ويائساً استسـلمت للنـوم. وفـى الصباح أخذت المرأة أجرتها، وارتدت أصباغها، وعادت إلى أرصفة شارع الأمير.

وعندما تصالحنا قلت لساندرا:

- سألتنى المرأة عنك، فقلت لها أنك شقيقتى.

- يجب أن أعاملك منذ اليوم على هذا الأساس.

- لا شك أنها ما تزال مشغولة بحل هذا اللغز الـذى يجعل امرأة حمراء كأزهار النار، شقيقة رجل أسمر كصخر الجبال البركانية.

- ربما لأن الاثنين ينتميان إلى النار.

- كنت أحمق عندما حاولت الإساءة إليك.

- لم أغضب إلا لأننى رأيتك تهين نفسـك وتسـىء إليها.

اعتبرت أن كلامها شاهد، على أنه بقدر ما تستفزها البراءة الغشيمة. فإنه أيضاً يستفزها هذا الابتذال الذى يقيم للحب أسواقاً ورقيقاً. فما ساندرا إلا امرأة الإرادة الحرة، ومهرة الجبال العالية، التى تركض عبر الطرقات الوعرة، تشرب من ينابيع الماء والضوء.

بدأت حانة العناقيد تشهد عودة الزملاء الذين غابوا أثناء إجازة الصيف. عرفت، عندما ذهبت إلى هناك، أن عدنان جاء إلى الحانة يسأل عنى. تذكرت أننى خلال عطلة الصيف لم أتحدث بالعربية مع أحد إلا ما أتبادله من كلمات قليلة مع صاحب المطعم المصرى. إننى أشتاق إلى الاستلقاء فى حدائق اللغة التى نسميها «الأم»، تعبيراً عن عمق الوشائج التى تربطنا بها. انتظرت مجىء يوم الأحد، وذهبت مع المساء إلى شقته، المحاذية لحديقة الحيوانات. لم يكن بالبيت مصعد، فتسلقت الدرج حتى وصلت لاهثاً إلى الطابق الرابع. استقبلنى عدنان على عتبة الباب بطريقته الاحتفالية معانقاً ومعاتباً لأنه منذ عودته وهو يسأل عنى، ويتصل هاتفياً بالبيت الذى كنت أسكنه، فيجد أناساً أغراباً لا يعرفوننى. قلت له وأنا لا زلت أستلقط أنفاسى، انه يأبى

بشخصيته الهجومية. إلا أن يبدأ بالعتـاب، مسـتغلاً "عـدم قدرتى على النطق بعد صعود هذه السلالم. ناسيا أنـه هـو الذى اختفى اختفاء غامضاً يثير الشبهات. دخلـت فوجـدت المرأة الهندية ترتدى جلباباً منزلياً وتجلـس فـى الصـالون تشرب القهوة. أدركت أن فرصة حديث باللغة العربية أعيـد به الاستقامة للسانى الذى أعيته الرطانة، قد ضاع مع وجود هذه المرأة. كنت أتساءل وأنا أراهما يخرجان معـاً، إذا مـا كانت هناك علاقة حب بينهما، وأرى أنهما ولسبب غامض لا أدريه، يليقان ببعضهما. لعل هذا التشابه الخفيف فى ملامـح وجهيهما هو الذى أوحى لى بهذا الانطباع. لكن ما حسـبته علاقة بين أنار ودونالد هو الذى ضـللنى وجعلنـى لا أدرك عمق علاقتها بعـدنان. إذ لا أرى موجبـاً لوجودهـا بهـذا الجلباب، فى بيته الذى لا يحتوى سوى غرفة نوم واحدة، إلا إذا كان ما بينهما ذا طابع خاص وحميمى. انشـغلت أنـار بالتطلع إلى فنجان قهوتها، فوثبت على الفرصـة لأحـادث عدنان باللغة العربية وأسأله عن سر اختفائه المفاجئ من هذه المدينة التى صارت وطناً بالنسبة له، بعد أن جاهر باختلافه مع النظام فى بلاده، وضحى بالمنحة التى كـان يتقاضـاها،

ليلتقط رزقه بترجمة النشرات الطبية، وما عـاد بإمكانـه أن يعود إلى هناك الآن.

- كنت أحتاج إلى بعض المصادر عن تأثير الفلسـفة العربية فى بعض فلاسفة الغرب، فذهبت أبحث عنهـا فـى مكتبات لبنان.

- وهل ضاقت الدنيا بالمصادر حتى تبحث عنها تحت قذائف الحرب.

- هذا ما قلته للجامعة التى منحتنى رسالة تساعد فـى تسهيل مهمتى. أما ما أقوله لك، فيجب أن يبقـى فـى هـذا المكان. لم أذهب باحثاً عن مراجعى فـى مكتبـة الجامعـة الأمريكية هناك، وإنما ذهبت إلى معسكرات الفـدائيين فـى الجنوب.

كان جنوب لبنان فى هذا الوقت يغذى الإذاعات بأخبار المعارك التى تشتعل فوق أرضه. كنت أعرف انه انتمى فى سنوات مضت إلى إحـدى المنظمـات الفدائيـة اليسـارية، وحارب معها لأكثر من عامين، ثم ترك العمل الفدائى بعد أن خرجت المقاومة من الأردن، وجاء لإكمال دراسته العليا.

- لم أذهب هذه المرة محارباً، وإنما محاضـراً فـى معسكرات الإعداد العقائدى.

لم يشأ أن يتحدث عن تفاصيل الأشهر الثلاثـة التـى قضاها بين الفدائيين. واكتفى بالكلام عن الشـىء الـذى رآه يولد وسط النار والرماد ومآتم الشهداء. والذى لا يستطيع أن يدرك مدى قوته إلا من عايشه معايشة يومية.

- لم أعد أرى النصر احتمالاً، وإنما حتمية تاريخيـة يصنعها رجال ونساء عشت معهم ورأيتهم وهـم يتزنـرون بالنار ويؤسسون أسلوباً جديداً لإدارة الصـراع. يقتحمـون بأجسادهم المشتعلة الأفق المغلق، ويكتبون بدم الشهادة واقعاً جديداً يسطع بفجر الوعد والبشارة.

تحدث بتدفق وانفعال، مستخدماً هذه اللهجة الحماسـية التى أعادت لملامحه الومض والاشتعال، قائلاً أنه ذهب إلى هناك محبطاً حزيناً، يحاول أن يقاوم عوامل الانهيـار فـى نفسه، وعاد مشحوناً بالأمل بعد أن اهتـدى إلـى مراجعـه الحقيقية هناك. رأى المرأة تنصت بصمت إلى كلماته التى لا تفهمها، فترك لغة المعارك، وتحول إلى الإنجليزية يسـألنى عن أخبارى التى أوجزتها له فى جمل قليلة، وأدرت وجهـى

أسأل أنار عما رأته فى الفنجان. ردت بأنها لم تر شيئاً لأنها لا تستطيع قراءته. كانت فقط تتأمل كيف يقدر بعض النـاس على تفسير هذه الرموز واكتشاف هذه العوالم التى تختفى فى فنجان القهوة. قلت لها بأن قراءة البخت ليست إلا عملاً مـن أعمال الخيال. ولن يكون غريباً أن تتوافق وقائع حياتنا مـع ما يقوله صاحب الخيال من نبوءات، لأننا ننسى أن الخيـال قوة، وقدرة على النفاذ إلى قلب الأشياء. وقلت لها أيضاً أننى أستطيع الآن بهذه القوة أن أخترع لها وقائع اسـتوحيها مـن بقايا قهوتها ستكون مطابقة لوقائع حياتها التى أجهلها. كانت مجرد حيلة لأن أجعلها تتكلم قليلاً عن نفسها. أخـذت منهـا الفنجان واخترعت لها مهراجـاً عظيمـاً يملـك المـزارع والعقارات وجعلته جدها لأمنحها عراقة النسب. ثم صـنعت لها كوارث أضاعت الثروة وقضت علـى الأب. وجعلتهـا تهرب من همومها إلى هذه ا لمدينة لتلتقى برجل به أوصاف عدنان، يكون مصدر سعادة تبدد أحزانها، وتفـتح صـفحة مشرقة فى حياتها. شهدت لى أنار بأننى من عظمـاء قـراء الفناجين، برغم أن جدها لم يكن مهراجاً، ووالدها مازال حياً، ويستعد بعد أن أخذ تقاعده من وظيفته الحكومية، للهجرة إلى

لندن، للالتحاق بأخيها الذى يملك دكان بقالة هناك. عرفت منها أنهما فعلاً اتفقا على الزواج، وإنهما يعيشان معاً بانتظار استكمال الأوراق الرسمية لإتمام مراسيمه. فرحت لهما فرحة صادقة، وتمنيت لهما السعادة فى الحب والزواج، وخرجت من بيتهما أفكر فى المواقف والرجال.

كان الهواء منعشاً، ومفعماً برائحة أزهار الحديقة القريبة وأشجارها. أحببت العتمة التى تمزقها أحياناً أضواء السيارات المارقة، والإنصات إلى هسهسة الأوراق التى تتكسر تحت خطاى. فأردت أن أستمتع بوحدتى، وأن أعود إلى بيتى مشياً على الأقدام.

بعيدة هى المسافة بينى وبين عدنان. بعيدة هى المسافة بين روحى وروحه. من أين يأتى أمثاله من الرجال بهذه الطاقة الهائلة التى تحيل الأقوال إلى أفعال، وتجعلهم يقتحمون حقول النار ويسافرون باختيارهم إلى أرض المعارك والمواجهات الساخنة. يجاهرون بعدائهم لأكثر أنواع الحكام شراسة وعنفاً، ويحملون فوق صدورهم شاراتهم المتعددة الألوان، ويطوفون بها بين الناس، يؤسسون رأياً عاماً للقضايا التى يؤمنون بها، ويجدون بعد ذلك وقتاً

للدراسة، ووقتاً لالتقاط الرزق وآخر لعلاقات حـب هادئـة تنتهى بالزواج. أراد عدنان أن أكون نافعاً مثله. رأى قلبـى فارغاً، فأراد أن يحشوه بالوقود الذى ذهب يعبئ بـه فتيـان الثورة فى لبنان. لكن قلوب أولئك التلاميذ قلوب خضـراء، وقلبى متيبس أفسده دخان الحانات ودخان الأساطير. رآنـى مستقيلاً من القضايا العامة، زاهداً فى الدخول إلـى ميـادين الصراع، أرفع راياتى البيضاء وأعلن الحياد، فأهملنى كعرف شجرة مقطوع، تعبث به الرياح والأهواء. كانت كلماته حول أهمية أن يكون للإنسان هدف يمنح حياته معنى، ويجعل من وجوده إضافة للوجود الإنسانى، تسقط تحت قدمى، كما تسقط أوراق الشجر الميتة. أتدبرها فلا أجدها تخاطب شـيئاً فـى نفسى، ولا أرى فيها إلا فراغاً يكسى نفسه بالكلمات الكبيـرة التى لا أعرف لها معنى. أتركه وأمضى إلى كأسى وامرأتى، وجوارى ألف ليلة وليلة وعشاقهن، وقد أدرت وجهـى عـن عالم عدنان الملىء باللافتات والشعارات، معتذراً له بأننى لم أخلق لهذه الأشياء، دون أن يفوز منى بجواب عن الأشـياء التى خلقت لأكرس حياتى لها. يبقى السؤال الهارب، هارباً. وتبقى الذات التى تبحث عن سكن، تدور فى متاهة المرايـا

المقعرة. كل إنسان يعبر فى النهاية عن تلك »الأنـا« التـى تريد أن تجد مكاناً فارغاً تؤسس فوقـه وجودهـا وتحقـق انسجاماً ما بينها وبين عناصر الكون ومظاهره. كلنا نمضى فى الحياة مدفوعين برغبة أن نعرض ذواتنا وننتزع اعتراف الآخرين بنا. رغبة نحملها معنا منذ صرختنا الأولـى علـى سرير الولادة. حتى أكثر الناس انطواء، وانسحاباً من الحياة إنما يقول بهذا الموقف الاحتجـاجى، شـيئاً يثيـر فضـول الآخرين. لقد وجد عدنان بيتاً لـ »أنـار« التـى ترضـيها الأهداف الكبيرة والقضايا الساخنة، فمضى مسـتمتعاً بنعمـة اليقين، واثقاً من أنه اهتدى إلى نفسه، وعرف الطريق الـذى يرضى الأنا ويحقق رغبتهـا فـى الحصـول علـى هـذا الاعتراف. وبقيت تائهاً لا أهتدى إلى بيت تستقر فيه ذاتـى، ولا شرفة معلقة فى الفضاء أعرض منها نفسى. ذهبت إلـى أكثر أنواع الاستعراض مباشرة ووضوحاً، وهـو التمثيـل. أبحث عن سوق لذاتى فى بهو المرايا. واستحضرت عـوالم ألف ليلة وليلة ونقلتها إلى دورى، وتسـكعت بـين القـرون الوسطى والعصر الحديث، وبين مدن الشرق ومدن الغرب، أبحث عن مساحة خالية أقف عليها، وأضع رايتـى فوقهـا،

وأقول هذه تخوم دولتى، فلا "أجد سوى الخواء. إننى أغـبط عدنان على يقينه، وأنكر على نفسى هـذا الضـياع الـذى أعيشه. وأرجع إلى دارى منهكاً، بعد هذه المسافة الطويلـة التى مشيتها فى الظلام، ولكن الصحوة التى داهمتنى تمنـع عنى النوم، وتمنحنى إحساساً بلا جدوى الأشياء. حتى فـى الأيام التالية وأنا أجلس فى المكتبة حانياً رأسى فوق بطاقات البحث التى ملأتها بأخبار المبـاذل والشـذوذ، أجـد هـذا الإحساس بالعبث ينسحب على بحثى. ها هى البطاقات تمتلئ بالأزواج الذين ينتقمون من عشاق زوجاتهم بقطـع أحاليـل العشاق، والنساء اللاتى يستدرجن رجالاً إلـى مضـاجعهن ويقتلنهم بعد ليلة حب ومجون، والرجال الـذين يغتصـبون المرأة ثم يقتلونها. وغير ذلك من أحداث يختلط فيها العشـق والجنس بالعنف والموت، فأجد أن دائرة العبث قد أحكمـت حلقاتها، وأننى من حيث لا أدرى أحقق انسجاماً بين الفكـرة والتطبيق، وما حياتى بالليل إلا امتداد لمـا أكتبـه بالنهـار. ولأمر ما أحسست فى تلك اللحظات بأننى وقعت أسيراً فـى شراك نصبتها لى ألف ليلة وليلة. إنها هى التى تسـتخدمنى ولست أنا الذى يستخدمها لنيل شهادته. وهى التى تكتبنى بدلا

من أن أكتبها. تبسط نفوذها على عقلـى وقلبـى وسـلوكى، وتجعلنى أداة فى يدها، لا أتكلم إلا بصـوتها ولا أنشـغل إلا بقضاياها وهمومها.

- أريدها أن تكون إضاءة لعبقرية الخيال..

ما أكثر ما نخدع أنفسنا فنحسب الوهم حقيقة. ظننـت واهماً أننى اخترت ألف ليلة وليلة، موضوعاً لرسالتى، فـى حين أنها هى التى اختارتنى موضوعاً لرسـالتها، وعينتنـى مندوباً لعصرها، وصبغت حياتى بألوانها. وأيقنـت بأنـه لا طريق أمامى لكى أسترد حريتى، وأعود إلى شخصيتى التى سرقتها الأسطورة، إلا بـأن أنتهـى سـريعاً مـن إنجـاز أطروحتى. إننى لم أستطع أن أفهم ما يقوله عدنان، لأننى لا أنصت إليه بمسامعى، وإنما أسمعه وأتلقاه بمدارك الف ليلـة وليلة، فأجده خالياً من المعنى، بعيداً عن عوالمهـا التـى لا تعتنى إلا بأعراس القلب العاشق وهمومه، وأفـراح الجسـد وصبواته ومباذله. إننى لا أنكر ما ألقـاه مـن متعـة فـى صحبتها. ولكننى لا أريد أن تكون حياتى ارتهاناً كاملاً لهـا. وأن أظل كائناً لا يقف على الأرض، ولا يطير فى السـماء،

معلقاً على الدوام، بخيوط الحرير العنكبوتية، التى نسـجتها حولى، وشدتنى إليها، امرأة سرابية، اسمها شهرزاد.

قررت إنهاء الرسالة بأقصى مـا أسـتطيع. وحـددت العطلة الصيفية القادمة موعداً لإنهائها. وصرت أكتبها وأنـا مسكون بذعر حقيقى. خائف من أن تهزمنى، فأتركها وأنفض يدى من الدراسة كلها.

انشغلت ساندرا بفرقة التمثيل، ودعتنى لأن أذهب معها فاعتذرت. تحررت من عبء السهر والشراب معها، فصرت أقضى وقتى كله بين المكتبة والبيت حيث ألتقى بها عنـدما تعود إليه ليلاً. وأثناء ذلك قابلت ليندا. ذهبت أحضر حفـلاً صغيراً أقامه عدنان بمناسبة زواجه، فوجدتها هناك. تناولنـا الغداء وخرجنا نتمشى قليلاً بمحاذاة حديقة الحيوانات. جلسنا فوق مقعد يشرف على منطقة من الحديقـة تمتلـئ بألعـاب ومراجيح الأطفال. كان يوم أحـد، وبـرغم الشـمس التـى أشرقت، فقد كان البرد لافحاً. ارتدت معطفاً رماديـاً فـوق جلباب النساء الحوامل، وقد بدت استدارة بطنها توحى بـأن ميعاد مجىء الصغير، أضحى قريباً.

- ها نحن نلتقى مرة أخرى.

كان عدنان قد أخبرنى بأنه سيدعوها، فلم يكن وجودها فى بيته مفاجأة لى. ظلت ترمق الأطفال وراء سور الحديقـة وهم يركبون المراجيح، ولم تقل شيئاً.

- ظننت واهماً ذات يوم أن علاقتنا لن تنتهى أبداً.

ما فائدة الحديث عن ماض لا يثير اهتمامها. انتقلـت إلى الحاضر أسألها عن ظروف حياتها وكيف تقضى وقتهـا فى ذلك الخلاء.

- أتسلى بكتابة مذكرات والدى عن سنين خدمته فـى الهند.

لا أعتقد أن الكتاب سيجد ناشراً، ولا أظـن أن أحـداً يهمه ما حدث لوالدى فى الهند. ولكننى وجدتها وسيلة مريحة ومسلية لتمضية الوقت.

مرت لحظة سكون وصمت. شردت خلالهـا لينـدا، فأعدتها من شرودها قائلاً:

- هل تقابلين دونالد؟

لم يفاجئها السؤال. نظرت نحوى وكأنها أدركـت مـا أرمى إليه.

- ليس كثيراً. ثلاث أو أربع مرات منذ أن انفصـلنا. أخبرنى فى إحدى هذه المرات إنه التقى بك.

لا بد أنه أخبرها أيضاً بما قاله لى. بكل تلك الأسـرار التى أخفها عنى والتى لا يهمنى منها الآن، سـوى مسـألة واحدة هى أننى والد هذا الطفل الذى سيخرج قريباً إلى الدنيا.

كنت فى تلك اللحظة أفتش عن مشاعر الأب فى نفسى عندما سمعتها تقول:

- لا أدرى ما أهمية أن تعرف أنك والده أو لا تعرف.

قالتها وهى لا تزال تنظر إلى أطفال الحديقة. بـرغم قسوة عبارتها، فإننى حقاً لا أدرى ماذا سيتغير فى مجـرى الأحداث، إذا عرفت بأن هذا الطفل جاءها عن طريقى. إنـه طفلها، وسيبقى لها، وسيحمل اسم الرجل الذى كان زوجهـا. وما حياتى هنا إلا حياة مؤقتة. سطور ضـئيلة فـى كتـاب العمر. سأضع لها نقطة النهاية، مع نهاية هذا العام الدراسى. هامشاً على متن الكتاب. هامشاً صغيراً. ضئيلاً. فلماذا أدعى لنفسى حقاً ليس لى، أو أبحث عن التزامات أعـرف أنـه لا سبيل إلى الوفاء بها. من حق ليندا ألا تضع لهـذه القضـية اعتباراً كبيراً، وأن ترى نفسها مثل شجرة حملت إليها الريح

اللقاح. ولن يغير فى الأمر شيئاً من أية شجرة جاء هذا اللقاح. وجدت نفسى أقول:

- إن ذلك يعنى لى شيئاً كبيراً.

قلتها دون أن أعرف ما يعنيه لى، ودون أن أفكر بما سوف أضيفه من عبارات تبرر هذه الجملة. أدارت نحوى وجهها، ونظرت بعينين تمتلئان فضولاً، تنتظر بقية الكلام.

- ما جاء هذا الجنين إلا ليؤكد بأن علاقتنا فعلاً لن تنتهى.

مرة أخرى أرى نفسى غير مدرك لما أريده بالتحديد سوى رغبة غامضة، تطالبنى بأن أسعى للفوز بهذه المرأة من جديد. رأيتها تبتسم وكأن ما أقوله شىء لا يستحق سوى الإشفاق والرثاء. إلا أن ابتسامتها أشعلت فى نفسى تلك العاطفة الحارقة التى أحملها لها. عدت عاشقاً لا يرى فى الدنيا إلا هذا الخط الهابط من حاجبيها إلى صدرها، الذى سحرنى عندما رأيتها لأول مرة. قلت وأنا أتأمل الفلقة الصغيرة فى شفتها السفلي:

- يجب أن نتزوج يا ليندا.

قلتها دون تفكير. مستجيباً لإلحاح باطنى عبر عن نفسه قبل أن يسأل أو يستثير إرادتى الواعية. لم تبد ليندا اندهاشـاً أو اهتماماً. وكأنها تدرك أنه مجرد تعبير عن رغبة طارئة، أعرف أنا أيضاً أنه لا سبيل إلى تحقيقها. لا شك أننى أعنـى ما قلته هذه اللحظة. ولكن لحظات أخـرى سـوف تـأتى، وسوف تجعلنى أدرك أن هناك أشياء فى الحياة لا يمكن القفز فوقها، وأن الزواج شىء آخر أكثر تعقيداً من مجرد رغبـة انتقلت من قاع الوعى إلى سطحه الذى يتعامل مـع الـدنيا. ولكن هل حقاً أستطيع أن أتزوجها ؟. وهل يفلـح اسـتخدام المظلات والقفز وراء التخوم والتحصـينات فـى معالجـة العلاقات الإنسانية فى تبدلها؟ لعلنى لا زلت مأخوذاً بالأسلوب الذى عالج به عدنان قصة حبه مع المرأة الهنديـة، فجئـت أعرض عليها الزواج، لأختبر قدرتى على أن أكـون جـاداً وملتزماً، و"أضع نفسى فجأة أمام ارتباط أتجاوز بـه حيـاة اللهو التى أعيشها. أدرك الآن أننى ما زلت أحبها. ولم أكـن أحتاج إلا أن تظهر أمامى بهذه الأنوثة الهادئة الحنونة، التى لم يفلح فى اخفائها مظهر أم فى آخر أيام حملهـا، أو هـذا

الشحوب الطفيف الذى يكسو ملامحها، لأعرف أننـى كنـت واهماً عندما ظننت بأنى تحررت من سحرها.

لا يهمنى كثيراً "أن أكون أباً لهذا الطفل الذى يتكـور نائماً فى أحشائها، أو لا أكون. ولكنه الآن جاء، يمنحنى سبباً يوصلنى بهذه المرأة، ويفتح لى طريقاً للفوز بها. معذرة أيتها العزيزة ساندرا. إن عاطفتى نحوك لا تقل حرارة. ورجـال ألف ليلة، وامراؤها، الذين يعشقون مائة امرأة فى وقت واحد يدركون ما أقول. الفرق بينك وبينها. أن ليندا امرأة للبيـت، وأنت امرأة للمدى. ليندا امـرأة للأسـرة والـزواج ودفء العلاقات العائلية، وانت امرأة قطعت حبل السرة الذى يشدها إلى أسرتها، ووهبت نفسها لسهوب الحرية التى تضيئها نـار القلب. إننى لا أستطيع أن أتصورك فـى دور الزوجـة ولا أرى أن طبيعتك الحرة ترضى بمصير كهذا المصير أو دور كهذا الدور. ستبقين على الدوام، فراشة تطـوف الحـدائق، وتذوب فى اللهب. أو غزالة تشرب الندى وتـركض وسـط حقول الشمس.

وبصوت بارد، قالت ليندا:

- إننى لا أفكر فى الزواج.

إنها لا تريد أن تغفر، ولا تريد أن تنسى. لم أشـأ أن أستعجل الأشياء. سألتها عندما انتهى اللقاء، أن تمنح نفسـها فسحة للتفكير فيما قلته لها. لا من أجلى وأجلها فقط، وإنمـا أيضاً من أجل هذا الطفل الذى لا أريـده أن يولـد ويتربـى كالأيتام. سأمهلها حتى تنتهى من حملها، وسأزورها بعد ذلك لأرى الطفل وأعرف رأيها.

ذهبت إلى حانة العناقيد مبكراً، أشرب كأساً وأنتظـر ساندرا. كان الرجل العجوز يوقد المدفأة، فجلست قريباً منـه محاطاً بالدخان ومثقلاً بالخطايا. إنها لا تعرف شيئاً عن ليندا. فماذا لو جئت الآن أعترف لها بما حدث، وأقول بأننى التقيت بها هذا المساء، أعبر لها عن حبى، وأطلـب أن تقبـل بـى زوجاً. منذ أسابيع مضت، أسمعتها فى هذا المكـان "أكثـر الشتائم فحشاً، لأننى رأيت فى سـلوكها شـيئاً لا ترتضـيه الأخلاق. فماذا أسمى اليوم هذا الازدواج وهذه الثنائية فـى السلوك والتفكير؟ وكأننى كائن مقسوم إلى نصـفين. أحبهـا بنصف وأهب النصف الثانى لامرأة أخـرى. أفكـر معهـا بأسلوب وأفكر مع نفسى بأسلوب آخر. أليس غشاً أن أقحـم الآخرين فى بؤس التناقضات التى أحملها، وأبحث عن غطاء

لدى رجال ألف ليلة وليلة وأسلوب تعاملهم مع حريمهم، ناسياً أننى أستعير قوانينهم وشروط حياتهم، لأستخدمها اسـتخداماً مشوهاً، وأنقلها إلى زمن يختلف عن زمـانهم. ولكـن مـا أحسست به من كدر تبدد سريعاً مع أقداح الشراب، أدركـت أن ما قلته لليندا كان كلاماً لا يعنى شيئاً خارج تلك اللحظة. وأننى عبثاً أحاول أن أعيد النبض إلى علاقة حب انقضـت وانتهى زمانها. وكطائر ينفض الغبار عن ريشه بعد انتهـاء العاصفة، نفضت ذكرى لقائى بليندا، ومنحت أجنحتى فرصة التحليق مع ساندرا فى عوالمها المدهشة.

كانت أعياد الكريسماس قد بـدأت تسـتقطب اهتمـام الناس. وانتصبت فى الشوارع وأمام الدكاكين أشـجار عيـد الميلاد تتدلى منها عراجين الضـوء. وامـتلأت واجهـات المتاجر وشرفاتها، بتماثيل بابا نويل بطربوشـه المضـحك، ولحيته الكبيرة البيضاء، مثقلة جيوب معطفه الأحمر بالهدايا لمن يملكون مالاً ويقدرون على الشراء. وجـاءت سـاندرا تحمل كل يوم دعوة للمشاركة فى هذه الحفلات التى يقيمهـا الناس فى البيوت. لم تذهب لقضاء يوم العيد مع أهلها، ولـم تأت لهم على ذكر. سألتها عن السبب، فلم تزد على أن قالت:

- أنت أهلى.

أسعدنى قولها. واعتبرت أيام العيد إجازة من القـراءة والكتابة، فانصرفت إلى الحياة التى قادتنى إليهـا سـاندرا. نذهب كل ليلة إلى بيت. نأخذ معنا شراباً نضيفه إلى قنـانى الشراب، ونغرق مع الغارقين فى طوفان الخمـر والـرقص وموسيقى الصخب. نسهر أغلب ساعات الليل، ثم ننام النهار كله، استعداداً لحفلة جديدة. وأقامت ساندرا حفلاً فى غرفتى، أرادته أن يكون ختاماً لموسم الاحتفالات، متوافقاً مع نهايـة العام، دعت إليه كل من قام بدعوتنا من أعضاء فرقة التمثيل وزملاء الجامعة. أدهشنى أن أجد الغرفة تتسع لأكثـر مـن ثلاثين شخصاً يشربون ويرقصون. اقتضانا إعـداد الغرفـة جهداً كبيراً، أخرجنا كل محتوياتها إلى سقيفة البيت، ونقلنـا بعضه الآخر إلى غرفة ساندرا. حتى تحولت إلى صالة قادرة على استيعاب هذا العدد. وقمنا بتزيين سـقوفها وجـدرانها بأشرطة الورق الملون والبالونات والمصابيح. ارتدت ساندرا فستاناً أزرق كثير اللمعان، يكشف عن كتفيها وجـزء مـن صدرها ويطبق بقوة علـى خصـرها، وتصـنع أطرافـه المفضضة دائرة من الوهج تحيط بساقيها. ورقصت فبـدت

كراقصات الباليه تألقاً ورشاقة. فاجأتنى عندما دعـت إلـى الحفل تلك الصبية التى نامت ذات ليلة معها. وكأنهـا أرادت أن تقول لى بأن سوء ظنى لـم يكـن صـحيحاً، وأن تلـك المغامرة لم تلحق بالصبية ضرراً أو تقودها إلى الانحـراف. فقد جاءت مادلين تصحب صديقاً فى مثل عمرهـا. فرحـت بمجيئها، واعتنيت بصرف شراب لها، وقمت بتقديمها، وتقديم فتاها، لمن أعرف من الحاضرين. وما أن امتد بنـا السـهر قليلاً، حتى وجدنا أننا بحاجة إلى أن نفـتح غرفـة سـاندرا بالطابق الثانى لرجل وامرأة من أعضـاء الفرقـة أعياهمـا الرقص، ويريدان التقاط أنفاسهما بعيداً عن الصـخب. كنـا نعرف السبب. وقدمنا لهما المفتاح بكامل الفـرح. ومـا أن عرف بقية المدعوين بأمر هذه الغرفة حتـى تكـاثر عليهـا الطلب. وضعنا المفتاح فوق رخامة المطبخ، قريباً من قنانى الشراب، وصار ما أن ينتهى عاشق من استعماله للقاء رفيقته حتى يعيد المفتاح إلى مكانه كى يأخذه عاشقان آخران. وجاء ضيفان جديدان من أصدقاء ساندرا، فذهبت أبحث عنها كـى تأتى لتحييهما، فلم أجدها. أدركت أن ليلة مثـل هـذه تليـق بإحدى مغامراتها الصغيرة اللذيذة. ولكن من يكون الرجـل

الذى اختارته بطلاً لهذه المغامرة؟ كانت مادلين تراقص ولداً يلتصق بها ويدفن وجهه فى شعرها، ظننته صـاحبها. ثـم عرفت عندما انتهى الرقص أنه لم يكن هو. فتشت عنه فلـم أجده، إذن فقد اختارته ساندرا ليكون فتاها هذه الليلة المباركة التى تقرع فيها الأجراس وداعاً لعام قديم، واسـتقبالاً لعـام جديد. تساءلت عن سر هذه المعاملة الغريبة التى تعامل بهـا مادلين. أستطيع أن أدرك الآن إلى أى مدى عشقت سـاندرا هذه الفتاة. عشقتها منذ أن رأتها لأول مرة. منـذ أن قالـت مبهورة »ان لها جمالاً يستحق قصـائد الشـعر«. وكرهـت عشقها الذى رأت فيه شيئاً لا يتفق مع طبيعتها. وما سـاقتها إلى معاشرتى إلا بهدف أن تصنع هـذه المعاشـرة مسـاحة تحميها من نفسها، وتباعد بينها وبين الفتاة. وعنـدما فشـل مشروعها. استجابت لتلك العاطفة المحرجة، المهينة لأنوثتها، واستدرجت الفتاة إلى فراشها. وما دعتها اليوم إلا بهدف أن تفوز بلحظة حب معها. رأتها تأتى وتصحب معهـا فتاهـا. فأغاظها ما رأت، وسعت إلى الانتقام بـإغواء هـذا الفتـى والتسلل به إلى غرفتها. إن ساندرا بكل ما تحمله من حـب للبشر، تستطيع أن تكون شـريرة إذا أرادت. وأنـا أيضـاً

أستطيع أن أكون شريراً هذه الليلة. لن يقتضى ذلـك. إلا أن أجعل مادلين تعرف ما يفعله صاحبها فـى الغرفـة العليـا، وسيكون سهلاً بعد ذلك أن أتدبر ساعة حظ معهـا. اللعنـة، قلت فى خاطرى، لماذا أفسد على الناس متعتهم ؟. ليتناكحوا، ويتقافزوا فوق بعضهم بعضاً مثل الجنادب، فما الذى يضـير فى ذلك ؟. لن تنتهى هذه الليلة دون أن أجد طعاماً لحيـوان الغريزة الذى يعوى فى دمى مطالباً بحصته. عادت سـاندرا يتبعها ذلك الولد. وضعت المفتاح فـى مكانـه، وركضـت ترحب بضيوفها الجدد. هل بقى أحد لم يضاجع أحـداً أيهـا الناس، فمفتاح الشهوة يتعذب وحيداً فوق الرخام. راودتنـى فكرة أن أخبئ المفتاح فى جيبى لأحرم الآخرين من متعتهم، إلى أن أحقق متعتى. ولكن يداً امتدت تسحبه وتختفى. أنشـأ بعضهم حلبة للرقص، فاتخذت لنفسى مكاناً يجاور مـادلين. وضعت يدى فى يدها، وسرت فى جسمى حرارة الاتصـال بها، وتصاعدت داخل الصدر أبخرة الندم لأننى أضعت ذات مرة، فرصة أن أرى نهديها دون غطاء، انتهـى الـرقص. ففكت يدها من يدى ووثبت إلى صاحبها الذى اختار زاويـة فى الغرفة يستند إلى جدارها يتقاسم مع رجل آخر سـيجارة

محشوة بالأعشاب المخدرة. لقد أطعمته ساندرا من حدائقها، وأخذته فى زيارة تدير الرأس إلـى كوكبهـا، وأرتـه تلـك التعويذة الخضراء الموشومة على صفحة فخذها، فعاد منهكاً ومنتشياً. بدأ بعض الناس يستأذنون فى الذهاب، بعد أن امتد بنا السهر واستنفدنا ما جاء به الضيوف من قنانى الشـراب. تعبت أقدام الراقصين من الرقص، كما تعبت "أجسادهم مـن الصعود والهبوط فوق سرير الحب، وستنتهى هذه الليلة التى باركها باخوس إله الخمر والمـرح، دون أن أجـد لحيـوان الغريزة شيئاً يمضغه. رأيت باخوس يدفع فى طريقى بامرأة الملابس فى فرقة التمثيل. ثملة لا تعى شيئاً، ولها جسد يميل إلى السمنة، ولكن لا بأس، أخذت المفتاح، سـرت أسـندها، حتى وصلت بها إلى الغرفة التى امـتلأ مـدخلها بالأمتعـة المنقولة من غرفتى. تركت المرأة تذهب إلى الحمام، وتسلقت الكتب والحقائب حتى وصلت إلى السـرير الملـوث ببقايـا الولائم الجنسية، أنتظرها هناك. سمعتها تتقيأ داخل الحمـام، فعافت نفسى الاقتراب منها. أعدتها إلـى الحفـل، وأعـدت المفتاح إلى مكانه، ووقفت أستمع إلى ضحكات باخوس الذى أوقعنى فى هذا المأزق.

- كانت حفلة رائعة.

ظلت ساندرا تردد هذه الجملة منذ أن صحونا فى منتصف النهار، نزيل آثار الحفلة ونعيد إلى الغرفة نظامها وأثاثها. قلت لها ونحن نجلس قريباً من المدفأة فى حانة العناقيد، بعد أن مشينا مشواراً تحت الثلج:

- كان الفضل فى نجاحها لغرفتك، التى تحولت إلى طاقة سحرية ينفذ منها الناس إلى عالم الحب والمتعة.

- رأيتك وأنت تجهد نفسك فى جر تلك الفتاة الثخينة إليها، فلم يعجبنى ذوقك.

- أما أنت فقد كان ذوقك بديعاً وأنت تختارين ولداً له قصة تتدلى فوق عينيه كنجوم أفلام الثلاثينات.

- واحدة بواحدة.

لم أشأ أن أحرجها، وأسألها عن سر ملاحقتها لمادلين ولم أجد رغبة فى أن أعترف لها بخيبتى مع المرأة البدينة. جعلتها تعتقد بأننى أتساوى معها فلا ربح ولا خسارة. اكتفيت بأن ضربت كأسى بكأسها لكى نشرب نخب هذه الروح الرياضية التى نواجه بها الثلوج والعواصف قائلاً:

- بداية طيبة للعام الجديد.

انتهى موسم الاحتفالات فعدت إلى بحثى. أهملت الوعد الذى قطعته على نفسى بزيارة ليندا، التى أنجبت قبل أيام من نهاية العام ولداً، كما أخبرنى عدنان. أنه يأتى إلى الدنيا مـع أعياد ميلاد المسيح. فلتباركه السماء، وليتربـى يتيمـاً هـو الآخر لا أب له إلا ا . سوف لن أضجرها بزيارتى، ولـن أثقل عليها بمزيد من الأسئلة.

ليس هناك فى الخارج سوى عواصـف الـثلج التـى أشاهدها من دفء وأمان المكتبة، فتبعث فى نفسى إحساسـاً مبهجاً ببكارة الأشياء، أجلس فى مواجهة جدار زجاجى يطل على الحديقة. أقرأ وأكتب وأرقب عبقرية الطبيعة وهى ترسم لوحاتها، عندما تنهمر ندف الثلج من سماء سـوداء كالليـل، وتسقط فوق الأشجار، فتحيلها إلى تكوينات من البياض الذى يسطع كالضوء فى حديقة الشتاء. عادت ساندرا إلى تمثيلها. أرضتها تلك المغامرة، فأمضت الأشهر الأولى مـن العـام الجديد دون مغامرات. سعيدة بأداء دورها فـى المسـرحية الجديدة، المثيرة، »أكاديميا«. التى كتبها أحد أعضاء الفرقـة وملأها هجاء للمؤسسة الجامعية ونظامها، وانتصر لقضـية »لاري« الذى رفض الجامعة واشتغل بائعاً للخمور. أثـارت

المسرحية قبل أن تعرض جدلاً عنيفاً داخل الوسط الجامعى، ونقلت الصحف الطلابية الجدل الذى يدور حولها. اعتـرض مجلس الجامعة على تقديمها ووقف اتحـاد الطـلاب موقفـاً حازماً مع الفرقة ومؤلفها. ونشرت صحيفة الاتحـاد تحقيقـاً صحفياً مع ساندرا، دافعت فيه عن رسالة الفرقة وحقها فـى فضح الممارسات التى تسـىء إلـى التعلـيم وتعطـل دور الجامعة، التقى بها ليلاً وهى تذاكر دورها، أو تناقش معـى فكرة خطرت لها حول اسلوب أدائها للدور. وهو دور طالبة تستخدم جمالها استخداماً عابثاً. تقـوم بـإغواء المدرسـين واستدراجهم للنوم معها، والحصـول مـنهم علـى أسـئلة الاختبارات التى سيضعونها. ثم تأتى بعد ذلك لتفضح علاقتها الجنسية معهم، وتسعى للتشهير بهم. كـان الـدور عـامراً بالإثارة والمغامرة. أحبته ساندرا لأنه يعرى عالم النفاق الذى تكرهه. وكانت تؤديه بجدية وصرامة، وتقوم بإلقاء حوارهـا مثل القساوسة الذين يلقون دروسهم الدينية. يملأهـا النقـاش الدائر حول المسرحية إيماناً بمضمونها، فينعكس ذلك علـى تمثيلها وتفسيرها للدور. كنت أختلف معها حول هذا التفسير الذى يدفعها إلى تزييف شخصية الفتاة، وإلباسها ثوبـاً لـيس

لها. إن الفتاة لا تفعل ما تفعله من أجل فضح التناقض فى سلوك المعلمين، وإنما تفعله لهواً وعبثاً واستهتاراً بمشاعر الآخرين، وابتزازاً لضعفهم وعواطفهم. وسوف لن تخدم مضمون المسرحية إلا عندما تنسى هذا المضمون فلا تذكر إلا الفتاة العابثة، الضاحكة، الشريرة. سألتها أن تودى الدور بهذا الفهم فلم تقتنع، وعندما واصلت إلحاحى، ووافقت أن تؤديه على سبيل التجربة، أذهلتها المفاجأة. بدأ الدور يكشف عن إمكانيات كوميدية كانت مخبأة تحت ثقل الأداء الوعظى الكنائسى. وبدأ إيقاع المسرحية البطىء ينقلب إلى إيقاع سريع، ملىء بالحيوية والتدفق والمرح. ولم يكن صعباً بعد ذلك أن يتبنى المخرج هذا التفسير ويسعى إلى تعميقه وتطويره. جاء موعد تقديم المسرحية، فتزاحم الناس لحجز مقاعدهم. وخصصت الفرقة أسبوعاً لعرضها بالمسرح الجامعى. جلست مع المشاهدين ليلة الافتتاح، أصفق لساندرا إعجاباً بأدائها المتفوق الفكاهى لدور الشيطانة الصغيرة. وكان الجدل الذى دار حول المسرحية، حافزاً لأن ترسل الصحف الكبيرة مندوبيها للكتابة عنها. ولقى دور ساندارا ثناء من النقاد واعترافاً بمواهبها. ولم تنته مدة عرض

المسرحية حتى جاءها عقد من المسرح التجارى لأداء الدور الرئيسى فى مسرحية تقدم الصيف القـادم. كانـت سـعيدة بنجاحها، وبالصحف التى تنشر أحاديثها وتصاويرها، وبالعقد الذى جاء ومعه مبلغ من المال، لينقلها من مسرح الهواة إلى مسرح المحترفين. فكانت تأخذ الصحيفة، ترقص بها وسـط الغرفة، وتتأمل اسمها وصورتها قائلة"

- ساندرا تاور، اسم يليق بنجمة كبيرة.

- لا أحد يحزنه نجاحك سواى. لأنك سـوف تنتقلـين إلى سماء النجوم وتتركيننى وحيداً فى هذه الغرفة، أعاشـر الأشباح.

- أنك أنت صاحب الفضل فى هذا النجاح، ومكافأة لك سأجعلك مدير أعمالى.

اقترحت عليها أن نقضى عطلة عيد الفصـح بمدينـة لندن التى تشهد مهرجاناً دولياً للسينما. فلابد أن سمعتها قـد سبقتها إلى هناك، وسأكون سعيداً بأن أباشر مهمتى منذ الآن فى إدارة أعمالها والاتفاق مع الشركات التى تسعى للتعاقـد معها. أبدت حماساً للفكرة وهى تسخر من سخريتى بها، قائلة بأن العقود ستأتى طال الزمن أو قصر، واشترت بـالعربون

الذى جاءها من المسرح التجارى ثلاثة فساتين جديدة تحضر بها العروض. وقبل موعد السفر بيوم واحد اختفت ساندرا. لم تعد ليلاً إلى البيت فأدركت أن الإثم هذه المرة ليس إثمها، وإنما أثم الربيع الذى جاء بعبيره وألوانه وسهامه الذهبية، يوقظ فى قلبها شهية الحب واللعب، فذهبت خلف إحدى حكايات عشقها الطارئة، وستعود فى الصباح مع موعد القطار الذى سيقلنا إلى المهرجان. جاء الصباح ولم تعد. مضى اليوم كله، وجاء اليوم التالى دون أن تأتى. بدأت أقلق عليها، حائراً لا أدرى إذا كان من واجبى إبلاغ الشرطة أو مواصلة الانتظار. فلعلها التقت بقريب لها، أعادها إلى بيت أهلها بمناسبة الأعياد. إننى لا أعرف من هم أهلها ولا مكان إقامتهم بمدينة أدنبره التى تقول بأنها مدينتها. وأميل إلى الاعتقاد بأنها فتاة لا أسرة لها. عاشت بملجأ للأيتام فكرهت أن تأتى على سيرة أيامها الماضية. آثرت الانتظار ليلة أخرى قبل تقديم بلاغ عنها إلى الشرطة. وما أن جاء منتصف الليل، حتى جاءت ساندرا تطرق بابى. لم أستطع أن أتعرف عليها للوهلة الأولى. كانت تتكوم أمام الباب فى هيئة غريبة. حسبتها امرأة شقية ممن أشاهدهن نائمات تحت

القناطر وأمام حانات الشوارع الخلفية، جاءت تطلب إسعافاً سريعاً. كانت ترتعش مرضاً وأوجاعاً وحمى. وكان صوتها وهى تستنجد باكية وتنادينى باسمى هو الذى هدانى إلى أنها ساندرا وليست امرأة أخرى. سحبتها من عتمة السقيفة، إلى أضواء الغرفة، أتعرف على ما أصابها. كانت الكدمات والخدوش تملأ وجهها وعنقها وذراعيها. والأتربة وبقايا الأعشاب عالقة بشعرها. تمزقت أطراف فستانها وتلوثت بالوحل والدم. وضعتها فوق السرير، وسقيتها حليباً ساخناً حتى استعادت هدوءها. أردت أن أذهب بها إلى المستشفى، فأخذت منديلاً تجفف به الكدمات وتزيل آثار الدم عن وجهها، قائلة بأنها تفضل الانتظار إلى الصباح. استطعت أن التقط من خلال الشهقات ونوبات البكاء التى تداهمها، ما كانت تقوله عن محنتها. كانت فى طريقها للقائى بالحانة عندما استوقفها وفور خروجها من البيت، شاب صغير مبدياً إعجابه بدورها فى مسرحية »أكاديميا«. كانت سعيدة بهذا المعجب الذى يعاملها معاملة النجوم الكبار، ويطلب الاحتفاظ بتوقيعها للذكرى. أرادت أن تعرف ما الذى أعجبه فى تمثيلها، فرأته يخلط بين حياتها الخاصة وبين الدور الذى

قامت به. أعجبتها سذاجته، وراق لها أن ترافقـه لاحتسـاء كأس معه، جاء بصاحب له يقود سيارة أقلتهما. ثـم رأتهمـا يلتقطان أصدقاء آخرين من أحد الأرصفة. وجـدت نفسـها محشورة فى السيارة مع خمسة فتيان ينطلقون بهـا خـارج المدينة. أدركت أنها وقعت فى أيدى مجموعة عابثة تريد بها شراً. طلبت من السائق أن يعيدها إلى المدينة فلم تسـمع رداً سوى الضحكات. ولجأت إلى الحيلة فادعت أنها ترغب فـى قضاء الليل معهم وتريد أن تهاتف أهلها من إحدى محطـات الوقود لكى لا يشغلهم غيابها. انتعش أملها فى النجاة عنـدما رأتهم يوافقون على فكرتها. ولكن أحدهم أخذ فـردة حذائـه واستخدمها سماعة للهاتف. اخترع رقماً وأدار قرص الهاتف الوهمى ووضع الحذاء فى وجهها، قائلاً بأن أهلها ينتظـرون على الخط. ازدادت ضحكاتهم صخباً وقبحاً. رأوهـا تعـالج الباب عندما أبطأت السيارة وهى تترك الطريـق الرئيسـى وتدخل طريقاً جانبياً مترباً. فاستل الولد الذى بجوارها سكيناً يهددها به، ويمنعها من القيام بأية حركة. وصلوا بهـا إلـى منطقة مظلمة داخل الغابة. ألقوا بها فوق الأرض ينزعـون عنها ملابسها ويحاولون اغتصابها. أصرت على أن تقاومهم

وتكحت التراب فى وجوههم وتطلق صرخات النجدة. جـاء صاحب الخنجر يضغط به على عنقها حتى أسال منها الـدم، قائلاً بأنه سيكمل ذبحها إذا لم تتوقف عن المقاومـة. أبقـوا الأضواء الصغيرة بالسيارة مفتوحة، وتناوبوا على اغتصابها الواحد بعد الآخر. انتهوا منها ولكن محنتها لم تنته. فقد ظلوا يشربون ويهرجون ويعودون إلى اغتصابها ويتبارون حـول من يستطيع أن يمارس الجنس معها أكثر من الآخرين. رأتهم فى الصباح نائمين، فأرادت الهروب. لم تستطع أن تمشى إلا مسافة قصيرة بسبب ما ألحقوه بها مـن أوجـاع. اكتشـفوا هروبها وجاء أحدهم يلاحقها بالسيارة ويهددها بالسحق تحت عجلاتها. احتمت بجذع شجرة، فظل يطوف بها ويحاصرها، ويقفز بسيارته نحوها حتى يضرب الشجرة، وهى مهسـترة تبكى وتتقى الموت بهذه الطريقة البشعة. إلى أن جـاء بقيـة أصحابه يعيدونها إلى مكمنهم ويربطونها إلى جـذع شـجرة لكى لا تهرب منهم. وظلوا يعبثـون بهـا وقـد استسـلمت لمصيرها وأيقنت أنها ستموت بين أيديهم تحت تلك الشجرة. وفى اليوم الثالث نفد ما معهم من شراب، فـانتظروا هبـوط

الليل وجاءوا بعد أن نامت المدينة يرمون بها عنـد المكـان الذى أخذوها منه، ويهددونها بالعقاب إذا أبلغت عنهم.

من أين أجد كلمـات تصـلح لمواسـاتها. أرادت أن ترضى معجباً صغيراً وتدخل على قلبه البهجة، فإذا بها تلتقى وجهاً لوجه بهذا الشر المجانى الذى لا يعرف هدفاً ولا حداً. وتتحول مغامرتها الصغيرة اللذيذة إلى سفر موحش فى قلب الغابة البشرية. ستقدم غداً بلاغـاً للشـرطة. وسـتحاول أن تعطى أوصافاً لأفـراد العصـابة. وقـد يعثـرون علـيهم ويسوقونهم إلى السجن. ولكن هل ستعود ساندرا تلك الفراشة الجميلة التى ترتدى ألوانها وتسافر بأجنحة العشق عبر المدى المفتوح الذى تضيئه شمس القلب.

أرادت أن تذهب إلى الحمام، فعاودها نزيف الـرحم. استهلكت كل ما فى البيت من مناديل الورق. ولكن النزيـف استمر حتى أغمى عليها. خرجت راكضاً لأهاتف الإسعاف. جاءت السيارة، ومعها الطبيب الذى قام بفحصها. قـدم لهـا إسعافاً سريعاً وأمر بنقلها إلى المستشفى. لقد تـورم الجـرح وسوف تحتاج ساندرا إلى عملية عاجلة لإزالة الرحم. رافقتها وهم ينقلونها ممدة فى صندوق السيارة، ورويت أثناء الرحلة

قصتها للطبيب. عرفت رقم العنبر، ومكان السـرير الـذى خصصوه لها. ثم تركتها لعنايـة الأطبـاء، وعـدت مـثقلاً بالفجيعة والأسى، إلى غرفتى. أدركنى الصباح دون أن أنام. كنت منهكاً، فأحكمت إسدال الستارة فوق الشـباك المغلـق. طردت الضوء من غرفتى ونمت فلـم أسـتيقظ إلا بعـد أن انقضى نصف النهار. اشتريت وأنا فى طريقى إلى المستشفى باقة ورد. وذهبت إلى عنبر النساء فوجدت امرأة أخرى تنام فى سريرها. هل ماتت؟ هذا ما صرت مفجوعـاً ومجنونـاً أحاول أن أعرفه من الممرضة التى وقفت ساهمة لا تجيب. ولأنها لم تبدأ المناوبة إلا منذ ساعة مضت، فقد أحالتنى إلى ممرضة أخرى تجلس فى غرفة التمريض وتنشر أمام وجهها صحيفة المساء. أبلغتنى بأن ساندرا نقلـت إلـى مستشـفى خاص. استعدت نبضى الذى توقف لبضع لحظات، ونظرت إلى الممرضة علها تزيدنى شرحاً. لم أستطع أن أفهم لمـاذا تنتقل من مستشفى حكومى إلى آخر يطلب أمـوالاً لا قـدرة لساندرا على تقديمها له. لمحت فى الصحيفة التـى تقرأهـا صورة ساندرا، فأخذت منها عنوان المستشفى الذى انتقلـت إليه، وخرجت أشترى الصحيفة وأجلـس فـوق أول مقعـد

يصادفنى أقرأها. وجدتها تأتى على ذكر القصة التى وقعت لساندرا. تفرد مساحة كبيرة لها وتضع إشارة للموضوع فى الصفحة الأولى. ولأن مثل هذه الحوادث تقع كل يوم فقد استغربت لما أولته الصحيفة من اهتمام كبير بالقصة. لم يكن السبب لأنها نجمة المسرح الجامعى كما ذهب فى ظنى. فهذه صفة أهملتها الصحيفة. ولم تأت على ذكرها. كان الشىء الذى ألهب حماس المحررين هو أن الفتاة التى تعرضت لحادث الخطف والاغتصاب، ليست سوى الابنة الوحيدة للسير ريتشارد تاور، صاحب الشركة التى تسيطر على صناعة وتصدير الورق، والرجل الذى لعب أدواراً سياسية عندما كان عضواً فى البرلمان وأحدث خروجه العاصف من حزبه، ضجة كانت حديث الصحف. ولا أدرى لماذا ضحكت. كان قلبى مترعاً بالحزن وأنا أرى العنف والجنس الذى أبحث عنه فى الأساطير، يأتى عارياً من أثوابه الخرافية إلى دارى، ويخطف المرأة التى تقاسمنى طعامى وشرابى وسريرى. ولكن المفارقة هذه المرة كانت مدهشة إلى حد الضحك. لم يخطر ببالى أن تلك الطالبة الفقيرة التى ألفت حياة التشرد حتى حسبتها إحدى بنات الملاجئ، والتى لم تكن

تجد طعاماً غير الخبز والجبن عندما التقيت بها، أتباهى أمامها بكرمى وأطعمها من حساء الفاصوليا بالمطعم المصرى، يمكن أن تكون الابنة الوحيدة، والوريثة الوحيدة لأحد أصحاب الملايين.

طويت الصحيفة، ووضعت باقة الورد بجوارى، أفكر فيما إذا بقى موجباً لزيارتها. كنت قد جئت مسرعاً إليها لأننى كنت أظن بأن لا أحد سيهتم بها غيرى. وإنها امرأة لا أهل لها، فكان واجباً أن أكون أهلها فى أيام المرض والمحنة. واشتريت لها زهوراً لكى لا تحس بأى فرق بينها وبين من تحظى بالزهور والزيارات من ساكنات عنبرها. كل شىء تغير الآن. وها أنا ألتقى بقصة من تلك القصص التى لا أحد يجيد صنعها غير شهرزاد. وموقفى اليوم يشبه الفران الذى أشفق على صبى مريض ملقى بجوار القمامة، فأخذه وأعطاه عملاً بالفرن ليكتشف بعد ذلك أنه الوريث الشرعى للعرش. كانت أول مسرحية أرى ساندرا تمثلها، هى مسرحية دورينمات »هبط الملاك فى بابل«، وها هى المسرحية تعيد نفسها. وما أنا إلا شحات نينوى الذى هبط عليه ملاك فى شكل صبية صغيرة، جميلة، سماوية الملامح،

ثم سرعان ما اكتشفت طفلة السماء، شـرور الـدنيا وآثـام البشر، فعادت إلى سمائها، تاركة شحات نينوى يقف وحيـداً فوق الأرصفة يطلب حسنة ، ها قـد جـاء هـذا الرجـل البنكنوتى، الذى يحمل وسام الملكة، يعيد ابنته إلـى أجوائـه الملكية، ويسرق هذا الشعاع الذى أضاء غرفتـى، ليتركنـى طعاماً لليالى الصمت والوحدة. سأحمله الآن مسـؤولية مـا حدث لساندرا. فقد أوردت الصحيفة قصة خصامه مع »أبناء الأرض« الذين يهاجمونه فى نشراتهم لأنه يتلـف الغابـات ويدمرها. ولابد أن الغابة أرادت أن تنتقم لنفسها، فلـم تجـد غير ابنته هدفاً سهلاً لانتقامها، بينما بقى هو محتمياً بألقابـه وأمواله وحراسه. لتكن ابنة ملك أو إله، فأنا لا أعرفهـا إلا ساندرا التى تقاسمت معى الكـأس والرغيـف. وهـذا ورد اشتريته ليكون هدية لها، ولن أرمى به فى الطريق. ذهبـت أحمل وردى إلى مستشفى »الثـالوث المقـدس«. أرشـدنى موظف الاستقبال إلى جناحها. وجدت ممرضة تقـف ببـاب الصالون الملحق بغرفتها، تستقبل الزوار وتأخذ منهم باقـات الورد. ذكرت للمرضة اسمى وجلست أنتظر الإذن بالدخول. كان أقاربها يحيطون بسريرها عندما دخلت إليها، فأفسـحوا

لى طريقاً لأقف قريباً منها. سألتها باقتضـاب عـن حالهـا وتمنيت لها الشفاء العاجل وخرجت. لم تدم زيارتى أكثر من دقيقتين أو ثلاث. أزعجتنى النظـرات التـى كـان أهلهـا يتأملوننى بها. كدت أصرخ فى وجوههم بأننى أنا الذى يجب أن ينظر باستنكار إليكم ويتعجب من وجودكم فى هذا المكان. لأن ساندرا لا تعرفكم بمثل ما تعرفنى، ولا تنتمى إليكم بقدر ما تنتمى لى. وعندما عادت من محنتها تبحث عـن صـدر تبكى فوقه، لم تذهب إليكم وإنما جاءت تبكى على صـدرى. تفرست فى وجوههم استفزازاً وتحدياً. تكهنت بـأن المـرأة الممتلئة التى تجلس بجوارها، تحمل منديلاً تجفف به عينيهـا هى أمها. ولم أستطع أن أجد بين الحاضـرين مـن تشـبه ملامحه صورة والدها. خرجت مصمماً على أن أزورها كل يوم. لكننى بقيت أياماً متهيباً الالتقاء بذلك الجو الاسـتفزازى الذى يحيط بها. إلى أن قابلت زميلاً يسأل عنها فجئـت بـه إليها. كانت ساندرا قد استعادت عافيتها، ونزعت الضمادات التى كانت تغطى جروحها، وخرجت من سـريرها تسـتقبل زوارها بغرفة الصالون. كان الفزع مقيماً بعينيهـا. هربـت الدماء من وجهها وانطفأت فيه أزهـار النـار. اسـتقبلتنى

استقبالاً دافئاً، وعاتبتنى لأننى تغيبت أيامـاِ عـن زيارتهـا. شبكت ذراعها فى ذراعى، وقادتنى إلى والدها الذى لم أنتبه لوجوده حتى وقف يصافحنى. قصيراً، ممتلئ الجسم، يفيض وجهه الشديد الاحمرار بذلك الألق الـذى يصـنعه الثـراء والنجاح. خمنت بأنه سعيد بهذه الكارثة التى أعـادت إليـه ابنته. أفسح لى مكاناً للجلوس بجواره. يشكرنى على اعتنائى بساندرا فى وقت محنتها، ويخرج من جيبه بطاقـة الزيـارة يسألنى ألا أتردد فى الاتصال به وقتما أشاء وفى أية حاجـة أريد. عرفت من ساندرا وهى تودعنى أمـام البـاب أنهـا ستغادر المستشفى إلى بيت أهلها بعد ثلاثة أيام. لم أعد إلـى زيارتها. ولم أجد رغبة للذهاب إليها فى بيت والدها. انشغلت برسالتى، منهمكاً فى كتابتها وكأننى أريد انهاءها فـى يـوم واحد. يأتى الليل فأتذكر ساندرا عندما أرى عطرها وأدوات زينتها وقميص نوم تركته معلقاً خلف الباب. ثـم يـدركنى الصباح فأعود إلى صحبة شهرزاد ولا أرى أحـداً سـواها. جاءت ساندرا بعد أسبوعين لإخلاء غرفتها. قائلة بأنها لـن تكمل دراستها هذا العام، لأنها ما زالت بحاجة إلى الراحـة والعلاج. أمرت السائق الذى جاء بها أن ينقل حوائجها إلـى

البيت. ورافقتنى إلى المكتبة لتعيد إليها عدداً من الكتب التى استعارتها والتى من بينها كتاب »جامع الفراشات«. تساءلت فى سرى عن العلاقة بين الكتب التى تقودنا الصدفة لاقتنائها أو قراءتها، وبين ما يقع لنا من أحداث. وبمثل ما جاءت ألف ليلة وليلة تصبغ حياتى بألوانها العابثة، فها هو الكتاب الـذى أحبته ساندرا، وكانت تجدد اسـتعارته مـن المكتبـة مـرة وأخرى، يأبى إلا أن يعيد إنتاج نفسه من خلالها. جلسنا فـى مقصف المكتبة نتذاكر ونشرب الشاى. الآن وقد حدث الذى حدث، فإنها يجب أن تشكر الأقدار التى أنقذتها من عواقـب هذا الشر. إن من ساقها سوء الحظ مثلها. إلى أيدى عصـابة من المجانين الجنسيين، ونجت من القتل، فهى لن تنجو مـن البقاء طويلاً فى مصحات العلاج النفسى.

- ولأن ا يحبك، فقد أعادك إلينا سليمة معافاة كمـا كنت قبل المحنة.

ما أثقل المناسبات التى يتحول فيها كلامنا إلى وعـظ وإنشاء. كنت أعرف أن ساندرا لم تعد ساندرا التى عرفتهـا وعاشرتها. إن شيئاً فيها أصابه الذبول والانطفاء، ولن يعود إلى الاشتعال مرة أخرى. لو أن ما أصابها جاء نتيجة حادث

من حوادث الطرقات، فإنه حتى لو أبقاها قعيدة مدى العمر، لن يصيب بالعطب روحها وإرادتها. ولكن ما حدث لها يحمل دلالة أشد قسوة من الحوادث الأخرى. امرأة تقبل على الدنيا بقلب مفتوح، تحتضن الكـون الشاسـع بسـمائه ونجومـه وكائناته، تضع ثقتها فيه، وتمنح نفسها له. تهزأ بمـا يقيمـه الناس من أسوار وتحصينات، وتأبى إلا أن تتجاوزها، لكـى تنطلق بهدى من نسغ الحرية الذى يجرى فى عروقها، فـإذا بشىء فى قلوب البشر يخونها، ويخـون نظرتهـا الصـافية للحياة. يقول لها بلغة جارحة كحد السكين، سـوداء كقلـب الغابة، بأنه لا يجوز لها أن تتعامل بصدق السريرة، وعفوية الإرادة الحرة، أو تهجر السير مع القطيع عبر الدروب التـى صنعها التقليد والتكرار ووصايا أسلافنا الموتى.

سألتها مداعباً لماذا أخفت عنى انتماءها لأسرة عريقة، غنية، مثل أسرتها، وضللتنى بهذه الحياة الفقيرة حتى ظننت أنها ابنة أكثر العائلات فقراً فى الدنيا. ضحكت قائلة بأن كل هذا لا يعنى لها شيئاً، ولا تريد أن تحمل قيمة تستعيرها من ثراء أسرتها، وتكون بديلاً عن قيمتها الحقيقية. إنها ليسـت نادمة لأنها تخاصمت مع أهلها. وعاشت أكثر مـن عـامين

ونصف بعيداً عنهم. فقد كان ذلك ضرورياً لاختبار قدرتها على مواجهة الحياة خارج هذه المظلة.

ظننت أن ظهور ساندرا سوف ينعش روحى، ويبدد مناخ الوحشة الذى أحاط بى أثناء غيبتها. ولكننى خرجت من لقائها أكثر حزناً وضيقاً بنفسى وبالدنيا. كم هو ضعيف هذا الكائن الذى اسمه الإنسان، هذه الكتلة من الأعصاب والمشاعر والأوعية الدموية، والتى تبدو أحياناً قوية تملك مفاتيح الكون. ما أسهل ما يصيبها العطب وتتحول فجأة وبرغم ما فيها من نبض وحياة، إلى حزمة من الأحطاب الجافة.

أبلغتنى أنهم يريدون السفر بها إلى الخارج ويقترحون عليها منتزهات كثيرة تصلح للراحة والاستشفاء، وهى ما تزال حائرة لم تختر مكاناً تذهب إليه. لم أكن وأنا أسمع هذا الكلام أحس بأى انقباض لأنها ستسافر ولن أراها بعد ذلك. كنت قد وطنت العزم على فراقها، وأدركت منذ أن قرأت أخبار العائلة التى تنتمى إليها، أن طريقى بات يختلف عن طريقها، حتى وإن لم يختلفا، فإن علاقتنا لم تكن منذ البداية سوى رحلة لمسافة قصيرة. فما كانت هى امرأة للارتباطات

الطويلة، وما كنت أنا إلا عابر سبيل، سيواصل المسير بعـد أن يستريح قليلاً فى ظل هذه القلعة العتيقـة. جـاء الفـراق مبكراً. أكثر تبكيراً مما كنا نريد. وبطريقة عنيفة لـم نكـن نتوقعها، ولكن للحياة حقائقها التى لا سبيل إلى الفرار منهـا، ولها منطقها الذى لا يتطابق دائمـاً مـع منطـق الرغبـات الحميمة وأشواق القلوب العاشقة. ما كان يمكـن أن تتوافـق ساندرا على هذا الكلام. أما الآن وقد التقت وجهاً لوجه بأكثر حقائق الحياة هولاً ورعباً، لا أراها تسـتطيع أن تجـادل أو تعارض. ستقبل بهذا القول، كما قبلت بالعودة إلـى أسـرتها التى تمردت ذات يوم على سلطتها، ورفضت بقوة وعنـاد، القيم التى تعيش عليها.

خرجت معها نبحث عن سيارة أجرة، فوجدتها تتلفـت فى ذعر، وكأن أحد الذين يعبرون الطريق سوف يهاجمهـا. تمنيت أن تكون هذه الحالة مجرد خوف طارئ وليست عاهة نفسية تبقى مدى العمر معها. أقلتنا السيارة إلـى ضـواحى المدينة حيث انتصب قصر والدها فوق أرض مرتفعة، تحيط به الحدائق. وقفت أمام القصر أعانقها، وأتبادل فـى نهايـة العناق قبلة سريعة معها. وفى صمت ودون أن تلتفت، ذهبت

ساندرا باتجاه البوابة الحديدية الكبيرة. راقبتها حتى اختفـت. واندفعت عائداً إلى السيارة، أسأل سائقها أن يمضى بأقصـى ما يستطيع من سرعة، لأننى أهملت موعداً شديد الأهمية. لم أكن أهملت شيئاً. ولكننى وجدت أن تقهقر الأبنية والأشـجار والأعمدة وجموع الناس الواقفين أمام المحطات، وتراجع هذه المشاهد، واختفاءها السريع عند اندفاع السيارة، يبعـث فـى نفسى خواطر تريحنى عندما أقارنها بدورة الزمن والتحولات التى تطرأ على حياة البشر.

ها قد اختفت ساندرا ولا أعتقد أننى سأراها بعد اليوم. لا شك أن العالم لن يكون على صورته الأولى. سوف تغدو النجوم أكثر شحوباً، والورود أقل أريجاً، والليل أكثر قسـوة، والشبح الذى خرج باكياً مطروداً من غرفتى، سـوف يعـود لإحياء لياليه الموحشة. ولكن من يصاحب شهر زاد جـدير بأن يجد بعض العزاء. لأصرف وقتى كله لهـا، ولأرافقهـا بأكثر مما رافقها شهريار فى لياليها. إننـى أمنحهـا ليلـى ونهارى. ولا أجلس مثله صامتاً، وإنما أناقشها وأحـاول أن أعرف المعانى الخفية التى تخبئها وراء المعانى الظـاهرة. بعد أسابيع قليلة أكون قد أمضيت معها ألـف ليلـة وليلـة،

ولعلنى أستطيع أن أقوم بتنفيذ هذه الفكرة المضحكة التى طرأت على ذهنى، وهو أن أضع النقطة الأخيرة فى بحثى أثناء اليوم الواحد بعد الألف من مباشرتى العمل فى هذه الرسالة. لم يكن ذلك اليوم بعيداً. أو لعلنى غالطت فى الحساب قليلاً، فجعلته قريباً. لأننى فعلاً أريد أن أنتهى من هذه المهمة. ولم أكن أحتاج إلا إلى كتابة الخلاصات. وبهمة من أراد أن يزيح من فوق ظهره حملاً، أرهقه طويلاً، كتبت الفصل الأخير، وأقفلته بتلك العبارة التى طالما سمعت الأستاذ يرددها عن عبقرية الخيال عند العرب وتجلياته الباهرة فى حكايات ألف ليلة وليلة وما صنعته من تأثير فى آداب الأمم الأخرى.

ذهبت إلى الأستاذ الذى وضع نظارة القراءة فوق عينيه، وقلم الرصاص بين أصابعه، وقرأ البحث بصوته الجهورى الذى أحس به يمنح أسلوبى فخامة لا يستحقها، مصححاً ما يصادفه من أخطاء فى اللغة، واكتفى بعد أن فرغ من القراءة، بأن وضع إشارة »صح«، وهى إشارة لا يضعها إلا عندما يكون راضياً عما قرأ. وراضياً عن نفسى خرجت من غرفته عائداً إلى دارى، أجمع البحث فى إضبارة واحدة،

وأراجع الهوامش، لأنقل عنها ثبتاً بالمراجع والمصادر. فرغت من إعداد صفحات العناوين والإهداء، وذهبت في صباح اليوم التالي إلى دكانة الطباعة السريعة، أحمل إلى صاحبها هذه الكومة من الأوراق، وأعهد إليه بطباعتها ونسخها وتجليدها. وخرجت من عتمة الدكانة وضجيج آلاتها ورائحة الحبر والأصباغ والنشاء، أرفع وجهي إلى السماء، استقبل تدفق الضوء والهواء في صدري الذي كان يختنق ممتلئاً بهذه الأوراق.

إنه اليوم الثاني بعد الألف. أبت شهرزاد أن تعتقني إلا في اليوم الذي حققت فيه انعتاقها.

بدت الشوارع أكثر اتساعاً، والسماء أكثر صفاء، والأشجار أكثر شموخاً ونبلاً. عاد العالم مضيئاً، عامراً بالهواء النظيف. أراه بعيون جديدة، وكأنني خرجت لتوي من نفق مظلم تحت الأرض. عبء ثقيل أزحته عن صدري. إنه اليوم الأول الذي أرى فيه هذه المدينة، دون أن تكون هذه الرسالة تطاردني. دائما ورائي. في لحظات النوم واليقظة، الصحو والسكر، أتجول في الشوارع أو أتسكع بين الحانات والمراقص. أسمع دقاتها الرتيبة التي تتواتر بانتظام في مكان

ما خلف رأسى. تستحثنى أن أترك ما أنا فيه وأذهب إليها. قد أهمل الدراسة شهراً أو شهرين، ولكن موضوع الدراسـة لا يغادر ذهنى لحظة واحدة يـذكرنى بتقصـيرى فـى حقـه، ويطالبنى بأن أكرس حياتى له وحده. فمن أجل هذا البحـث جئت. ومن أجله أقيم فى هذه المدينة، وباسمه أتقاضى منحة كل شهر. فهو سيدى ومولاى، وصاحب نعمتى الذى يجـب أن أنصرف لعبادته آناء الليل وأطراف النهار.

تحررت الآن منه.

أستطيع أن أتسكع فى الشوارع كما أشاء. أشرب مـا طاب لى الشراب. أعبث وألهو وأرقص وأنام وأستمع إلـى الموسيقى وأقرأ الصحف وأتجول فى الأسواق، دون أن أسمع تلك المطرقة تدق خلف رأسى قائلـة: الرسـالة، الرسـالة، الرسالة.

لقد انتهت الرسالة.

مشيت فى الشوارع دون أن أحدد هدفاً أذهـب إليـه. مستمتعاً بانعتاقى، مستجيباً لذلك النداء الذى يطالبنى بأن أقف متأملاً كل بناء، وكل تمثال، وكل شـجرة تصـادفنى فـى الطريق، وكأننى لم أكن عائشاً فى هذه المدينة. كـأننى لـم

أصل إليها إلا هذه اللحظة. إنها لأول مرة أشاهد فيهـا هـذه المعالم متحرراً من تلك العصابة التى تحجب الرؤيـة، وإلا كيف لم أكن أعرف أن هذا التمثال للروائى والتر سـكوت، والثانى للشاعر بيرنز. كنت أمر بهما دون أن أراهما، مثـل كل شىء آخر. حتى واجهات المتاجر كنت أخطـف النظـر إليها خطفاً، وأدخل لأشترى حاجتى على عجل، أمـلاً فـى توفير ساعة أصرفها لبحث. أستطيع الآن أن أقف أمام هـذه المتاجر، وأتفحص معروضاتها، وأختار أكثرها كساداً لأدخل إليه وأثرثر فى مواضيع تافهة مع البائعات وكأننى أملك كل الوقت فى الدنيا.

كان شعوراً مثيراً ذلك الشعور الذى صحوت به فـى اليوم التالى. اختفت تلك الأكوام من الـورق التـى تتكـدس بجوار رأسى، وكأنها رعب يـومى يطـاردنى. لأول مـرة أصحو خلال إقامتى فى هذه المدينة وأنا أحـس ببهجـة أن يصحو الإنسان وأمامه يوم خـال مـن أيـة ارتباطـات أو مسؤولية، مستمتعاً بفكرة النهار المفتوح الـذى لا يطـالبنى بشىء. لا بحث يريد رطلاً من لحمى، ولا شهرزاد تنـادينى

كى أفتح كتابها، وأصرف وقتى مع سكان عالمها المصنوعين من الأوهام والخرافات.

صار الدخول إلى المكتبة، هذا الطقس اليومى، الذى فقد مع التكرار بهجته، شيئاً مثيراً هذه المرة. لأننى أدخل المكتبة الآن لإرضاء نفسى لا لإرضاء الرسالة، وأبحث عن الكتب التى أحبها، لا تلك التى تحبها الرسالة. أستطيع أن اقرأ ما أشاء، وأتنقل بين أقسام المكتبة مثلما أريد، دون أن أحس بالحرج لأننى أهدر وقتاً ثميناً ليس من حقى وإنما من حق الرسالة.

انتهت طباعة الرسالة، ودفعت إلى الجامعة بالنسخ التى تريدها، وتم تحديد موعد المناقشة بعد شهر من تسليمها. انحسرت موجة الإثارة التى جاءت تركض مع إنجاز الرسالة، وأطلت تلك الجزر الصخرية الموحشة التى كانت تختفى خلفها. أصبح الوقت أثناء النهار يمضى بطيئاً، والليل فى تلك الغرفة التى تغطى جدرانها لوحات العبث، أكثر وجعاً بسبب ما يوقظه من ذكريات. رفعت عنى شهرزاد وصايتها، وسحبت الرداء الذى نشرته فوق أيامى، وها أنا أتسكع تحت سماء خالية من ذلك النجم الذى كان يوقد

خطاى. تنهمر على قلبى ذكريات أماكن وأحداث وكائنات كانت مغمورة تحت ركام الحكايات والوقائع الأسطورية. يملأ رأسى ضجيج الأصوات المتداخلة المتعددة التى تطالبنى بالولاء. ليندا تظهر الآن، يوقظ الفراغ ذكرها، فتفتح شرفة بعيدة، وتنشر كساحرات المعابد القديمة، عبيرها المصنوع من أعشاب الصحراء، تنادينى. أنجبت منذ ستة أشهر طفلها الذى يجب أن يكون طفلى أنا أيضاً. فهى الأجدر بأن أمنح ولائى لها واذكرى العلاقة التى أثمرت ولداً. ولكن ساندرا تشرق فى سمائى كإلهة الأساطير، تحمل فى يدها حفنة من النجوم. امرأة أغنت حياتى بحبها الذى لا يشبه قصص الحب الأخرى، وأضاءت بعض ليالى العمر بنجومها الساطعات. بسطت لى جناحيها، وحملتنى فى سياحات إلى عوالم من الفرح لا أحد يعرفها إلا هى. ولن تستطيع الفواجع التى سرقتها منى، أن تسرق ما التصق بجسدى من بقايا ضوئها وعبير مسكها الليلى. سأعود بعد أيام إلى بلادى، ولكن هذه المدينة التى أدفأتنى بنار مواقدها، وأسقتنى من جميل شرابها، وأدخلتنى كواحد من صغارها، إلى دوائر عطفها وحنانها، ماذا أقول لها الآن، وقد جاءت ساعة الفراق، وحان

أن أعود إلى وطن يشدنى إليه ذلك الحبل السرى الذى يمتـد بين لحظتى الميلاد والموت.

وبطيئاً مضى الشهر، وجاء موعد مناقشـة الرسـالة وانقضى. وأقمنا فى ذات اليوم حفل عشاء للممتحنين فى بيت عدنان، حيث استمعت لأول مرة إلى اسمى مقرونـاً بلقـب »الدكتور«، الذى صار عدنان وزوجته ينادياننى به مداعبة، واحتفالاً بالدرجة العلمية التى نلتها هذا اليوم.

واستيقظت صباحاً لاكتشف أنه لم يبق أمـامى إلا أن أحزم كتبى وأمتعتى، وأحجز مقعداً فى الطائرة التى ستعيدنى إلى بلادى. أصابنى ذعر لا أدرى من أين جاء، أو لماذا يأتى الآن ويهاجمنى بهذه المباغتة، وكأننى لا أعرف أن حيـاتى هذه ليست إلا جملة اعتراضية بين شرطتين. أو كأننى أكره الرجوع إلى موطن أهلى. فأنا لا أكره ذلك، بل إننى أشـتاق إلى أن أرى كل شجرة نخل تغـرس رأسـها فـى الأفـق المضىء. أن ما أحس به من ذعر وفجيعة إنما يأتى نتيجـة هذه القسوة التى تتقطع بهـا خيـوط الوشـائج والعلاقـات الحميمة. بطاقة صعود إلـى الطـائرة، وإذا بعـالم وبشـر وعواطف وأشواق، تغمرها مياه الطوفان، وتختفى فجأة مـن

فوق الأرض. بسرعة ينتهى كل شىء وكأنـه لـم يكـن إلا وهماً. وكأن هؤلاء البشر الذين عرفنـاهم، وتآلفنـا معهـم، وأصبحوا جزءاً من حياتنا، قد داهمهم على حين بغتة، وفـى مرة واحدة، موت فجائى. وإلا ما هو الموت، إن لم يكن هذه الحدة الموجعة التى تقطع ما تواصل بيننا من علاقات. هـذا الخاطر الذى يربط الفراق بالموت، هو الذى أفزعنى، وأيقظ الزاويع السوداء فى رأسى. كنت قد صحوت مبكـراً علـى صوت الرجل الذى يأتى بالحليب إلى باب غرفتى. إنه رجل تتحول اللغة على لسانه إلى ألغاز. أجهدت نفسى طويلاً لكى أفهمه، إلى أن صرت سعيداً بقدرتى على اسـتيعاب كلماتـه المغموسة فى طين وتراب اسكتلندا. إننى أدرك الآن، إلى أى مدى سيكون محزناً أن أفارقه، وأفارق هذه العـادة الجميلـة التى تجعل الحليب يأتى كل صباح إلى باب الدار.

أخذت أول سيارة أجرة تصادفنى، وذهبت إلى عـدنان أوقظه من نومه. سألنى بلهفة عما جاء بى فى هذه السـاعة المبكرة، فقلت بسرعة لكى أمحو القلق المرتسم خطوطاً على جبينه:

- أريد أن تذهب معى، أنت وزوجتك، إلى ليندا الآن.
لن أترك هذه المدنية إلا وهى بصحبتى.

لأمر ما تصورت بأننى لن أقهر هذا الاحساس بالذعر إلا إذا ذهبت إلى ليندا، وأقنعتها بأن تقبل بى زوجاً، وترافقنى فى رحلة العودة إلى وطنى، متوسلاً بهذا الطفل الذى بيننـا، والذى يمنح لهذا الارتباط مبرراً أكثـر قـوة مـن مجـرد استرجاع علاقة حب قديمة. سوف يرضى رحيلها معى كـل هذه الولاءات التى تتنازعنى، ويطرد من قلبى ذلك الخـاطر الذى يربط الفراق بالموت. لن يكون الفراق موتاً عندما تكون ليندا معى، وإنما رحلة يتجدد بعدها التواصل واللقاء. ستكون ليندا مندوباً عن كل هؤلاء البشر الذين عاشرتهم، وعن كـل هذه الأماكن التى تآلفت معها. إننى ما زلت أحبها. وأعـرف على وجه اليقين، أن الأيام لن تتيح لـى بعـد الآن امـرأة أتزوجها غيرها.

أبدى عدنان اندهاشه لأننى أعلنت حالة الطوارئ مـن أجل موضوع لا يستوجب الاستعجال، بقدر ما يتطلب التأنى فى التفكير والمعالجة. أقنعنى بأن نذهب إليها بعـد ترتيـب موعد معها وشراء هدية لصغيرها، واقترحت زوجته، التـى

جاءت تشاركنا الحديث، بأن نرسل لها سطراً نخبرهـا فيـه بأننا سنزورها يوم الأحد القادم. خرجت من بيتهما فوجـدت فى دكانة تبيع التحف، قلادة ذهبية تحمل قرصاً رسمت فوقه صورة ملاك يحمل كتاباً. رأيت أنها تليق بحفيد رجل كـان يخدم رسالة السماء، فاشتريتها له. فكرت كثيراً قبل أن أغادر بيت عدنان فيما إذا كان مفيداً أن أخبره بحقيقة أننـى والـد الطفل. سأسأله أن يحفظ هذا السر، الذى لا أقوله له إلا لكى يفهم دوافعى، فلا يتهاون فى معاونتى. تواعدت معـه علـى لقاء فى المكتبة، وعندما جاء قلت له:

- لا تندهش إذا أخبرتك أن ما يربطنى بليندا أكثر من مجرد الحب. إنها أم ابنى.

- هل أنت واثق من ذلك؟

- هذا ما تعرفه ليندا. ويعرفه أيضـاً دونالـد الـذى سيحمل الطفل اسمه. راجياً ألا تخبر بذلك أحداً.

- هذا إذن ما يدفعك إلى. ..

قلت مقاطعاً:

- ليس هذا فقط. إن أكثر ما يدفعنى إلى الارتباط بها، هو أننى أرغب فى الاستقرار مع امرأة أعرفها وأحبها.

قلت ذلك دون أن أتفحص مشاعرى، لأرى إن كان ما أحمله لها حباً، أم مجرد حنين إلى أيام العشق التـى عشـتها معها. أدرك جيداً أن فورة العواطف فى تأججها واندفاعها قد انحسرت الآن. ومهما كان هذا الحب هادئاً، خالياً من توقـده القديم، فهو أفضل من مواجهة المصير الذى ينتظرنى عندما أعود باحثاً عن زوجة قد لا أستطيع رؤيتها قبل الزواج.

قلت أنقل قلقى لعدنان:

- لا أريد أن أعود إلى طرابلس، فأرسل عجائز العائلة يبحثن عن امرأة يزوجنها لى.

انتظرت مجىء يوم الأحد، وخرجـت مبكـراً ألتقـى بعدنان وزوجته عند موقف الحافلة التى أقلتنا إلى بيت ليندا.

ما أن وصلت إلى غرفة الاستقبال، ورأيـت الطفـل جالساً فى عربته، حتى اتجهت إليه، أرفعه بين يدى قائلاً:

- ما أجمل هذا الصغير!.

لم أكن أقول ذلك مبالغة فى الإعجاب به، أو إظهـاراً لعواطف أحوز بها رضا الأم. كان الطفل جميلاً. استعار من ليندا لون عينيها. أما الشعر الذى بدا أجعد، يميل إلى السواد، فهو شعرى. وإن صبغت ليندا سواده بشىء من الاحمـرار،

فصار كأنه مدهون بالحناء. أما الجبين واتساع المنطقة بين الحاجبين، فهما ينتميان لوالدى. أخذ من أمه لون بشرتها الوردية، وأضاف إليها شيئاً من سمرتى، فصار كمن سبح فى البحر، ثم أستلقى طويلاً يمتص رحيق الشمس. كنت أظن بأننى لن أرى سوى قطعة لحم لن أتعاطف معها، وها أنا أشهد خطأ ذلك الظن. فقد صنعت الأشهر التى مضت، من قطعة اللحم، كائناً بديعاً. وهذا الكائن البديع هو ابنى، الذى أحبه الآن بمثل ما يحب الأب ابنه.

أخرجت من جيبى القلادة وعلقتها فى عنقه، سائلاً جده الإمام أن يباركه ويرعى خطاه. ووضعت أنار بين يديه دمية صار يلهو بها. فى حين جاءت أمه تحمل الشاى وتبلغنا تحية والديها اللذين ذهبا لحضور قداس الأحد. سألتها عن اسم الطفل فقالت أنه »آدم«. ناديت الطفل بهذا الاسم فأدار وجهه نحوى. لا أعرف اسماً يليق به أفضل من هذا الاسم الذى احتوى كل الأسماء، وزواج بين كل الثقافات. تفاءلت خيراً باسم الصغير، وأيقنت أنها اختارته له، مراعاة لصلة الدم التى تربطه بى. ولكن التفاؤل الذى أحسست به، بددته كلمات

ليندا التى ردت بها على عرض الـزواج. انتقـت كلماتهـا بعناية، فجاءت قاطعة، حاسمة، ترفض الفكرة.

- لا أريد أن أخدعه، ولا أريد أن أخدع نفسـى. لـن أعده بسعادة لا أستطيع تحقيقها له، وليس بإمكانه أن يعـدنى بسعادة لن "أجدها بعيداً عن هؤلاء الأهل وهذه البلاد.

أرادت أنار أن تكون نافعة لى، فقالت:

- تعرفين أن خليلاً يحبك يا ليندا. وحبه مبرر كـاف لأن تمنحى الموضوع فرصة أفضل للتفكير.

- إنه يأتى خاطباً ليندا التى كان يعرفهـا منـذ عـام مضى. ولكن ليندا تغيرت كثيراً منذ ذلك الوقت. إننى أرحب به صديقاً لا أحمل له إلا الود والاحترام. أما الزواج فإننى لا أفكر فيه الآن.

بقيت صامتاً لا أشارك فـى الحـديث إلا بالاسـتماع والانتظار. إننى لا أستطيع أن أتوسل إليها باسم الطفل، أمام هذين الصديقين. ثم لماذا ألجأ إلى الابتزاز العاطفى من أجل علاقة يجب أن تنشأ بدافع الحب والإرادة الحرة. لقد انتهـى ذلك الحب الذى كان يسوقها كما تسوق الريح غمامة عطـر، حتى تصعد إلى غرفتى وتهجع فى سريرى. أعرف أننى لـم

أفطم نفسى عن حبها، ولكننى لم أشعر بالغضب وأنا أسـمع رفضها. وأحس بالإثم لأننى جئت أسوق عليها أصـدقاءها، أحرجها، وأضعها فى هذا الموقف الذى يجلب الكدر. إننـى وأنا أنظر إليها، متأملاً رقة وصفاء أصابعها الممسكة بفنجان الشاى، أشعر بالخجل لأننى جئت أسـألها أن تحمـل عبئـاً أعرف انها لن تطيقه. كنت سأظلمها كثيراً لو اقتلعـت هـذه النبتة الاسكتلندية من أرضها ومناخها وبيئتها وأخذتها إلـى بيئة ومناخ غريبين عنها. إننى ابن الرياح الساخنة، والشمس الدائمة السطوع والالتهاب، والصحراء التـى تكـره النبيـذ وقاعات الرقص. ابن تلك الطبيعة وعناصرها، التى أعدتنى لاحتمال قسوتها. ولكن بأى حق أسأل هذه المرأة أن تتخلـى عن كل شروط حياتها، وتلحق بى لتحيا تحت شروط المجتمع الصحراوى وتقاليده.

رأيت عدنان يهم بالكلام، فسبقته إلى الحديث:

- لا داعى لإطالة عمر هذه اللحظات المحرجة. إننى أحترم رأيها، وأقبل ردها عن طيب خاطر. سأسـافر يـوم الأحد القادم، وأريد أن أسأل ليندا طلباً واحداً قبل رحيلى.

حسبت ليندا بأن ما سأقوله يتعلق بالطفل الذى يجلس فوق حجرها، فوضعت ذراعيها حوله، وضمته إلى صدرها.

- كل ما أريده منها الآن هو أن تمنحنى وعداً، بأن تحضر حفل الوداع الذى سأقيمه لأصدقائى يوم السبت القادم.

أطلق عدنان ضحكة صاخبة قبل أن يقول:

- ظننت بأنك ستهدد بإشعال ثورة فى هذه البلاد، فإذا بك تخذلنى وتتنازل بهذه السرعة.

تبدد جو التوتر الذى كان يسود جلستنا. كنا جميعاً نجلس على أطراف مقاعدنا، ونمد رؤوسنا ترقباً وانتظاراً. أسند الجميع ظهورهم إلى المقاعد، وغمر الارتياح وجههم بعد أن رأونى أشاركهم الضحك وكأننى لم أخذل فى مطلب كان منذ لحظات هو أغلى الأمنيات.

قررت بأنه إذا كان الفراق موتاً لم أستطع هزيمته بالزواج من ليندا، فلأهزمه بأن أحوله إلى فرح. فرح من أجل الفرح، وحفل لوجه الاحتفال وحده. سأدعو إليه مع الأستاذة والطلاب الذين أعرفهم، موزع الحليب، وعامل التنظيفات فى بيتنا الطلابى، والقائمات بإعداد الشاى فى مقصف المكتبة، والرجل العجوز الذى يدمن الشراب ويتعهد

الموقد الكبير فى حانة العناقيد بالأحطاب. سـأكترى قاعـة بنادى الطلاب، وأدعو جميع هؤلاء الناس إلى ليلـة رقـص وطرب وشراب، تمتد حتى الصباح، وفاء لكل اللحظات التى عشتها معهم. وسأخرج مباشرة لألتحق بطائرتى، حاملاً معى فرحة هذا الحفل، كآخر ما احتفظ به فى ذاكرتى. ولذلك فإن ليندا لا بد أن تكون هناك، لكى لا تبقى الصورة ناقصة.

جاء موعد ذهابنا، وخرجت ليندا أمام البيت لوداعنـا، حاملة »آدم« بين ذراعيها. كان النهار صحواً، والسهول تمتد فسيحة أمام البيت، يغسلها الضـوء، وتحـف بهـا أشـجار السنديان، ويشق الأفق الذى خلفها، سرب من الطيور، قادماً باتجاهنا. أخذت منها الطفل وتقدمت به عدة خطـوات إلـى الأمام. رفعته إلى أعلى، وكأننى أريـد للشـمس أن تـراه، ولكائنات السماء أن تباركه، ولهذه السهوب، ذات الاخضرار المضىء، أن تمنحه صـداقتها، ولأشـجار السـنديان، ذات العراقة والكبرياء، أن تحيط طفولته بحنانها، ولهذه الطيـور التى تضرب الهواء بأجنحتها أن تملأ حياته ببهجة غنائهـا. رأيت فيه صورتى، فأدركت فى تلك اللحظة، أننـى كنـت مخطئاً عندما فكرت فى الفراق، أن شيئاً عميقاً فى نفسى كان

يعلم منذ البداية، بأننى سأواجه هذه اللحظة. وأراد أن يجنبنى هذه المحنة. فسرق ذات ليلة بهيجة، بعض ملامحى، وحفنـة من دمى، وقطعة من قلبى، وصنع منها طفلاً. ولذلك فـأننى لن أفارق هذه البلاد. لا لن أفارقها. إننى أسافر بجـزء مـن نفسى، وأترك لديها الجزء الأجمل والأكثر بهاء ونقاء. ها هو يحمل جبين أبى. كان جبين والدى أجمل ما فيه. جبـين لـم يلوثه غبار المذلة والسؤال. فلتحفظ أيها الصغير لجدك جبينه مضيئاً، جميلاً، ولتجعله سبيلك إلى حياة يزينهـا الكبريـاء، حياة تليق ببهائك. وها هو الملاك الذى يحمل كتابـاً، فـوق صدرك. لقد كان الكتاب الذى احتواه صدر جدى الامام، هو الجزء الأجمل منه، الجزء الذى أشع بالخير والمحبة. فلـتكن هذه القلادة المباركة، تميمة تحفظك وترعاك وأنت تدرج فوق هذه السهوب. وأنت أيتها الوهاد والينابيع والحقول وأشـجار السرو والدردار والسنديان، أنت أيتهـا المـداخن والقبـاب والطرقات التى تحفر الصخر وتتسلق الجبال. هاهم أسـلافى يتركون هذا الطفل، هذا الجزء الجميل من نفوسهم، وديعـة لديك، ليتربى وينمو بين ذراعيك. فلتكونى رفيقة له، حانيـة عليه. إذا عصفت الرياح شديدة عاتية، فليكن قرميد بيوتـك

الحمراء ذرعاً يقيه انهمار سهام الريح. وإذا جاء الشتاء عنيفاً ببرده وثلوجه، فلتدفئى قلبه الصغير بحنان مواقدك. وإذا أظلم الليل قاسياً، داكن السواد، فلتقيه وجع الليل بدثار من الأغانى التى تعيها ذاكرة حقولك ودروبك، سوف لن أقول وداعاً أيها الأصدقاء والأحبة، لأننى وأنا أرحل عنكم، فإن جزءاً حميماً من نفسى، سيبقى معكم. به تتجدد علاقتنا، وتتجدد صداقتنا، على مدى الزمن، على مدى الزمن.